شعاع

من المحراب

الجزء الثامن

إعداد

سليمان بن حمد العودة



مشاعر ما بعدَ رمضانَ[١]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله جعلَ في تعاقبِ الليلِ والنهارِ وقضاءِ الشهور والأيام آيةً لمن أرادَ أن يذّكر أو أرادَ شكورًا، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، تفضّلَ على عباده بمواسمِ الطاعاتِ لتعظيمِ أجورِهم، وشرعَ لهم من أيام الأعيادِ والأفراحِ والمسرّاتِ ما تطيبُ به نفوسُهم وتَنْشرحُ له صدورُهم، ووعدهم بالمزيد في حال شكرِهم، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، كان ومن سبقَه من الأنبياءِ شاكرينَ لربِّهم، ذاكرينَ لخالقِهم. اللهمّ صلِّ وسلِّم عليهم أجمعين، وارضَ اللهمّ عن الصحابةِ أجمعينَ، والتابعينَ ومن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يوم الدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢].

إخوة الإيمان: قبلَ أيامٍ ودّعْنا رمضانَ.. ودّعَنا رمضانُ إلى عامٍ قابلٍ، سيكون بعضُنا حينها شاهدًا حَيًّا، وسيكون آخرونَ غائبينَ في عِداد الموتى.. وإلى ذلك الحين، بل وفي كلّ حينٍ نستودعُ اللهَ دينَنا وأماناتِنا وخواتيمَ أعمالِنا لمن كتبَ اللهُ له الحياةَ، أو قدّر عليه المماتَ.

أجل؛ لقد ودّعَ المتقونَ رمضانَ بالدموعِ من العيونِ والحزنِ من القلوبِ.. إنّهم حَزِنونَ على فُرَصِ الطاعةِ من صيامٍ وقيامٍ وذِكْرٍ وتلاوةٍ وإحسانٍ.. وحَزِنون على أيامٍ فُتحتْ فيها أبوابُ الجنةِ وكَثُر العُتقاءُ من النارِ.. وصُفِّدت الشياطينُ، حزِنون على ذهاب أيامٍ نالت النفوسُ من التقوى حظَّها.. ومن شهودِ آياتِ الله

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٣/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

في الأنفسِ والآفاقِ ما عظّمَ الخالقَ في قلوبها.. حَزِنون على أيامٍ تُعَمَّرُ فيها المساجدُ بالمصلينَ والتَّالينَ والذاكرينَ..

إي وربي، إنهم حزِنونَ على كلِّ فرصةٍ للطاعةِ تُضاعَفُ فيها المثوبة، وحزِنونَ أكثر إذ تَهْجُرُ فِئامٌ من المسلمينَ هذه الطاعاتِ أو بعضَها إلى رمضانَ القادمِ.. وبين الرمضانين مَفاوزُ لا تنقطعُ فيها أعناقُ الإبلِ فقط، بل وتنقطعُ فيها أنفاسُ البشر، ويرحلُ عن هذه الحياةِ جُموعٌ من المسلمينَ استكملت رزقَها وأجلَها، وأتاها اليقينُ من ربِّها.

أيّها المسلمونَ: : لقد فازَ في رمضانَ من جاهدَ نفسَه على طاعةِ الله، فكانَ في عِدادِ الحافظينَ لصيامِهِم من قولِ الزورِ وعملِ الزورِ، وكانَ في عدادِ القائمينَ والراكعينَ والساجدينَ والمستغفرينَ بالأسحارِ.. وكان من المساهمينَ في الدعوةِ والإحسانِ.. أجل، إنها نفوسٌ استطاعت أن تَشُدّ المَآزِرَ، وأن تتجافى المضاجِعَ.. وأن تتغلبَ على أهواءِ النفسِ.. وعسى اللهُ أن لا يحرمَ هؤلاءِ الأجرَ، وأن يُضاعِفَ لهم المثوبةَ، وأن يتجاوزَ لهم عن الخطيئةِ والغفلةِ، ولكن ماذا بعدَ رمضانَ؟ إن ثمّةَ فئةً أُخرى قادرةٌ على مواصلةِ المسيرِ بعد رمضانَ.. وعندها هِمّةٌ على مراقي العزّ في شوالَ وما بعدَه من أيام وشهورِ العام.. أولئكَ أحسُّوا بلذةِ الطاعةِ فما عادوا يُطيقونَ هجرَها.. وأولئكَ وفَّقهمُ الله لعملِ الحسنةِ على إثرِ الحسنة. وعملُ الحسنةِ اللاحقةِ مؤشّرٌ على قَبول الحسنةِ السابقة، وفضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ، أولئكَ يَسْتَشْعِرونَ أن قِصَرَ الحياةِ الدنيا -بجانب الآخرةِ- لا يستحقُّ أن يُصرَفَ من العمرِ شيءٌ بالعبثِ واللّهوِ والغفلةِ والتفريط.. وهذه الحياةُ الدنيا متاعٌ، والآخرةُ دارُ القرارِ.

يا أخا الإسلامِ: وحين تزدحمُ هذه المشاعرُ الفياضةُ بعد رمضانَ.. فإني

سائلُكَ.. وأدَعُ الإجابةَ لكَ فأنتَ على نفسِكَ رقيبٌ.. ولن يكونَ أحدٌ أحرصَ منكَ على نجاةِ نفسِكَ وإسعادِها.

والسؤالُ الموجّه يقول: بِم تُفكِّرُ بعدَ انقضاءِ شهرِ رمضانَ؟ وأُسارعُ إلى مساعدتِكَ في اختيارِ الجواب لأقولَ لك: إن كنتَ عَزَمتَ على مواصلةِ الخيرِ فرعاكَ اللهُ وسدَّدكَ ووفَّقكَ وأعانكَ، وأَنتَ أهلٌ لحُسنِ الظنّ بكَ، وإن ضعُفتْ نفسُكَ وفكّرتَ بأمرِ سوء.. وهممتَ بنقضِ غَزْلِكَ في رمضانَ، والعودة إلى مُنكراتٍ كنتَ تُزاوِلُها قبلَ رمضانَ، فاتّقِ اللهَ وادفعْ هذه الفِكَر السيئةَ، وجاهدْ نفسَكَ على الخلاصِ منها، وهل ترضى أن تُصنَّفَ مع أقوامٍ بئسَ هُمُ القومُ، لا يعرفونَ اللهَ إلا في رمضانَ.. وليس من العقلِ أو الحزمِ أن تُضيِّعَ رصيدًا جمعْتَه في شهرِ الصيامِ.. استبشرتَ به أنتَ، وحفِظَه لك الكرامُ الكاتبون، وستلقاهُ مذخورًا لكَ يومَ الحسابِ.

يا أخا الإيمانِ: إنّ تقوى الصيامِ ينبغي أن تظهرَ على المسلمِ في شهرِ الصيامِ وبعد شهرِ الصيامِ.. وإلا فَما تحقَّقتِ التقوى -وهي الحكمةُ- من وَراءِ الصيام.

أيّها الناسُ: كُلُّنا غَدَا بالأمسِ للعيد، وكلُّنا لبسَ الجديدَ، وتلك مظاهرُ نشتركُ فيها جميعًا.. ولكن ثمةَ مظاهِرُ نتفاوتُ فيها، وتلكَ التي تستحقُّ أن نَتنبَّه لها وأن نتنافسَ فيها.. إن الموفَّقَ حقًّا - يومَ العيدِ - من كان بالطاعةِ سعيدٌ.. والموفَّقُ من حفظَ له الكرامُ الكاتبونَ ما يُسعدُه يومَ الوعيدِ.. وتلكَ وربِّي، وإن لم نقطعْ بها لأحدٍ في هذه الحياةِ فستنكشفُ يومَ العرضِ على اللهِ.. وما أعظمَ الفَضيحةَ حين يُكشفُ عن ساقٍ ويُدعى أقوامٌ للسجود فلا يستطيعونَ.. وحينَ تتطايَرُ الصّحفُ، فمنهم من هو آخذُها باليمينِ وهو في العيشةِ الراضيةِ والجنةِ العاليةِ.. ومنهم من يأخذُها بالشمال وأولئكَ الذين يُقال لهم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[١] - وأولئكَ أهلُ الزَّقومِ والغِسلين.

أيّها المسلمونَ: : وفرحتُكم بالعيدِ مَظهرٌ من مظاهرِ دينِكم، وشِعارٌ للفرحةِ بإتمامِ الصيام والتوفيقِ للقيام، وتلاوةِ القرآن.. بل هي جزءٌ من قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٢].

ولكن هذه الفرحةَ ينبغي أن لا تُنسيَكُم جموعًا من إخوانكمُ المسلمينَ كتبَ اللهُ أن يعيشوا في مِحَنٍ وبلايا - وحصارٍ وأذى من قِبَلِ الأعداءِ.. وأولئك المُمْتَحنونَ لا ندري كيفَ كانَ عيدُهم.. وإلى أيِّ مدى استشعروا العيدَ وفرحتَه كما استشعره إخوانُهم.. ولكنا بكلِّ حالٍ ينبغي أن ندركَ أنهم جزءٌ مِنّا.. وعلينا أن نسعى لإسعادِهم، وأن نساهِمَ بما نستطيعُ في رَفْعِ نوازِلِهم، وعسى اللهُ أن يأتي العيدُ القادمُ وهم سالمونَ آمنونَ، أعزّاء منتصرون.

إخوة الإسلام: إن في دينِنَا فسحةً للفرحِ والبهجةِ - ولاسيما في أيامِ العيدِ.. ولكن احذروا أن يتحوّلَ الفرحُ المشروعُ إلى بَطَرٍ وأَشَرٍ، وفيما أحلّ اللهُ غنيةٌ عمّا حرَّمَ. عَظّموا اللهَ في حالِ سَرّائِكم وضرّائِكم، واعبدُوه وأطيعوه في حال أفراحِكُم وأحزانِكُم، فأنتم مأمورونَ بالعبوديةِ للهِ في كلّ حالٍ من أحوالكم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣].

عبادَ الله: اجعلوا من أيامِ العيدِ فرصةً للصِّلةِ والزيارةِ، والعفوِ والمسامحةِ، والمحبةِ والرحمةِ.. وما لم تتصافى النفوسُ في أيام الأعيادِ والبهجةِ والسرورِ،

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٣٠-٣٢. (٢) سورة يونس، الآية: ٥٨.

(٣) سورة الأنعام، الآيتين: ١٦٢، ١٦٣.

فمتى يتمّ ذلك؟! وما لم يتجاوزِ المسلمونَ الأحقادَ والضغينةَ على أثرِ تقوى الصيامِ والقيام - فأيّ أيامٍ هي أَحرى بالمسامحةِ والوئامِ، واعلموا أن الشيطانَ أَيِسَ أن يُعبدَ في أرضِكُم، ولكن بالتحريش بينكم، أَعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].



(١) سورة فاطر، الآية: ٦.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ أضحكَ وأبكى وأماتَ وأحيا، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، إليه المنتهى وعليه النشأةُ الأُخرى، وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسوله خيرةُ الأنبياءِ ﷺ، وصفوةُ الخلقِ - اللهمّ صلِ وسلم عليه وعلى إخوانِه وآله ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ المُلتقى.

إخوةَ الإسلام: لا جُناح أن يفرحَ الناسُ بالعيد، ففريقٌ إلى البريةِ يَرحلونَ، وفي كونِ الله الفسيحِ يتفكرونَ، وفريقٌ آخرُ يجتمعون ويلتقونَ لصلةِ ذوي القُربى في البيوتِ أو الاستراحاتِ.. فيأنسُ بعضُهم ببعضٍ ويتآلفونَ على الخيرِ، ويتعاونونَ على البرِّ والتقوى، ولا خيرَ فيمن لا يألفُ ولا يُؤلف، وإذا تباعدتْ بالناسِ الدِّيارُ أو فرّقتهم أنواعُ الأعمالِ وأماكنُ الارتباطاتِ، ففي أيامِ العيدِ والإجازاتِ فرصةٌ لتعويضِ ما فاتَ ووَصْلِ ما انقطعَ.

نعم أيّها المسلمونَ، كم هو عظيمٌ الإسلامُ في تشريعاتِه، يدعو إلى الصِّلةِ والقُربى والأُنسِ والمحبةِ، ويجزي على ذلك الجزاءَ الأوفى.. لقد تعلّقتِ الرحمُ بالرَّحمن حين خَلَقَ الخلقَ وقالت: «هذا مقامُ العائذِ بكَ من القَطيعةِ، فقال اللهُ ﷻ : ألا تَرْضيْنَ أن أَصِلَ من وَصَلَكِ، وأقطعَ من قَطعكِ؟ قالت: بلَى، قال: فذاك»[1].

أجل، يكفي الواصلينَ أجرًا وفخرًا أن يصلَهُم الرحمنُ.. وكفى للقاطعين عقوبةً أن يقطعَهُم الله؟

وفي كتاب الله جاءَ الربطُ بين قطيعةِ الرحمِ والإفسادِ في الأرض، فقال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، من حديث أبي هريرة برقم (٥٩٨٧). ومسلم، كتاب الأدب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها برقم (٢٥٥٤).

تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾[1] على أن الرحم قد تطلقُ ويُرادُ بها -مع الأقربين- الأبعدونَ من أهلِ الإسلامِ والإيمان - وهناك وقفةٌ للقرطبي رحمه الله في تفسير الآيةِ السابقة، قال فيها: وبالجملةِ فالرحمُ على وجهينِ: عامةٍ وخاصةٍ.

فالعامةُ: رَحِمُ الدِّين، ويجب مواصلتُها بملازمةِ الإيمانِ، والمحبةِ لأهلِه ونُصرتهم، والنصيحةِ وتركِ مضارتهم، والعدلِ بينهم، والنَّصفةِ في معاملتِهم، والقيامِ بحقوقِهم الواجبةِ، كتمريضِ المرضى وحقوقِ الموتى، من غَسلِهم والصلاةِ عليهم ودفنِهم، وغير ذلك من الحقوقِ المترتبةِ لهم.

وأما الرّحِمُ الخاصةُ، وهي رَحِمُ القرابةِ من طرفي الرجلِ أبيهِ وأمّهِ، فيجبُ لهم الحقوقُ الخاصةُ وزيادةٌ، كالنفقةِ وتفقُّدِ أحوالهم، وتركِ التغافلِ عن تعاهُدِهم في أوقاتِ ضروراتِهم، وتتأكدُ في حقّهِم حقوقُ الرحمِ العامةِ، حتى إذا تزاحمتِ الحقوقُ بُدئَ بالأقربِ فالأقربِ. (الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٤٧).

عبادَ الله: ألا فصِلُوا أرحامَكُم في كلِّ حينٍ، واستثمروا فُرصَ الأعيادِ لمزيدِ الصِّلةِ والإحسان، ولا تنسَوا حقوقَ إخوَّةِ الإسلامِ ورَحمَ الدِّين، لا سيّما لمن بهم حاجةٌ إليكم.

ألا وإن من المظاهرِ الطيبةِ لقاءاتِ العوائلِ الزَّمانيةِ أو الموسميةِ، تلكَ التي لا تخلو من كلمةٍ طيبةٍ، أو برنامجٍ لطيفٍ هادفٍ، أو التفاتةٍ للمحتاجينَ في الأسرةِ ودعمِهم من خلالِ صندوقِ الأسرة، أو إعاناتٍ وتبرعاتٍ مقطوعةٍ - أو نحو ذلك من مشاريعَ تزيدُ في بناءِ الأسرةِ، وتُسهمُ بشكلٍ عامٍّ في بناءِ المجتمع الإسلامي على الرحمة والبِرِّ والإحسان.. وكم هو جميلٌ حينَ يكونُ للمرأةِ

(١) سورة محمد، الآية: ٢٢.

المسلمةِ داخلَ الأسرةِ نصيبُها من البرامجِ والمشاريعِ النافعةِ، فتساهِمُ الأُسرُ في مزيدِ بثّ الوعيِ لحقوقِ المرأةِ وواجباتِها في الإسلام، كما تُسهم في صَدِّ الهجماتِ الشرسةِ الموجهةِ للأسرةِ عمومًا، وللمرأةِ على وجهِ الخصوص.

أيّها المسلمونَ: : إن تلكَ معانٍ من الصلةِ ينبغي أن نستشعِرَها في كلّ حينٍ، وأن نُجسِّد بها فرحتَنا بالعيدِ.

ألا فأنيبوا إلى رَبّكم وأسلِموا له.. وحافظوا على رصيدِكُم من عملِ الصالحاتِ.. ولا تكونوا كالتي نقضَتْ غزلَها من بعدِ قوةٍ أَنْكاثًا.

واعلموا أن من صامَ رمضان ثم أتبعَه ستًّا من شوال كان كصيامِ الدهر، وفي صيامِ النفلِ، فرصةٌ لسدّ النقصِ والخَلَل في صيام الفرض.

عبادَ الله: وثمّةَ أمرٌ آخرُ ينبغي أن نستحضِرَه ونحنُ نفرحُ بالعيد، بل وبكلّ فرحةٍ عارضةٍ زائلة، أن نتذكَّرَ الفرحةَ الكبرى الدائمةَ في جِوارِ الرحمن، في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِر - هناك الحُبورُ والسرورُ فلا ينقطعان.. وهناك اللّذةُ والنعيمُ فلا يُنغّصان، فرحٌ لا يَعقُبُه حُزنٌ، وبهجةُ نفوسٍ لا تنقطعُ ولا تَبلى ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1].

إن الفرقَ كبيرٌ بين من تمتدّ أفراحُهم في الدُّنيا إلى أفراحِ الآخرةِ، أولئكَ أهلُ الإيمانِ وعملِ الصالحاتِ والمؤمنونَ بالبعثِ والنشور.. وبين من يُنقلونَ فجأةً من السُّرورِ إلى الثُّبور، وأولئك هُم المغرورونَ في الدُّنيا، الغافلونَ عن الرجوعِ إلى رَبّهم للحسابِ والمتشكّكونَ في البعثِ والجزاء، لقد انقضتْ فرحتُهم في الدنيا وحطُّوا رحالَهُم في النكدِ والشقاءِ وأولئك قال الله عنهم: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ

(١) سورة فاطر، الآيتين: ٣٤، ٣٥.

كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾[(١)].

أجل، لقد كانَ رسولُ الهدى ﷺ يربطُ بين الفرحتينِ ويذكّرُنا بفرحةِ الآخرةِ حينَ يخبرنا بفرحةِ الدنيا، وهو القائل: «**للصائمِ فرحتانِ: فرحةٌ عند فِطره وفرحةٌ عند لقاءِ ربِّه**»[(٢)].

أيها المسلمونَ، أيها الصائمونَ: ورحمةُ ربِّنا واسعة، ورجاءُ المسلم بربِّه كبيرٌ، وأسألُ اللهَ أن ينقلكم من فرحةِ الدُّنيا إلى فرحةِ الآخرةِ، وربُّنا غفورٌ شكور، وإذا نهى المسرفينَ على أنفسِهم بالمعاصي أن يَقْنَطُوا من رحمته وهو القائل: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٣)] فغيرهم ممن عملَ الصالحاتِ أولى بالرجاءِ، وقد كانَ السلفُ الصالحُ يستحبونَ الحديثَ عن الرجاءِ على إثرِ عملِ الصالحات.



---

(١) سورة الانشقاق، الآيات: ١٠-١٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب فضل الصوم من حديث أبي هريرة برقم (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) (١٦٤) كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

فشلُ اليهود ونهايتُهم(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، يُقلِّبُ الليلَ والنهارَ، إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، يُدِيلُ المسلمينَ على عدوِّهم ثم يُديل عدوَّهُم عليهم، وتلك سُنةٌ ربانيةٌ ماضيةٌ تتجددُ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(٢).

وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، مَرّت حياتُه بالضّراءِ والسّراءِ وتقلّبَ -هو وأصحابُه- بالظّفْرِ والنصرِ تارةً، وبالمصيبةِ والهزيمةِ تارةً أخرى ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(٣).

اللهمّ صلِّ وسلم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وارضَ اللهمَّ عن أصحابِه والتابعينَ وتابِعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

عبادَ الله: اتقوا اللهَ حق تُقاتِه ولا تَمُوتُنّ إلا وأنتم مسلمون، واتقوا الله ويُعلّمكمُ الله، ومن يتّقِ الله يجعلْ له مَخْرَجًا، وربُّكم أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة.

أيّها المسلمونَ: نخطئُ أحيانًا حين نُعظِّم أعداءَنا، ونبالغُ في وَصْفِ قوّتِهم وجبروتِهم إلى حدٍّ نُصيبُ به أنفسَنا بالإحباط، ونقعدُ بها عن المقاومةِ والاستعداد، ونضيفُ إلى قوةِ العدوِّ قوةً وهيبةً، ما كان لنا أن نَمنَحُهم إيّاها - لولا ضعفُنا وتخويفُ الشيطانِ لنا، واللهُ تعالى يعلّمُنا أن لا نخافَ العدوَّ إذا

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٣/ ٧/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

تحققَ إيمانُنا ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١) ويرشدنا إلى أن هذا الخوفَ من أسلحةِ الشيطان ومَكْرِه ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾(٢)، بل ويأمرُنا ربُّنا بمقاتلةِ أولياءِ الشيطانِ، ويؤكّدُ لنا ضعفَ الشيطان ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(٣).

إن عقدةَ المؤامرةِ تُسيطِرُ على مخيّلةِ البعضِ منّا، فكلّ حدثْ يقعُ -وإن كان عفويًا- نُحيطُه بهالةٍ معيّنةٍ، ونبحثُ عن مؤامرةٍ خلفَه، وغالبًا ما نُضْفي على عدوِّنا هالةً وراءَ هذا الحدثِ أو ذاك، وهذا يجعلُنا دائمًا نتخوفُ ونحجمُ ونعطي الأمورَ أكبرَ من حَجْمِها، ونَرْفَعُ من أسهُمِ أعدائنا، ونَضَعُ من أسهُمِنا، ونحنُ نشعرُ أو لا نشعر.

إخوةَ الإيمان: صحيحٌ أننا نعيشُ في زمنِ المؤامراتِ العالميةِ والنفاقِ الدولي، والتخطيط الأُمَمي. . لكنّ ذلك كلّه لا ينبغي أن يدعونا إلى المبالغةِ في تقييمِ الأشياءِ، وتناسي سُننِ اللهِ في الكونْ، وضَعْفِ كيدِ الشيطانِ وحِزْبِه، ونصرةِ الله لجندهِ المؤمنين، وكونه مع الذينَ اتقوا والذينَ هم مُحسِنون.

إن من أسرار قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(٤)، أن قوةَ المسلمينَ ليس بالضرورةِ أن تكونَ مكافِئةً لقوةِ الكافرين، وبالتالي فهم إذا أعدّوا القوةَ التي يستطيعونَها، ثم أكملوها بالإيمانِ الحقِّ والعمِلِ الصالح. . حقّقَ اللهُ لهم النصرَ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥).

والمتأملُ -في أحداثِ التاريخِ الإسلاميِّ- يرى أن معظمَ، أو كلَّ المعاركِ التي خاضها المسلمونَ وانتصروا فيها على عدوِّهم، كانوا أقلَّ عددًا وعُدةً منهم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٥) سورة الروم، الآية: ٤٧.

- هذا في الماضي.

وفي الحاضر يقفُ المتأمّلُ في الأحداثِ المعاصرةِ على نماذجَ لقوى كبرى اندحرتْ رغم فارقِ القوةِ مع من دَحرَها، ألم تخرجْ أمريكا من فيتنام؛ وهي صاغرة؟! ألم يتمكن الأفغانُ من طردِ روسيا من أفغانستان، ولا مقارنةَ في القوة؟! بل ربما كانت هزيمةُ الروسِ في الأفغانِ البدايةَ لتفكُّكِ الاتحادِ فيما بعد؟

وأخيرًا ألم يخرجِ اليهودُ وتنسحبُ إسرائيلُ من جنوبِ لبنانَ - وهي تجرُّ أثوابَ الهزيمةِ والخَيبةِ.. رغمَ أنه لم يمضِ على عناقيدِ الغضبِ فترةٌ طويلةٌ من الزمن؟ ولا يزالُ غيبُ الله يُخفي ألوانًا من هذه الهَزائمِ التي ستقعُ على هؤلاءِ المُتجبّرينَ الظالمين، وسُنَّةُ الله جاريةٌ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾(١) ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾(٢)، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

وبالجملةِ فالمتأملُ في كتابِ الله يجدُ أنّ اللهَ يأخذُ بالذنبِ يقع، ويؤاخذُ على الظلمِ يُمارَس، واقرأوا - إن شئتم - ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٤).

عبادَ الله: ودعونا نُسلِّطُ الضوءَ على أشدّ الأعداءِ (اليهود) وهمُ اليومَ يمارسونَ عداوتَهم وظلمَهُم على المسلمين، لنرَى كيف فشلوا في عددٍ من

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٨.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٩.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٧.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

مخططاتِهم، وأفلسوا في عددٍ من مؤامراتِهم وكيدِهم على الإسلامِ والمسلمين، فقد خَطّطَ لقتلِ الرسولِ ﷺ بنو النضيرِ، واتفقوا على إلقاءِ حجرٍ على النبيّ ﷺ فَعلِمَ بمخطّطِهم وأبطلَ اللهُ كيدَهم، فكانَ هذا الغدرُ سببًا لجلائهِم عن المدينة، وفي غزوةِ خيبرَ حاولَ اليهودُ قَتْلَ الرسولِ ﷺ بالسّمّ، فكشفَ اللهُ أمرَهُم، وأنطقَ اللهُ الذّراعَ المسمومةَ، فلفظَ اللقمةَ ثمّ قتلَ اليهوديةَ بعد أن ماتَ أحدُ أصحابهِ (بشرُ بنُ البراءِ رضي الله عنه) متأثرًا بهذا السُّمَّ، كما حاولوا سحرَه ﷺ فحفظَه اللهُ.

وبلغ كيدُ اليهودِ - في غزوة الخندقِ - مبلغًا كبيرًا، حينما ساهمتْ طوائفُ منهم في التخطيطِ للمعركةِ، من خارجِ المدينةِ، وساهمتْ طائفةٌ أخرى بالغدرِ والخيانةِ - من داخلِ المدينةِ - فأبطلَ اللهُ الكيدَ وفشلتِ المؤامرةُ. وانتقمَ المسلمونَ من يهودَ.

ومن بعد تفرُّقِهم وجلائِهم عن المدينةِ لم يجتمعْ لهم شملٌ، ولم يستطيعوا تأسيسَ دولةٍ مستقلةْ عبرَ القرون - بل كانَ غايةُ ما يصنعونَ الكيدَ متستِّرين، أو ممارسةَ الإفسادِ عبر وزراءَ أو مستشارينَ لهم في الدولِ التي مكّنتهم لقربِ الصلةِ بهم (كالعبيد) أو لدولٍ لم تستشعرْ خطرَهم لغفلةِ الأمراءِ والحكامِ المسلمين؟ أو كان تخطيطُهم سرًا لم يشعرْ به المسلمون؟

أما دولةُ اليهودِ اليومَ فلم يقيموها بأنفسِهم، بل أُقيمتْ لهم بمساعدةِ الآخَرين، وبعدَ قِيامِها لمَ يَستقلّ اليهودُ بضمانِ بقائها، بل لا تزالُ تُحاطُ وتُدْعَمُ من أطرافٍ غير محسوبةٍ على اليهودِ، كالنصارى الذين أخذوا على عاتِقِهم حمايةَ يهودَ، والمطالبةَ بحقوقهم نيابةً عنهم، ويكفي أن يأتي زعيمُ أكبرِ دولةٍ في العالمِ إلى شرمِ الشيخ لينتزعَ قرارًا في المؤتمر لصالح اليهود، ومهما كان حجمُ الداعمِ، فإن من لا يستقلّ بنفسِه حَرِيٌّ بالسقوطِ، مهدّدٌ بالخطرِ والأُفول.

أيها المسلمونَ: وحين نتحدثُ عن فشلِ اليهود، فلا بد أن نتحدثَ كذلكَ عن تسليطِ الأممِ والقوى على يهودَ. . ومنذُ أن سحقَهم بختنصَّر، ثمّ كانوا في قهرِ الملوكِ اليونانيين والكُشدانيين، والكُلدانيين ثم صاروا في قهرِ النصارى. . حتى انتهى أمرُهم إلى النازيِّين.

بل وعموم الأوروبيين - فقد كان للإنجليز والفرنسيين والأسبان مواقفُ مشينةٌ معهم، بل والأمريكان في بدايةِ تأسيسِهم لولاياتهم، ويكفي أن تستمعَ إلى خطابِ (فرانكلين) رئيسِ أمريكا الأسبق حين قال في أوّلِ خطابٍ بعد الاستقلال عام ١٨٧٩م: «إنّ هؤلاءِ اليهودَ هم أبالسةُ الجحيمِ وخفافيشُ الليل، ومصَّاصو دماءِ الشعوبِ. أيها السادة: اطردوا هذه الطغمةَ الفاجرةَ من بلادنا قبلَ فواتِ الأوانِ ضمانًا لمصلحةِ الأمةِ وأجيالِها القادمةِ، وإلا فإنكم سترونَ بعدَ قرنٍ واحدٍ أنهم أخطرُ مما تفكرون. . إلى أن يُقول: ثِقوا أنكم إذا لم تتخذوا هذا القرارَ فورًا، فإنّ الأجيالَ الأمريكيّة القادمةَ ستلاحقُكم بلعناتِها، وهي تئنّ تحتَ أقدامِ اليهودِ»[1].

وهم اليومَ وغدًا ينتظرونَ وعدَ اللهِ فيهم بالسّوْمِ والعذابِ إلى يومِ يبعثونَ، وفي ذلك يقول ربّنا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

وفي خبر المصطفى ﷺ: «**إن آخِرَ أمرِهم أنهم يخرجونَ ليكونوا أنصارَ الدجّال، فيقتلُهم المسلمونَ مع عيسى ابن مريم** عليه السلام **- وذلك آخر الزمان**»[3].

ولا بد ثالثًا - وقبل المواجهةِ مع يهودَ - أن نعلمَ شيئًا من أوصافِ اللهِ لهم،

---

(١) د. مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود (٢٠٥ - ٢٢١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

(٣) تفسير ابن كثير عند آية الأعراف: ٣/ ٤٩٧.

فهم جُبناءُ - وإن خُيِّل لبعضِنا خلافَ ذلك ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾[١]. وهم متفرِّقون، وإن ظنَّ بعضُنا أنهم متفقون ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[٢].

وحروبُهم أينما أوقدوها أطفأَها الله ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[٣].

وحكمَ اللهُ عليهم بالفُرْقَةِ والشتاتِ في الأرض ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾[٤] ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾[٥].

بل وبالعداوة - فيما بينهم - ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٦].

والخلاصةُ، أن حديثَ القرآنِ عنهم مُبطلٌ لدعوى قُوّتِهم، ومكذّبٌ لاجتماعِ كلمَتِهم أو عُلوِّ شأنهم، مؤكدٌ لشتاتِهم وجُبنهم واستمرار العداوةِ بينهم، وعلى وقوع البلاء عليهم في الماضي والحاضرِ والمستقبلِ، وحديثُ الواقعِ التاريخيِّ شاهدٌ على استذلالِ الشعوبِ والأممِ لهم، وكاشفٌ على إحباط كيدِهم ومؤامراتهم، تلكَ حقائقُ ووقائعُ لا بد أن يعيَها المسلمونَ وهم يواجهونَ يهودَ، وإذا كان الشعورُ بالعِزّةِ مقدمةً للنصرِ، فإن الإحباطَ والشعورَ بالوَهَن داعٍ للهزيمةِ وليَخْتَر مسلمو اليوم ما شاءوا، وسيرى الصادقونَ من المسلمينَ ما لم يَرَهُ غيرُهم حين يأتي بقومٍ يُحبّهم ويحبّونَه، أذلةٍ على المؤمنينَ أعزّةٍ على الكافرينَ، يجاهدونَ في سبيلِ الله ولا يخافونَ لومةَ لائم.

❁ ❁ ❁

(١) سورة الحشر، الآية: ١٤.
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤،
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ١٠٤.
(٦) سورة المائدة: الآية: ٦٤.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، أحمدهُ تعالى وأشكرُه وأُثني عليه الخيرَ كلَّه، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى إخوانِه وآلِه.

إخوةَ الإسلامِ: وحين نتحدثُ عن فشل اليهودِ وجُبنِهم والخلافِ الواقعِ بينهم، أو نحو ذلك من عوامل الضعفِ عندهم، فلا يلزمُ من ذلك أن ننكرَ ما لديهم من قوةٍ وقدرةٍ على التخطيط - وتفوّقٍ في المجالِ العسكري.. وهذه وتلك فَرَضَتْهُم كجسمٍ غريبٍ في الأمةِ، ولكن هذه كذلكَ لا ينبغي أن تقعدَ بنا عن الاستعدادِ لمواجهتهم، أو تؤدي بنا للتخوّفِ السلبي حين الحديثُ عنهم - أو تفسيرُ كل حدثٍ لمصلحتهم - كما صنع مؤلف كتاب «أحجار على رقعةِ الشطرنج» أو كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» أو كتاب «حكومةُ العالمِ الخفية» أو كتاب «اليهودي العالمي» أو مثيلات هذه الكتب التي يُقال: إنها أُلِّفت لمصلحةِ اليهودِ وإن حذّرت منهم، وظهرَ من ينتقدُ هذا الأسلوبَ المعظّم لليهود، وإن كشف شيئًا من مؤامراتهم.

ولعل من المناسبِ حينَ تُذْكَرُ هذه الكتب أنْ نذكُرَ إلى جانبها كُتبًا تتحدث عن انهيار ما يُسمى بإسرائيلَ، ويُعَوِّل مؤلفوها على إمكانية قيام حربٍ أهليةٍ داخلَ المجتمعِ اليهوديِّ حتى تتعادلَ الكفةُ، ونتوازنَ في النظرة.

وكم هي كلمةٌ جميلةٌ، وتعبيرٌ واثقٌ حين يقولُ أحدُ الكتّاب: هل من المصلحةِ أن نتصوّرَ دائمًا أن اليهودَ شَعْبٌ لا يُقهَرُ، لا يُخطئُ، كلّ عملِهم تخطيطٌ، حتى إذا انهزموا قلنا: خططوا للهزيمةِ؟ إن من المصلحةِ أن نرفُقَ بنفسيّاتِ الشعوبِ المسلمةِ ونقولَ لها: إن اللهَ ﷻ يُقيمُ لكم الدليلَ بعد الدليلِ على أن اليهودَ

شعبٌ من سائرِ الناسِ، فيهم النقائصُ المذكورةُ، والعيوبُ المأثورةُ، وأن الهزائمَ تأتيهم من هنا وهناك، وبأعمالٍ بسيطةٍ يقع لليهود خذلانٌ وهزائمُ ونكباتٌ لم تخطر على بالِ أحد.

أيّها المسلمون: وحين نربِّي أنفسَنا وأجيالَنا اللاحقةَ على عدم التهيُّبِ من يهودَ، بل ونكشفُ جبنَهم وضعفَهم عند اللقاءِ. فَلأنَّ معركتَنا معهم معركةٌ أزليّةٌ.. ونحنُ واجدونَ تأكيدَ هذه المعركةِ الأزليةِ مع اليهود في كتابِ الله لعدة أمورٍ، منها:

١- كثرةُ حديثِ القرآنِ عنهم منبِّهًا ومحذِّرًا - فما تحدَّث وكشفَ أُمّةً كاليهود.

٢- تقدّمَ حديثُ القرآنِ عنهم في الفترةِ المكيةِ، وهي فترةٌ لم يكن فيها احتكاكٌ مع اليهودِ، بل كان لدى المسلمين من جبهاتِ المشركينَ ما يكفيهم عن فتحِ جبهةٍ مع غيرِهم.. فلماذا تقدّمَ حديثُ القرآنِ عنهم؟

لقد قيل: لعلّ من حِكَم ذلك أن تعلمَ الأجيالُ اللاحقةُ من المسلمينَ أن المعركةَ مع اليهودِ معركةٌ مستمرةٌ، بغضّ النظرِ عن المواقع التي يحتلُّها كلٌّ من الطرفينِ، قوّةً أو ضعفًا، والله أعلم[١].

٣- وثالثُ هذه المؤشّرات على أنّ الصراعَ مع اليهودِ أزليٌّ، أن آياتِ القرآنِ الكريمِ ما فَتئتْ تنزِلُ مخاطبةً الأحفادَ بجرائمِ الأجدادِ لليهود، واللهُ تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ، لا يُؤاخِذُ أحدًا بجريرةِ غيرِه، لكن قيل: من أسرار هذا التقريعِ أن اليهودَ جنسٌ واحدٌ، وفصيلةٌ متقاربةٌ، وطِباعُهم وخصائِصُهُم تسري من الكبارِ إلى الصِّغارِ، وتتوارثُها الأجيالُ إثْرَ الأجيال.. ولذلكَ يُخاطَبُ اللاحقونَ بما صنَعه

(١) معالم قرآنية في الصراع مع اليهود. مصطفى مسلم.

السابقون، فهم على إثرِهم مقتدونَ. وعلى المسلمينَ وهم يقرءونَ هذه الصفاتِ لليهود ألا يظنُّوها في أجيالِهم السابقةِ، بل وفي اللاحقةِ على حدٍّ سواءٍ، وأن يستعدّوا للمعركةِ معهم بطبائعِهم وخصالِهم، وأن يتخذوا من القرآنِ دستورًا لتوجيههم في معركتهم مع يهودَ.

٤- ويتذكَّرُ المسلمُ كلَّ يومٍ، بل في كلِّ لحظةٍ يقومُ فيها لله مُصليًا انحرافَ اليهودِ -وكذا النصارى- عن صراطِ الله المستقيم، كُلَّما قرأ سورةَ الفاتحةِ، ومنها ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾(١) ويستشعرُ عداوتهم، ويستعدُّ لمواجهتهم.

إخوة الإيمانِ: وأهلُ الإسلامِ يملكونَ سلاحًا معنويًا قادرًا على إمدادِهِم بالنصرِ لو استشعروه واستثمروه، إنهم يملكونَ المنهجَ الحقَّ، وهذا المنهجُ قادرٌ على توحيدِهم وعلى دَفعِهم لمواجهةِ المُبْطلينَ -أيًّا كانوا- واللهُ تعالى معهم يدعوهم لقتالِ أعدائهم ويعدهم بالنصر ويتوعد غيرهم بالعذاب ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾(٢) فكيف إذا تزوّدت الأمةُ المسلمةُ - مع سلاحِ الإيمانِ بسلاحِ العلم، وأخذتْ نصيبَها من التقنيةِ؟ أما الأممُ الكافرةُ -وفيهم اليهودُ والنصارى- فمهما قيل عن امتلاكهم لأنواعِ الأسلحةِ وتفوُّقهم في التقنيةِ، فلربّما أتى عليهم يومٌ يعانونَ فيه من تبعاتِ هذه الأسلحةِ النووية -كما تُعاني اليومَ الدولُ الشرقيةُ- من تبعاتِ تدميرِ الأسلحةِ النووية التي خلَّفها لها الاتحادُ السوفيتي، وبالتالي تتحولُ هذه الأسلحةُ من كونها مصدرَ رعبٍ وقوةٍ إلى كونها مصدرَ ضعفٍ وخوفٍ.

عبادَ اللَّهِ: وخلاصةُ القولِ أنه لا خيارَ للأمةِ عن مواجهةِ اليهودِ، بعد أن

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٤.

فشلتْ كلُّ الخياراتِ الأخرى، ولكنّ المواجهةَ لا بد أن يسبقها استعدادٌ يقضي بإصلاحِ النفوسِ وترتيبِ الصُّفوف، فصلاحُ الدِّينِ -يرحمه الله- عُنِيَ بإصلاحِ الجبهةِ الداخليةِ قبلَ المواجهةِ مع الصليبيين، فأصلحَ الصفَّ المسلمَ من المنافقينَ والمُرْجفين، وقوّى عزائمَ الخائفينَ والمتثاقلينَ، وكان إلى جانب صلاحِ الدين جمهورٌ من العلماءِ والقادةِ الناصحين، وهؤلاءِ جميعًا أسهموا في تقويةِ العزائمِ ودفعِ حركةِ الجهادِ، حتى إذا قادَ صلاحُ الدين المعركةَ الفاصلةَ -لتحريرِ المقدساتِ الإسلاميةِ تهاوتْ عروشُ الظالمينَ، وتناثرتْ الجُثثُ على سيوفِ المسلمينَ، وعادَ تكبيرُ المآذنِ بدلَ ناقوسِ الكنائسِ وأجراسِها، واستبشرَ المسلمونَ، وهلّلَ الكونُ لهذا النصرِ المبينِ- وطُويت صفحاتٌ من إفسادِ الصليبيين لهذه المقدساتِ لعقودٍ قاربت المائة عام.

ومسلمو اليوم حريُّونَ بتطهيرِ المقدساتِ من عبثِ اليهودِ وتخليصِ المسلمينَ من طيشِ المعتدينَ - لكن بعدَ أن يَصدُقوا مع ربِّهم ويُصلحوا ما بأنفُسهِم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾[1]، ونهايتُهم على أيدي المسلمين محسومةٌ بالخبرِ الصادقِ: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يُقاتلَ المسلمونَ اليهودَ، فيقتلُهم المسلمونَ، حتى يختبئَ اليهوديُّ، وراءَ الحَجَرِ أو الشَّجَرِ، فيقولُ الحَجَرُ أو الشجرُ: يا مسلمُ يا عبدَ اللهِ، هذا يهوديٌّ خلفي فتعالَ فاقْتُلْهُ، إلا الغَرْقَد، فإنهُ من شَجَرِ يهودَ**»[2].

وذلك ذكرى للذاكرين.



---

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن برقم (٢٩٢٣) من حديث أبي هريرة.

الأشهر الحُرُم وبدع رجب(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإسلامِ: والمؤمنُ الحقّ هو الذي يُعظمُ شعائرَ اللهِ، يمتثلُ الأوامرَ ويجتنبُ النواهي، ويسارعُ إلى الخيراتِ، ويقومُ بالواجبات، ويحرصُ على فعلِ المستحبّاتِ، ويكره الفسوقَ والعصيانَ، ويتجنّبُ المحرماتِ، ويجاهدُ نفسَه على البعدِ عن المكروهاتِ.

والمسلمُ الحقُّ هو الذي يحرّمُ ما حرّمَ اللهُ، ويعظِّمُ ما عظَّمَه اللهُ، ومما عظَّم اللهُ الأشهرُ الحُرم، فما هي الأشهرُ الحُرم؟ وكيف تعظَّم؟

معاشرَ المسلمينَ: وأنتم اليومَ في واحدٍ من هذه الأشهرِ الحُرمِ -وهو رجبُ الفرد- والأشهرُ الحرمُ في كتاب الله أربعة: هي ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، وإليها أشار القرآنُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٣/ ٧/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

إن عددًا من المسلمينَ قد لا يعلمونَ هذه الأشهرَ الحُرمَ، وعددًا آخر قد يعلمونها ولكن لا يُعظمونها كما أمرَ اللهُ، ولقد كانت العربُ في جاهليتها تُعظمُ هذه الأشهرَ الحُرمَ؛ فلا تسفكُ فيها دمًا ولا تأخذُ فيها بثأرٍ.. وإن كانت تتحايلُ أحيانًا فتُنْسِئ الأشهرَ، وتجعلُ من الشهرِ الحرامِ حلالًا والعكس.

وجاء الإسلامُ ليؤكدَ حُرمةَ الأشهرِ الحرمِ، وينهى عن التلاعبِ فيها تقديمًا أو تأخيرًا.

ووقفَ رسولُ الهدى ﷺ بمكةَ خطيبًا في حجة الوداع ليؤكد حُرمةَ الزمانِ وحُرمةَ المكان، وحرمةَ الدماءِ والأموالِ والأعراضِ ويقول: «**إنَّ دماءكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكم حرامٌ كحرمةِ يومِكُم هذا، في شهرِكُم هذا، في بلدِكُم هذا، وستلقونَ ربَّكُم فيسألُكم عن أعمالِكُم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ، ألا هل بلغتُ؟ ألا ليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ منكم، فلعلَّ مَنْ يبْلُغه يكونُ أوعى له من بعضِ من يسمعه**»[(١)].

أيّها المسلمونَ: إن تعظيمَ شعائر اللهِ.. وتقديرَ ما حرّمَ اللهُ من تقوى القلوبِ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[(٢)].

وإذا كان المسلمُ مطالبًا على الدوامِ بتعظيمِ حرماتِ اللهِ، فإن مطالبَته بذلك في الأشهرِ الحُرمِ آكدُ، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[(٣)]، أي في هذه الأشهرِ الحرمِ، لأنه آكدُ وأبلغُ في الإثمِ من غيرِها.

ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: في الأشهرِ كلِّها، ثم اختصَّ من بين ذلك أربعةَ أشهرٍ فجعلهنَّ حرامًا وعظَّمَ حُرماتِهن،

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

وجعل الذنبَ فيهنّ أعظمُ، والعملَ الصالحَ والأجرَ أعظم[١].

عبادَ الله: هل نُعظمُ هذه الأشهرَ الحُرم، وكم من المسلمينَ يُعظِّمُها؟!
وتعظيمُها إنما يكون بعملِ الصالحاتِ المشروعةِ، والبُعدِ عن المحرَّماتِ.

وهل يكونُ أهلُ الجَاهليةِ بكفرِهم وإثمِهم وانحرافِهم أكثرَ تعظيمًا لحُرماتِ اللهِ من أهلِ الدِّين الحقِّ والفطرةِ السليمةِ؟!

إنَّ كثيرًا من المسلمينَ يُعظِّمون شهرَ الصيامِ، ويتقربونَ إلى الله فيه بالطاعاتِ، واجتنابِ المحرّماتِ -وذلك أمرٌ طيبٌ ومحمودٌ- ولكن كم مِنَ المسلمينَ يفعلُ ذلك في الأشهرِ الحُرم؟

كم نظلمُ أنفسَنا بارتكابِ المعاصي وفعلِ الآثامِ، ونحن منهيّونَ عن ذلك على الدَّوام، والنهيُ آكدُ في الأشهرِ الحُرمِ.

لقد كثُرتِ المآثمُ.. وظهر الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبت أيدي الناس.. وتلاعبَ الشيطانُ بالناسِ وأضلَّهم عن صراطِ اللهِ المستقيم، فهذا صريعُ الشهواتِ، وذلكَ مفتونٌ بالشُّبهاتِ، وثالثٌ غافلٌ عن الأوامرِ الربّانيةِ، ورابعٌ غارقٌ في المحرَّمات، وخامسٌ لا يقتصرُ على إفسادِ نفسِه، بل يدعو غيرَه لاقترافِ المحرَّمات، ويحاولُ جهدَه خرقَ جدارِ الفضيلةِ.. وتحطيمَ سياجِ الواجباتِ، وبينَ هؤلاءِ وأولئكَ فئَامٌ من المسلمينَ تعيشُ على تقليدِ الآخرين، وتتّبعُ الموجاتِ، وصلاحُهم أو فسادُهم مربوطٌ بالآخرين.. فلا إرادةَ لهم ولا همةَ ترتفعُ بهم.. رعاعٌ هَملٌ، يتبعونَ الناعقَ حيثُ صاحَ بهم، حتى وإن كان يقودُهم إلى الهاويةِ.

أما الذين ينظرونَ بنورِ اللهِ، ويهتدونَ بهدي القرآن، ويقتدونَ بمحمدٍ عليه

---

(١) تفسير ابن كثير عند آية التوبة ٤/ ٨٩.

الصلاةُ والسلامُ، فأولئكَ يعلمونَ الحقَّ ويعملونَ به، ويدعونَ الناسَ إليه، ويكرهونَ الباطلَ ويحذِّرونَ الناسَ منه.. وهؤلاء وإن قلّ عددُهم واستحكمت غُربتُهم.. فطوبى لهم.. وموعدُهم وموعدُ غيرِهم يومَ التنادِ - وهناك الجزاءُ الحقُّ وذلك يومُ التغابن.

إخوةَ الإيمانِ: وإذا كانَ يجدرُ بنا في هذا الشهرِ الحرام أن نحاسبَ أنفسَنا، وأن نعَظّم حُرماتِ اللهِ، وأن نتقربَ إلى اللهِ بطاعته، فهل نتخذُ من ذلك وسيلةً لتربيةِ النفوسِ على طاعةِ الله ومحاسبتِها على الدَّوام.

عبادَ الله: وقد اقتضتْ حكمةُ الله -يومَ أن خلَقَنا واستخْلَفَنا في الأرض- ألا نكون ملائكةً لا نعصي اللهَ أبدًا.. فقد يقعُ الذنبُ، وقد يُقصِّرُ العبدُ فيما أوجبَ اللهُ عليه، ولكن هل تستمرُّ الغفلةُ، وهل يستمرِئُ المسلمُ المعصيةَ ويستمرُّ على الذنبِ. إن الذكرى تنفعُ المؤمنين، والموعظةُ تنبهُ الغافلينَ، ومن في قلبه حياةٌ تتحركُ هِمّتُه للخيرِ إذا دُعِيَ إليه، ويخافُ من عقوبةِ الذنبِ إذا حُذِّرَ منه.

والناسُ في ارتكابِ المعاصي والذنوبِ على ثلاثةِ أصنافٍ -كما قال العلماءُ-:

صنفٌ من الذنب تائبٌ موطنٌ لنفسِه على هجرانِ ذنبِه، لا يريدُ الرجوعَ إلى شيءٍ من سيئتِه وهذا -هو المُبرِّز.

وصنفٌ يذنبُ ثم يندمُ، ويذنبُ ويحزنُ، ويذنبُ ويبكي، هذا يُرجى له ويُخافُ عليه.

وصنفٌ يذنبُ ولا يندمُ ولا يحزنُ، ويذنبُ ولا يبكي، فهذا الكائنُ الحائدُ عن طريقِ الجنةِ إلى النار[1].

---

(١) ذكره البيهقي في «شعب الإيمان» (٧١٥٦).

يا أخا الإسلام: راجع نفسكَ وتفكَّر في حالِكَ، وانظر في أيِّ الفئاتِ أنتَ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[1].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وليُّ الصالحينَ، أشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، سيدُ الأولينَ والآخرينَ، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ النبيينَ والمرسلينَ.

أيها المسلمونَ: وتعظيمُ الأشهرِ الحُرمِ لا يعني تخصيصَها بشيءٍ من العباداتِ لم يشرَعْهُ اللهُ، ولم يأذنْ به رسولُ الله ﷺ، فذلك خروجٌ عن السُّنةِ إلى البدعةِ، ونحنُ مأمورونَ بالاتباعِ لا الابتداع، وكلُّ شيءٍ ليسَ عليه أمرُ النبيِّ ﷺ فهو رَدٌّ.

والشيطانُ يفرحُ بالبدعةِ أكثرَ من غيرِها، ويتلاعبُ بأصحابِ البدعِ حين يُضلُّهم عن العملِ الصالح إلى السيئِ، وتأمَّلُوا أثرَ البدعةِ في الحديثِ الذي رواه الإمامُ أحمدُ وغيرُه، أن النبي ﷺ قال: «**ما ابتدعَ قومٌ بدعةً إلا نزعَ اللهُ عنهم منَ السُّنَّةِ مثلَها**»[١].

وقد بيَّن العلماءُ أن الشرائعَ أغذيةُ القلوبِ؛ فمتى اغتذت القلوبُ بالبدعِ لم يبقَ فيها فضلٌ للسُّننِ، فتكونُ بمنزلةِ من اغتُذي بالطعامِ الخبيثِ.

عبادَ الله: والناسُ في هذا ثلاثةُ أصنافٍ:

صنفٌ جاهلٌ مفرطٌ، لا يعرفُ سنّةً ولا بدعةً، بل هو مسرفٌ في المعاصي والذنوبِ حسبَ رغبةِ نفسِه ومتطلباتِ شهوتِه.

وصنفٌ قد أحدثَ من الطاعاتِ وكلّفَ نفسَه ما لم يؤذن به، فتراه يخصُّ زمنًا بصلاةٍ أو صيامٍ أو عمرة.. وليس له في ذلكَ مستندٌ شرعيٌّ، وهم أصحابُ البدع.

---

(١) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» وحسّنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» ٥/ ٧٨.

وصنفٌ ثالثٌ هم المعظمونَ لما عظّمه الله، والواقِفونَ عندَ حدودِ السنّةِ والمُقْتَدونَ بهدي محمدٍ ﷺ، وأولئكَ أهلُ السُّنَّةِ وأصحابُ المنهجِ الحقِّ. . فلا يحيفونَ، ولا يغلونَ، ولا إفراطَ ولا تفريط.

عبادَ الله: وفي شهرِ رجب بدعٌ أحدثتها الرجبيةُ، وليس عليها مستندٌ شرعي، ولابن حجرٍ رحمه الله رسالةٌ عنوانها «تبيين العجب بما وردَ في فضلِ رجب»، وقد قال رحمه الله في هذه الرسالة: لم يرد في فضل شهرِ رجبٍ ولا في صيامِه ولا في صيامِ شيءٍ منه معيَّن، ولا في قيامِ ليلةٍ مخصوصةٍ منه حديثٌ صحيحٌ يصلحُ للحُجّةِ. ثم ساقَ رحمه الله عامةَ الأحاديثِ المرويةِ في ذلك مع بيانِ الحكمِ عليها.

وقال ابنُ رجب رحمه الله: «لم يصحَّ في شهرِ رجَب صلاةٌ مخصوصةٌ تختصّ به. وقال: لم يصح في فضل صومِ رجبٍ بخصوصه شيءٌ عن النبيِّ ﷺ، ولا عن أصحابه». ولذا فقد كرهَ السلفُ إفرادَ رجب بالصيام[1].

ومما ذكرهُ العلماءُ من بدعِ رجب:

١- صلاةُ الرغائبِ: وهي صلاةٌ تصلَّى في أوَّل ليلةِ جمعةٍ من شهرِ رجب. . وكلُّ ما وردَ فيها من أحاديثَ فهيَ موضوعةٌ، ولم يثبت منها شيءٌ عن رسولِ الله ﷺ، ولا أثرٌ عن أصحابه رضوانُ الله عليهم.

٢- تخصيصُه بالصيام: وهو كذلك لم يرد، بل جاءَ أنّ عمرَ رضي الله عنه كان يضربُ أكفَّ المترجِّبينَ -أي الذين يصومونَ في رجب- حتى يضعها في الطعامِ، ويقول: كُلوا فإنَّ الجاهليةَ يُعظِّمونَ ذلك - أي شهرَ رجب.

٣- وكذلك العمرةُ في رجب: فليسَ لها مَزيةٌ على غيرهَا، وليس في هَدْي المصطفى ﷺ ما يرغبُ في ذلك بخصوصها.

---

(١) عبود بن درع: أحكام رجب وشعبان ٢٠٨٩.

٤- وفي شهرِ رجب نسيكةٌ يسمّونها (العَتيرة) وهي تذبحُ في رجب، وقد اختلفَ العلماءُ فيها بين قوله ﷺ: «**لا فَرْعَ ولا عَتيرةَ**»[١]. وبين قوله: «**العتيرةُ حقٌّ**»[٢]. ووجهوها على العتيرةِ المشروعةِ التي تذبحُ قربةً لله لا لتعظيمِ رجب، والمنهيّ عنها هي التي أبطلها الإسلامُ وهي عتيرةُ الجاهليةِ.

ومن الأمورِ المحدَثةِ في رجب ما يعتقده بعضُ المسلمينَ من تعظيمِ ليلةِ السابعِ والعشرينَ، ويعتقدونَ أن في هذه الليلةِ حصلَ الإسراءُ والمعراج. ولم يأتِ نصٌّ صريحٌ في ذلك، ولا نُقلَ عن رسولِ الله ﷺ، ولا عن أصحابه تعظيمُ هذه الليلةِ وتخصيصُها بشيءٍ من الصلاةِ أو الذكرِ أو الأورادِ، أو نحوها من العبادات.

عبادَ الله: عظِّموا ما عظَّم اللهُ ورسولُه، وعليكم بالسُّنَّةِ، وإياكم ومُحدَثاتِ الأمورِ، فإن كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار.



(١) أخرجه البخاري برقم (٥٤٧٣)، ومسلم برقم (١٩٧٦) كلاهما من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه النسائي في «الصغرى» برقم (٤٢٢٥) وغيره، وحسّنه الألباني.

أبو ذر ﵁ إسلامه وحياته(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله يهدي من يشاءُ، ويضلّ من يشاءُ، ومن يضلل اللهُ فما له من هادٍ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الدينُ واصبًا، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اجتباه ربُّه وهداهُ إلى صراطٍ مستقيمٍ، اللهمّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وارضَ اللهمَّ عن أصحابه أجمعين، والتابعينَ ومن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

عبادَ اللَّهِ: وصيةُ اللهِ لكم ولمَن قبلَكُم ومَن بعدَكُم التقوى، فاتقوا اللهَ، ومن يتقِ اللهَ يجعلْ له مخرجًا، ومن يتقِ اللهَ يكفِّرْ عنه سيئته ويعظمْ لهُ أجرًا.

أيّها المسلمون: يطيبُ الحديثُ عن صحابةِ رسولِ الله ﷺ عمومًا؛ لأنه حديثٌ عن خيرِ القرونِ، وعن منِ اختارَهم اللهُ لخيرِ المسلمين، ويطيبُ أكثرُ حينَ يكونُ عن واحدٍ من السابقين.. صَلّى سنتينِ قبلَ مَبعثِ النبيِّ ﷺ، قيل له: فأين كنتَ توجّهُ؟ قال: حيثُ وجَّهني اللهُ، وجاءَ من بلادِ قومه يبحثُ عن الإسلامِ، ويرغبُ اللقاءَ بمحمدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ، ومع تخفِّيه واحتياطِه بالسؤال، إلا أنه لم يَسلم من أذى قريشٍ وصَلَفِها؛ إذ كانت تؤذي كلَّ من ينتسبُ إلى محمد ﷺ أو يتصلَ به، ولكن صاحِبَنا -صاحبَ رسولِ الله ﷺ- كان رابط الجأشِ، قويَّ الإرادةِ، قادرًا على التَّحدي والصُّمودِ في سبيلِ اعتِنَاقِ الدِّينِ الحقِّ، ولقد راغمَ قريشًا بعد إسلامِه فأقسم ليصرَخنّ بالشهادتينِ بين ظَهرانَي قريش -في وقتٍ كانت قريشٌ تخنقُ الأنفاسَ- فخرج حتى أتى المسجدَ، فنادى

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٠/٦/١٤٢١هـ.

بأعلى صوتِه: أشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فثارَ القومُ فضربوه حتى أضجعوه . . حتى تدخَّل العباسُ رضي الله عنه وأكبَّ عليه فتركوه.

فمن يكون هذا الصحابيُّ المِقدامُ، والباحثُ عن الإسلام رَغمَ المصاعِبِ والآلام؟

إنه أبو ذرٍّ الغِفاريُّ رضي الله عنه «أولُ من حيّا رسولَ اللهِ ﷺ بتحيةِ الإسلام»[١].

نموذجٌ في الصدق «ما أقلَّتِ الغبراءُ، ولا أظلَّت الخضراءُ أصدقَ لهجةً من أبي ذر»[٢].

وفي العلم له قدمُ صِدْقٍ حتى قال عليٌّ رضي الله عنه: «أبو ذرٍّ وعاءٌ مُلِئَ علمًا ثم أُوكي عليه»[٣].

لم يشهد أبو ذرٍّ بدرًا، ولكنّ عمرَ ألحقه بهم، وكان - كما يقال - يوازي ابنَ مسعود في العلم[٤].

أبو ذر رضي الله عنه تحمّل في سبيلِ الإسلامِ وأيامه الأُولى أذى قريش، لكنه دقَّ مسمارًا في نَعْشِ دِيانتهم، وحطمَ كبرياءَهم، وأسمعهم كلمةَ الحقِّ وهم كارهون.

ولئن آذوه - وهو يُعلنُ إسلامَه - فقد آذوه من قبلُ وهو في طريقِ البحثِ عن الإسلام حين مالَ عليه أهلُ الوادي بكلِّ مَدَرَةٍ وعَظْمٍ حتى خَرّ مغشيًّا عليه، ثمّ ارتفعَ وكأنه نُصُبٌ أحمرُ[٥] (يعني من كثرةِ الدماء).

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) رواه أحمد وأبو داود كما في «الإصابة» ١١/ ١٢٢.
(٣) أخرجه أبو داود بسندٍ جيد عن علي رضي الله عنه كما في «الإصابة» ١١/ ١٢٢.
(٤) السابق ١١/ ١٢٢.
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٤٧٣).

وبالجملةِ فقصةُ إسلامهِ وخبرُ مجيئِه إلى مكةَ جاءت في «الصحيحين» مطوّلةً. . ومن أحداثِها ودروسها - غيرَ ما سبق:

١- أنه مكثَ بمكة قبلَ لُقياهُ بالنبيِّ ﷺ ثلاثين ما بين يومٍ وليلة، وما كان له طعامٌ إلا ماءَ زمزم، ومع ذلك سَمِن منها، وما وجدَ على بطنه سَخَفَةَ جوعٍ - كما يقول - وحينها قالَ له عليه الصلاة والسلام: «**إنها مباركةٌ، إنها طعامُ طُعْمٍ**» أي يَشبعُ الإنسانُ إذا شربَ ماءها كما يشبعُ من الطعام[1].

فرقٌ بين من يُهاجرُ باحثًا عن الإسلام دون زادٍ ومأوى، ومتعرّضًا للشدائدِ واللأواء فيصبرُ ويبلغُ مقصَدَه، وبينَ من يولدُ وينشأ في الإسلامِ ثمّ لا تراه يصبرُ على بعضِ تكاليفِ الإسلامِ.

كان رضي الله عنه رأسًا في الزهدِ والصدقِ والعلمِ والعملِ، قَوّالًا بالحقّ، لا تأخذه في اللهِ لومةُ لائمٍ على حِدّةٍ فيه. كما قال الذهبي رحمه الله[2].

٢- وأبو ذرٍّ رضي الله عنه لم يكن نموذجًا في الإسلام والثباتِ على الحقِّ في الظروفِ الصعبةِ فحسب، بل كان نموذجًا في الدعوةِ إلى الله، وفي رواية «الصحيح» أن أبا ذرٍّ حين أسلمَ انطلقَ إلى أخيه (أُنيس) فقال له: ما صنعت؟ قال أبو ذرٍّ: صنعتُ أني أسلمتُ وصَدقتُ، قال (أخوه): ما بي رغبةٌ عن دينِكَ، فإني قد أسلمتُ وصَدّقتُ، قال: ثم أتينا (أُمّنا) فقالت: ما بي رغبةٌ عن دينكُما، فإني قد أسلمتُ وصدَّقتُ، قال: فاحتملنا (يعني متاعَنا وأنفسَنا على إِبلنَا وسِرْنا) حتى أتينا قومَنا (غِفارًا) فأسلمَ نصفُهم. . وقال نصفُهم: إذا قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ أسلَمنا، وصدَقوا، فلما قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ أسلمَ نصفُهم الباقي.

أرأيتم آثارَ الصِّدقِ، ونتائجَ الدعوةِ من المخلصين، وإلا فأيُّ شيءٍ كانَ يملك

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٧.

أبو ذرٍّ من العلمِ ووسائل الدعوة، وهو يُعَدّ حديثَ عهدٍ بالإسلام. . لكن وَضعَ وصيةَ الرسول ﷺ نُصْبَ عينيهِ حين قال له: «**هل أنت مُبلِّغٌ عنِّي قومَكَ؟ عسى اللهُ أن ينفعَهُم بكَ ويأجُركَ فيهم؟**»[1].

وكذلك يتداعى الخيرُ ويشيعُ الإسلامُ، وينتشرُ من خلالِ حركةِ المؤمنينَ ودعوةِ الصادقينَ. . فلم يكن الأمرُ قَصْرًا على غِفارٍ، بل أسلمَ بإسلامِهم (أَسْلَمُ) حين جاءوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: يا رسول اللهِ، إخوَانُنا - يعنونَ غِفارًا - نُسلمُ على الذي أسلموا عليه، فأسلموا، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**غِفارٌ غفرَ اللهُ لها، وأَسْلَمُ سالمَها الله**»[2].

أين الذينَ يحملونَ الإسلامَ كما حملَه أبو ذرٍّ. . وفي الأرضِ اليومَ أممٌ وشعوبٌ وقبائلُ وأفرادٌ تحتاجُ إلى الإسلامِ، كما احتاج إليه من قبلَهُم؟ وأين أثرُ الدُّعاةِ مع قبائِلِهم كما صنعَ أبو ذرّ مع قبيلتِه؟

وهل يا تُرى تتحققُ للدُّعاةِ نتائجُ كما تحققتْ لأبي ذرٍّ؟

كفاكَ فخرًا يا أبا ذرٍّ أن تكونَ سببًا في إسلامِ غفارٍ أولًا. . ثم تكونُ سببًا في إسلامِ (أسلَم) ثانيًا. . ثمّ تظلُّ بعد ذلك صاحبًا لرسول الله ﷺ يُبادركَ إذا حضرتَ، ويسألُ عنك ويتفقّدكَ إذا غبتَ.

٣- والمتأملُ في قصةِ إسلامِ أبي ذرّ وشخصيته عمومًا، يدركُ أثرَ الإسلامِ في تغييرِ العاداتِ والطبائعِ إلى الأحسنِ. . أجل إنّ غفارَ -التي ينتسبُ لها أبو ذرٍّ- كانت من الشِّدَةِ والبأسِ والقسوةِ ما جعلَها في طليعةِ القبائلِ القائمةِ على الغارةِ والنهبِ والسَّلْبِ، ولقد عَبّر عنهم الأقرعُ بن حابسٍ حين قالَ للرسول ﷺ: إنما بايعَك سُرّاقُ الحَجيجِ من أسلمَ وغفار، فردَّ عليه الرسول ﷺ ردًّا أسكتَهُ.

---

(١) من رواية مسلم (٢٤٧٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٧٣) ٤/ ١٩٢٢.

وأبو ذرّ نفسُه يقول: حين سألني رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أنتَ؟». قُلت: من غفار، قال: فأهوى بيدِهِ فوضَعَ أصابِعَهُ على جبهتِه، فقلتُ في نفسي: كرِهَ أَنِ انتميتُ إلى غِفار[١].

بل لقد جاء في ترجمةِ أبي ذرّ نفسِه.. أنه كان يُغيرُ على الصِّرم في عِمايةِ الصُّبح على ظهرِ فرسِه وقدميه كأنه السَّبُعُ، فيطرقُ الحيّ ويأخذُ ما أخذ[٢].

حتى إذا قذفَ اللهُ الإسلامَ في قلب أبي ذرّ وقومِه تغيرتِ الحالُ، وصنعَ الإسلامُ من أبي ذرٍّ نموذجًا للزُّهدِ والعفافِ، يتورعُ عن جمعِ المالِ وكنزِه - وإن كان حلالًا - وأنّى له أن يفكِّرَ في أخذِ الحرامِ أو الاعتداءِ على حقوقِ الآخرين؟

لقد ودّعَ أبو ذرٍّ الدنيا وهو لا يملكُ من متاعِها إلا القليلَ، ولم يُخلف بعد موتِه أموالًا ولا ضِياعًا، ولربما أعياه توفيرُ الكفنِ الذي يُكفنُ به - كما سيأتي البيان.

وكذلك يسمو الإسلامُ بالنفوسِ ويرفعها عن حُطامِ الدُّنيا، فإذا الآخرةُ محطُّ أنظارِها، وإذا الجِنانُ والأنهارُ محلُّ تفكيرِها، وفرقٌ بين من تكون الدُّنيا هدفَهُ وغايةَ طموحِه، ومن تكون الآخرةُ همَّه ومجالَ تفكيرِه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه ابن سعد ٤/ ٢٢٢.

(٣) سورة الإسراء، الآيتين: ١٨، ١٩.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، ولا عدوانَ إلا على الظالمينَ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وليُّ الصالحينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه خاتمُ النبيينَ، وسيدُ ولدِ آدمَ أجمعينَ، ﷺ وعلى إخوانِه من النبيينَ.

أيّها المسلمون: وانقلبَ زهدُ أبي ذرٍّ في عقلياتِ الجهلةِ والموتورينَ إلى انحرافٍ يُبَرّئ عن ساحَتهِ صاحبُ رسولِ الله ﷺ، فقد ظلموا أبا ذرّ حين زعموا أنه رائدُ الاشتراكيةِ الوضعية.. وما كانَ زُهدُ أبي ذرٍّ، بل ولا كانت حياةُ أبي ذرٍّ إلا استجابةً لوصايا رسولِ الله ﷺ، وهو القائل: «أوصاني خليلي ﷺ بسبعٍ: أمرني بحبِّ المساكينِ والدُّنوِّ منهم، وأمرَني أن أنظرَ إلى ما هو دوني، وألا أسأل أحدًا شيئًا، وأن أصِلَ الرحمَ وإن أدبرتْ، وأن أقولَ الحقَّ وإن كان مُرًّا، وألا أخافَ في اللهِ لومةَ لائم، وأنْ أُكثرَ من قولِ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، فإنهنّ من كنزٍ تحتَ العرش»[(١)].

وأينَ هذه الوصايا النبويةِ من مبادئِ الاشتراكية العَفنةِ؟ وظلَمَ المُغرضونَ ومن في قلوبهم مرضٌ عثمانَ وأبا ذرٍّ رضي الله عنهما حين زعموا أن عثمانَ نفاهُ إلى الرّبذةِ.. وقد دلّتِ الرواياتُ الصحيحةُ وتكاثرتْ على أن أبا ذر اختارَ بنفسِه سُكْنَى الربذةِ -في آخرِ حياته، وأنه استأذنَ عثمانَ فأذِنَ له، بل وأمرَ له بنَعمٍ من نَعَمِ الصدقةِ- تغدو غليه وتَروحُ -فاعتذر عنها قائلًا: يكفي أبا ذرٍّ صُريمتَه- يعني: إبلَه وغنَمه[(٢)].

---

(١) رواه أحمد وابن سعد وسنده حسن (سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٤).

(٢) ابن سعد «الطبقات» ٤/ ٢٢٨، مسند أحمد ٥/ ١٦٤ بإسناد صحيح، الطبقات ٤/ ٢٣٢ رجاله ثقات، الحلية ١/ ١٦٠، سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٠، ٦٣، ٦٧.

كما تزيَّدَ المناوئونَ لمعاويةَ رضي الله عنه. . والذين يحاولونَ الاصطيادَ في الماءِ العَكِرِ. . حين اتهموا معاويةَ بالإساءةِ إلى أبي ذرٍّ، وعدمِ منحِه حقَّه، وطرْدِه من الشام، ولفّقوا في ذلكَ مروياتٍ تلقَّفوها من أفواهِ أهلِ الأهواءِ والرَّيبِ. . والذينَ عجزوا عن التصريح باتهامِ عثمانَ جعلوا معاويةَ هدفًا لسهامِهم، فَمعاويةُ - كما قال السلفُ - أشبَهُ بالبوابةِ لصحابةِ رسولِ الله ﷺ، فمن هزَّ البابَ أوشكَ أن يدخلَ الدارَ؛ ولذا كانوا يتهمونَ من تعرّضَ لمعاويةَ ويُعدّونه من أهلِ الرَّيب؟

وحين يحرصُ السلفُ ومن تبعَهُم بإحسانٍ من الخَلَف على حفظِ أعراضِ صحابةِ رسول الله ﷺ لا يدَّعونَ العصمةَ لهم، ولا ينزهونهم عن الخطأ؛ لكنهم يرونهم مجتهدينَ فيما صاروا إليه، فمن أصابَ فله أجران، ومن أخطأ فله أجرُ المجتهدِ المخطئِ.

عبادَ الله: وبشكلٍ عام فَحبُّ الصحابةِ من الإيمان، وبُغضُهم - أو أحدٍ منهم - من علاماتِ النفاق وهي سمةٌ من سيما أهلِ الأهواءِ في كلِّ زمانٍ ومكان.

أيها المسلمون: ودعونا نعودُ إلى حياةِ أبي ذرٍّ، ونعيشُ معه أيامَه الأخيرةَ، وكيفَ رحلَ من الدنيا في مشهدٍ يُحرّكُ القلوبَ، وتدمعُ له العيونُ.

فقد أخرجَ أبو حاتمٍ ابن حبانَ في «صحيحه» بسنده - حسّنهُ بعضُهم - عن أمّ ذرٍّ رضي الله عنها قالت: لما حضرَتْ أبا ذرٍّ الوفاةُ بكيتُ، فقال أبو ذرٍّ: ما يبكيك؟ فقلتُ: ما لي لا أبكي وأنتَ تموتُ في فَلاةٍ من الأرضِ، وليس عندي ثوبٌ يَسعُكَ كفنًا، ولا يَدَانِ لي في تَغييبكَ. قال: أَبشري ولا تبكي، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لنفرٍ أنا فيهم: «**لَيموتَنّ رجلٌ منكم بفلاةٍ من الأرضِ يَشهدُهُ عصابةٌ من المسلمينَ**». وليسَ أحدٌ من أُولئكَ النفرِ إلا وقد ماتَ في قريةٍ وجماعةٍ، فأنا ذلكَ الرجلُ، فوالله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ، فأبصري الطريقَ. فقلتُ: أنّى وقد ذهبَ الحاجُّ وتقطّعتِ الطرقُ؟ فقال: اذهبي فتبصَّري. قالت:

فكنتُ أُسندُ إلى الكَثيبِ أتبصّرُ، ثم أرجعُ فأمَرضهُ، فبينما أنا وهو كذلك، إذ أنا برجالٍ على رِحالِهم، كأنهم الرّخَمُ، تَخُبُّ بهم رواحلُهم، قالت: فأشرتُ إليهم فأسرعوا إليّ حتى وقفوا عليّ، فقالوا: يا أمةَ اللهِ ما لَكِ؟ قلتُ: امرؤٌ من المسلمينَ تُكفِّنونه، قالوا: ومن هو؟ قلت: أبو ذرٍّ، قالوا: صاحبُ رَسول الله ﷺ؟ قلتُ: نعم، فَفدَوه بآبائِهم وأمهاتِهم وأسرعوا عليه حتى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ لنفرٍ أنا فيهم: «**ليموتنّ رجلٌ منكم بفلاةٍ من الأرضِ يشهدُه عصابةٌ من المؤمنينَ**». وليس من أولئك النفرِ رجلٌ إلا وقد هلكَ في جماعةٍ، واللهِ ما كَذَبتُ ولا كُذبتُ، إنه لو كان عندي ثوبٌ يَسعُني كفنٌ لي أو لامرأتي لم أكفّن إلا في ثوبٍ هو لي أو لها، فإني أُنشدكم اللهَ، ألا يكفنني رجلٌ منكم كان أميرًا أو عريفًا أو بريدًا أو نقيبًا، وليس من أولئك النفرِ أحدٌ إلا وقد قارفَ بعضَ ما قال، إلا فتىً من الأنصار، قال: أنا يا عمُّ أُكفنكَ في ردائي هذا، وفي ثوبين من عَيبتي من غَزْلِ أُمي، قال: أنت فكفِّني، فكفّنه الأنصاريُّ، وقاموا عليه وكفَّنوهُ في نَفَرٍ كلُّهم يَمانٍ[1].

تلكم إطلالةٌ يسيرةٌ على حياةِ واحدٍ من صحابةِ رسول الله ﷺ، فتى غِفار، والفارِس المِغوار، والمتألّه قبلَ الإسلام، والعابدُ الزاهدُ في الإسلام، حتى لقد رُوي: «مَنْ سَرَّهُ أن ينظرَ إلى زُهدِ عيسى، فلينظرْ إلى أبي ذرٍّ»[2].

رضيَ اللهُ عنك يا أبا ذرّ وأرضاكَ وسائرَ أصحابِكَ صحابةِ رسولِ الله ﷺ، اللهم إنّا نُشهدكَ على محبَّتهم فاحشُرنا معهم.

---

(١) انظر ابن حبان في «صحيحه» ٢٢٦٠، مجمع الزوائد ٩/ ٣٣١، ٣٣٢، زاد المعاد ٣/ ٥٣٥.

(٢) رواه ابن سعد ٤/ ٢٢٨ بسندٍ رجاله ثقات إلا أنه منقطع، سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٩.

الأمنُ الشامُل مسئوليتنا جميعًا(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله مَنَّ على عبادِه بنعمٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى، فمنهم من يشهدُها - أو بعضَها - فيزدادُ لرّبه شكرًا، ومنهم من يجهلُها أو يتجاهلُها، فلا تزيدُه النِّعمُ إلا بَطَرًا وأَشَرًا، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا.. وشملت رحمتُه الثَّقلينِ إنسًا وجنًّا.. وهي أقربُ للمحسنينَ وأظهرُ عند المسلمين.

وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه حَذّر وأنذرَ أذيّةَ المسلمينَ، فكلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ، دمُه ومالُه وعِرضُه.. اللهمّ صلِّ وسلم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعين ومن تَبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٣).

عبادَ الله: الأمنُ مَطلبٌ لنا جميعًا، والأمنُ مسئوليتُنا جميعًا، والحياةُ لا طعمَ لها إذا فُقد الأمنُ، والأحياءُ تسودُ حياتَهُم الفوضى، وتنقلبُ السعادةُ إلى شقاءٍ إذا فُقدَ الأمنُ وعمّتِ الفوضى، والله تعالى يُذكِّرنا بنعمةِ الأمن في أكثرِ من موطنٍ في كتابه، ويربطُ ذلك بعبوديته، ويُحذّرُ من مَغبَّةِ فقده، والكفرِ بنعمِه،

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٢/ ٢/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

ويقول تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[(١)].

ويقول جلّ ذكرهُ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[(٢)].

وهكذا يتضحُ أن حاجةَ الناسِ للأمنِ لا تقلُّ عن حاجتِهم للطعامِ، ولذا قيل: «الأمنُ أهنأُ عيشٍ، والعدلُ أقوى جيشٍ».

وإذا تنافستِ الدولُ مسلمُها وكافرُها، قديمُها وحديثُها في رعايةِ الأمنِ وتوفيرِه لرعاياها، كان للإسلامِ -بحقّ- قَصَبُ السبقِ في توفيرِ الأمن، عبرَ ضوابطَ وحدود، وأخلاقٍ وآدابْ، وحقوقٍ وواجباتٍ على الفردِ والمجتمعِ، لا يتوفرُ مثلُها أو قريبٌ منها في غيرِه، وكانَ للمسلمينَ -كذلك- ميزةٌ على غيرهم في توفيرِ الأمنِ بطواعيةٍ واختيار.. إذ كلُّهم بوازعِ الدينِ والرقابةِ الداخلية والقيامِ بِشعيرةِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، يُشكّلونَ أنفسَهُم حُماةً للأمنِ يردعونَ الجُناةَ، ويكشفونَ أوكارَ الفسادِ، وينشرونَ المعروفَ، ويساهمونَ جميعًا في حراسةِ الفضيلةِ.. وتلك أيضًا لا تتوفرُ لغيرِهِم من الشُّعوبِ من أبناءِ المِللِ الأخرى.

أيّها المسلمون: وما فتئتِ الدولُ المتقدمةُ تُطالبُ بحقوقِ الإنسان.. وهي نفسُها التي تُهلكُ الإنسانَ وتُؤذِي كرامتَه، وما فتئت هذه الدولُ تبحثُ عن ضماناتٍ تحفظُ الأخلاقَ، وتُصانُ بها الحقوقُ.. وهي بواقِعِها ووسائِلِها تُدمّرُ الأخلاقَ وتسحقُ الحقوق.

---

(١) سورة قريش، الآيتين: ٣، ٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١١٢.

أما نحنُ، معاشرَ المسلمينَ، فحقوقُنا محفوظةٌ، وآدميتُنا مكرّمةٌ، وأخلاقُنا الإسلاميةُ سياجٌ للكرامةِ والفضيلة.. وحدودُنا الإسلاميةُ مكفراتٌ ومطهراتٌ للجُناة، بل وفي قِصاصِنا حياةٌ - كما أخبر العليمُ القدير - حتى وإن اتهَمَنا الآخرونَ وشنُّوا حملاتِهم الظالمةَ على تنفيذِ أحكامِ اللهِ وحدودِه، وهم حينَ عجزوا عن الوصولِ إلى تطبيقِ هذه الأحكامِ، وأفلتَ المجرمونَ من أيديهِم، وتوسّعَ الخَرْقُ على الراقع، أرادوا أن يحسدُونا ويشوّهوا صورتَنا؛ لنرتكسَ في حَمَأَةِ الرذيلةِ التي ارتكسوا فيها.. ولتعودَ حياتُنا بهيميّةً كحياتِهم، ويأبى اللهُ ذلك والمؤمنون.

إن البعضَ قد ينخدعُ بهذه الصيحاتِ الفاجرةِ، فيستصعبُ قتلَ القاتلِ أو رجمَ الزاني، أو قطعَ يدِ السارق - أو نحوها من الحدودِ، وينسى رحمةَ اللهِ بعبادِه عمومًا في تقريرِ هذه الأحكام، وما لها من آثارٍ في تقليلِ الجرائمِ والحدِّ من عنفوانِ المجرمين، وحماية المجتمع كلِّه من الفسادِ والمفسدين.

يقولُ ابن تيميةَ رحمه الله: العقوباتُ الشرعيةُ كلُّها أدويةٌ نافعةٌ، يُصلحُ اللهُ بها مرضَ القلوبِ، وهي من رحمةِ اللهِ بعبادِهِ، ورأفتِه بهم الداخلةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

فمن تركَ هذه الرحمةَ النافعةَ لرأفةٍ يجدُها بالمريض، فهو الذي أعانَ على عذابِه وهلاكِه، وإن كان لا يريدُ إلا الخيرَ؛ إذْ هو في ذلك جاهلٌ أحمقُ، كما يفعل بعضُ النساءِ والرجالِ بمرضاهم أو بمن يربُّونَهُم من أولادِهم وغلمانِهم في تركِ تأديبهم وعقوبَتِهم، على ما يأتونَه من الشرّ ويتركونه من الخيرِ رأفةً بهم، فيكونُ ذلك سبَبَ فسادِهم وعدوانِهم وهلاكهم[2].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٢) الفتاوى ١٥/ ٢٩٠.

إخوةَ الإسلام: والعقوباتُ في الإسلامِ لا يُرادُ منها التسلّطُ على الأفراد، وليس فيها ظلمٌ لهم، وليست أكبرَ من جرائمِهم.. أجل لقد أحكمَ اللهُ سبحانه وجوهَ الزجرِ الرادعةِ عن هذه الجناياتِ غايةَ الإحكام، وشرَعها على أكملِ الوجوهِ المتضمنةِ لمصلحةِ الردعِ والزجرِ، مع عدم المجاوزةِ على الجاني، فلم يشرعْ في الكذِبِ قطعَ اللسانِ، ولا في الزنا الخِصاءَ، ولا في السرقةِ إعدامَ النفس، وإنما شرعَ لهم ما تزولُ به النوائبُ وتنقطعُ الأطماعُ، وما تكون سبيلًا إلى أن يقنَع كلُّ فرد بما قسمَ اللهُ له[1].

إن أحكامَ اللهِ وحدودَه تؤمّنُ للناسِ الانتظامَ في عيشِهم، وتدفعُ عنهم الأضرارَ من غيرهم، يقول ابنُ القيم رحمه الله: «ولولا عقوبةُ الجُناةِ والمفسدينَ لأهلكَ الناسُ بعضُهم بعضًا، وفسدَ نظامُ العالَم، وصارتْ حالُ الدوابِّ والأنعامِ والوحوشِ أحسنَ من حالِ بني آدم»[2].

أيّها المسلمون: وإذا كانت مسئوليةُ الأمنِ تحظى باهتمامِ الدولةِ -وفقها الله- بكافةِ أجهزتِها وقطاعاتِها، ويشهدُ المواطنونَ والمقيمونَ آثارَها، فينبغي أن نكونَ جميعًا عونًا لها في تحقيقِ هذا المطلبِ الضروريِّ للحياةِ والأحياء، فلا نتسترُ على مجرم، ولا نعينُ ظالمًا على ظلمِه، ولا نسمحُ لمن يريدُ أن يُخِلّ بالأمن، أو يهددَ الكرامة، أو يستهينَ بالخُلقِ الكريمِ، بل يجدرُ بنا أن نكونَ جميعًا حُرّاسًا أوفياءَ للفضيلةِ، وعيونًا ساهرةً لمحاصرةِ الجريمةِ، وكشفِ أوكارِ المفسدين.

وإنَّ من السلبيةِ أن نرى أو نعلمَ ما يُخلُّ بالأمنِ ثم نتخلّى عن المسئوليةِ؛

---

(١) ابن القيم «إعلام الموقعين» ٢/ ١١٤، باختصار وتصرف يسير، وانظر «المسئولية الخلقية» أحمد الحليبي ٤٦٧.

(٢) إعلام الموقعين ٢/ ١٢١.

بحجةِ أن هذه ليست من وظيفتِنا، علمًا بأن الفسادَ إذا وقعَ فلن نسلمَ من آثارِه جميعًا، والمجرمونَ إذا تجاوزونا إلى غيرنا حينًا.. فقد يتجاوزونَ غيرَنا ويصلونَ إلينا حينًا أخرى، والله تعالى أمرَنا بالتعاونِ على البرِّ والتقوى، ونهانا عن التعاونِ على الإثمِ والعُدوان، ورسولُنا ﷺ أخبرنا أننا إذا رأينا الظالمَ ثم لم نأخذْ على يديه أوشكَ اللهُ أن يعُمّنا بعقابٍ من عندِه.

وعلينا جميعًا أن نتفطنَ ولا ننخدعَ بمن يُظهرونَ الخيرَ والنزاهةَ، ويبطنونَ الشرَّ ويتلبّسونَ سِرًّا بالجرائم، وإذا وُجِدَ مثلُ هؤلاءِ المخادعينَ في عصورِ الراشدين، فما الظن بغيرِهم، ودونكم هذه الحادثةَ فتأمَّلُوها.

أخرجَ الإمامُ مالك في «موطأه» أن رجلًا من أهلِ اليمنِ أقطعَ اليدِ والرِّجلِ قدمَ المدينةَ، فنزلَ على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه، فشكى إليه أن عاملَ اليمن قد ظلمَه، فكانَ يُصلّي من الليل، فيقول أبو بكر: وأبيكَ ما ليلُكَ بليلِ سارقٍ، ثم إنهم فقدوا عِقدًا لأسماءَ بنتِ عميس - امرأةِ أبي بكرٍ الصديقِ - فجعلَ الرجلُ يطوفُ معهم ويقولُ: اللهمَّ عليكَ بمن بيّتَ أهلَ هذا البيتِ الصالح. فوجدوا الحُليَّ عند صائغ زعمَ أن الأقطعَ جاءَ به، فاعترفَ به الأقطعُ أو شُهِدَ عليه بهِ، فأمرَ به أبو بكرٍ فقُطعتْ يدُه اليُسرى، وقال أبو بكر: واللهِ لدعاؤهُ على نفسِه أشدّ عندي عليه من سرقتِه[1].

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2].

❀ ❀ ❀

---

(١) الموطأ مع شرح الزرقاني، كتاب الحدود: ١٥٩/٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله أكرمَنا بالإسلامِ وشرَّفَنا بالقرآن، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، منِ استمسكَ بشرعهِ فاز في الدنيا وأفلحَ في الأخرى، ومن أعرضَ عن سبيله فإن له معيشةً ضَنْكًا، ويُحشرُ يومَ القيامةِ أعمى.

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه جاءَ ليتمّمَ مكارمَ الأخلاقِ، وكانت بعثتُه هدىً وتكريمًا للإنسان، أفلحَ وأنجحَ من اتبعَ هُداهُ، وضلّ وارتكسَ من حاربَه أو عاداهُ أو خالفَ هُداهُ. اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلينَ.

أيّها المسلمون: وكما يتحقّقُ الأمنُ بوازعِ السلطانِ، والخوفِ من عقوبةِ الدنيا، يتحقَّقُ الأمنُ كذلكَ بوازعِ الإيمانِ، والخوفِ من عقوبةِ اللهِ في الآخرةِ، وإذا علمتم أثرَ الإيمانِ في تحقيقِ الأمنِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

فتأملوا أثرَ الكفرِ بأنعُمِ اللهِ بإلباسِ الناسِ لبوسَ الجوعِ والخوفِ بعدَ الأمنِ ورَغدِ العَيْش، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[2].

إنه الإيمانُ والتُّقى؛ بهما تُفتَحُ بركاتُ السماءِ والأرضِ، وبهما يتحققُ الأمنُ والرخاءُ، ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[3].

ومن هنا فعلينا أن نفهمَ الأمنَ بمفهومِه الشامل؛ الأمنُ الفكريُّ والعَقديُّ،

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ١١٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

والأمن الخُلُقي والقِيَمي، والأمنُ الجنائي، والأمنُ الصحيُّ والغذائي، حين يُخلِصُ الأطباءُ وتتوفرُ الأجهزةُ والأدويةُ، حين لا يغشُّ المزارعونَ، ولا يحتكرُ البائعون، أجل إننا حين نغفلُ عن انتشارِ الأفكارِ الرديئةِ، ثم تتسللُ إلى عقولِ أبنائِنا وبناتِنا تحدثُ فيها جنوحًا نحوَ الجريمةِ، وتُسَهّلُ عليهم اقترافَها.. وكم تفعلُ القصةُ الهابطة، أو الروايةُ ذاتُ الفصولِ السيئة، أو الكِتابُ المنحرفُ، أو المقالةُ الداعيةُ للفجورِ، كم تفعلُ هذه وتلك من فعلٍ في العقولِ، وكم تُنشئُ من سلوكياتٍ محذورةٍ شاذةٍ، بها يهتزّ الأمنُ وتكونُ الجريمة.

وحينَ نتسامحُ في زمالةِ الأديان، ونرضى أن يزاحم دينَ الإسلامِ الحقَّ أديانٌ محرّفةٌ، ونِحَلٌ فاسدةٌ، فلا شكّ بأثرِ ذلك على الأمنِ العقديِّ؛ إذ يُحدثُ هؤلاءِ من الجرائمِ ما هو مسموحٌ لهم في أديانهم، وليسَ كذلك في دينِنَا، بل ربما فَتنوا العامةَ بشعائرهِم وطقوسِهِم، فَخلّفَ أثرَه على الأمن، ولا شكّ أن العقائدَ المنحرفةَ، والتصوراتِ الفاسدةَ تقودُ إلى سلوكياتٍ منحرفة تُخِلُّ بالأمن.

أما الأمنُ الخُلقيُّ والقِيَمي فيكونُ برعايةِ الأخلاقِ الفاضلةِ، وحمايةِ القيمِ الإسلاميةِ من التلوثِ والانحدار، ويوم لا يكونُ قيمةٌ للخُلُقِ ولا رعايةٌ للقيم، يومَها تتحولُ الحياةُ إلى مسرحٍ للفوضى؛ يأكلُ القويُّ الضعيفَ، وحينها ينفرطُ عقدُ الأمنِ، وتشيعُ الفاحشةُ، ويكثرُ المجرمون، وتتوارى الفضيلةُ والفضلاءُ.

أما الأمنُ الجنائيُّ فيتحققُ يومَ لا يُسمحُ للسارقِ بأخذِ حقِّ غيرِه، ولا لصاحبِ المُسْكرِ أو المُخدّرِ أن يُحدِثَ الضررَ بنفسِه أو بمن حوله، ولا للأحمقِ والأهوجِ أن يقتلَ أو يضربَ من اختلفَ أو تنازعَ معَه، ولا لأصحابِ الشهواتِ أن يقضوا وَطَرَهُم فيما حرّم اللهُ عليهم، أو يُمكَّنُ الأحداثُ من قيادةِ السياراتِ دون استشعارٍ للمسئوليةِ؛ فيُهلِكوا أَنْفسهم وغيرَهم، أو نحو ذلك من ممارساتٍ أو اغتصابٍ تُحدثُ فجوةً في الأمنِ لا تُحمدُ عُقباه.

عبادَ الله: إن مسئوليّتَنا الشرعيةَ والخُلقيةَ والوطنيةَ توجبُ علينا المساهمةَ في الحفاظِ على الأمن، وردعِ وفضحِ من تُسوِّلُ لهم أنفسُهُم العبثَ بأمنِ البلادِ والعبادِ، وينبغي ألا تَجُرَّنا العواطفُ للتسامحِ والتساهل، أو الوساطةِ للمجرمين، أو الشفاعةِ في الحدود.

لقد عدَّتِ الشريعةُ الإسلاميةُ الشفاعةَ في إسقاطِ الحدِّ، أو العدولَ عنه، جَوْرًا مُهلِكًا، وقال ﷺ مُنكِرًا على أسامةَ بن زيدٍ رضي الله عنهما شفاعَتَه في إسقاطِ حدِّ السرقةِ عن المخزوميةِ التي سرقتْ، وأَهَمَّ قريشًا أمرُها: «**أتشفعُ في حَدٍّ من حدودِ الله؟!**». ثم قامَ خطيبًا في المسلمين -يعلِّمُهم ومَن وراءَهم من المسلمين- كيف يكون العدلُ ويقول: «**أيها الناسُ، إنما ضلَّ من كان قبلَكُم أنهم كانوا إذا سرقَ الشريفُ تَركُوه، وإذا سرقَ الضعيفُ فيهم أقاموا عليه الحَدَّ، وأيمُ اللهِ، لو أنّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعَ محمدٌ يدها**»(١).

إخوةَ الإسلام: إن الحديثَ عن الأمنِ والمساهمةِ في توفيرهِ ينبغي أن تشاركَ فيه المؤسساتُ التربويةُ والعلميةُ، والأجهزةُ الإعلاميةُ، فضلًا عن الأجهزةِ المعنيةِ بالأمن، ينبغي أن يكونَ همًّا يُحِسُّ به الأولياءُ ويتحسّبُ لآثاره الأبناءُ، وإذا تميزَ أبناءُ المجتمعاتِ الإسلامية بشعيرةِ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكرِ عن المجتمعاتِ الأخرى، فينبغي أن تُستثمرَ هذه الشعيرةُ العظيمةُ في تحقيقِ الأمنِ وكفِّ المجرمينَ.

إننا - بحمد الله - نعيشُ في هذه البلادِ حالةً أمنيةً لا نظيرَ لها في عالم اليوم، وإن وُجِدَتْ أحداثٌ وقضايا تُخلّ بالأمن أحيانًا فتلكَ - مع عدمِ خُلوّ مجتمع

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحدِّ، برقم (٦٧٨٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف والنهي عن الشفاعة في الحدود، برقم (١٦٨٨) كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

منها أو قريبٍ منها - هي كذلك تخفُّ إذا تضافرتِ الجهودُ على مراقبةِ أصحابِهَا من قِبَلِ عمومِ المجتمعِ، وتخفُّ كذلك كلّما نشِطتِ الجهاتُ المعنيةُ بالأمنِ على الإخلاص في عملِها وتحديثِ أساليبها، وتطويرِ الأداءِ لدى الأفرادِ العاملين فيها.

أما تطبيقُ الحدودِ، وإحالةُ المجرمينَ للقضاءِ، فلا شكّ أنها ضمانٌ بإذن اللهِ لنشرِ العدلِ وتحقيقِ الأمنِ.

أما التوعيةُ بقيمةِ الأمنِ والتحذيرِ من ارتكابِ المحظوراتِ والجرائمِ بوسائلَ مختلفةٍ، فتلكَ وسيلةٌ وقائيةٌ غايةٌ في الأهميةِ؛ لأننا لا نفرحُ بوجودِ المجرمِ لنعاقبَهُ، بل نُسرُّ لانخفاضِ معدلِ الجرائم واستصلاحِ المجرمين، وفتحُ بابِ الأملِ والتأكيدُ على قيمةِ التوبةِ، يُسهمُ كذلك في استصلاحِ مَنْ به فسادٌ وعنده استعدادٌ للصلاحِ ونسيانِ الماضي، وفي الحديثِ الحسن «**التائبُ من الذَّنبِ كَمَنْ لا ذنبَ له**»[١].



(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» كتاب الزهد، باب ذكر التوبة برقم (٤٢٥٠) من حديث ابن مسعود ﷺ، وحسنه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٥٢)، وحسَّنه الألباني.

تسع قوارب للنجاة من الفتن(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإيمانِ: ليس شيءٌ في الوجودِ أغلى من الإيمان.. وما من نعمةٌ امتَنّ اللهُ بها على الإنسان أعظمُ من نعمةِ الإسلام - وما من بلاءٍ أشدُّ من الفتنةِ في الدّين - فالفتنةُ أشدُّ من القتل، بنصِّ القرآنِ.

والفتنةُ سُنةٌ ربانيةٌ جاريةٌ في الأوّلين والآخرين، ليتبينَ الصادقون من الكاذبين: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾(٢).

والفتنُ التي يمكنُ أن يتعرّضَ لها المسلمُ أو المسلمةُ أنواعٌ؛ فمنها الفتنُ في الأهلِ والولدِ، ومنها الفتنةُ بالمالِ أو الجاهِ، ومنها الفِتنُ بانتشار المُنْكراتِ وكثرةِ الدُّعاةِ على أبواب جهنّمَ، ومنها فتنُ الشّهواتِ، وفتنُ الشُّبُهاتِ، واختلاطُ الحقِّ بالباطلِ، وكثرةُ الاختلافِ، وغَلَبةُ الأهواءِ، هناك فتنةُ الأحياءِ، وفتنةُ الأمواتِ، وفتنةُ المسيحِ الدّجالِ، إلى غيرِ ذلك من أنواعِ الفتنِ.. وليس

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٣/ ١١/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١-٣.

المَقامُ مَقامَ حصرٍ لها، ولكنّ حديثَ اليوم يُعني ببيان المَخْرجِ من الفتنْ والحَذَرِ منها، ووسائلِ الخروجِ وقواربِ النّجاةِ منها.

وأبدأُ هذه الوسائل المعينةَ على السلامةِ من الفتن، بما عمله الرسولُ ﷺ ألا وهو:

١- الدعاءُ والتعوذُ باللهِ من الفتن.. واللهُ تعالى هو ملاذُ المسلم في كلِّ حالٍ، فكيف في أزمان الفتن؟ روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهُما مِن حديثِ عائشةَ رضي الله عنها، أن النبيَّ ﷺ كان يقول: «**اللهمّ إني أعوذُ بكَ من الكَسَلِ والهَرَمِ، والمَأْثَمِ، وعذابِ النارِ، ومن شَرِّ فتنةِ القبرِ، وعذابِ القبرِ، ومن فتنةِ النارِ، وعذابِ النار، وأعوذُ بكَ من فتنةِ المسيحِ الدّجالِ...**»[١].

وفي الحديث الصحيح الآخر، قال ﷺ: «**وأعوذُ بك من فتنةِ المَحْيَا والمَمَات**»[٢].

فهل نلجأ إلى اللهِ في كلِّ حينٍ.. وكلّما اشتدت الفِتَنُ زدنا في الضّراعةِ واللُّجوءِ.

٢- الحذرُ من الانتكاسةِ في الفتن، حين لا يَعرفُ الإنسانُ المعروفَ ولا يُنكِرُ المنكرَ. قال حذيفةُ رضي الله عنه: كنّا عند عمرَ رضي الله عنه يومًا فقال: أَيُّكم سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يَذكرُ الفِتَنَ؟ فقال قومٌ: نحن سمعناه، فقال: لعلَّكم تعنونَ فتنةَ الرجلِ في أهلهِ وجارهِ؟ قالوا: أجلْ، قال: تلك تُكفّرُها الصلاةُ والصيامُ والصدقةُ، ولكن أيُّكم سمعَ النبيَّ ﷺ يَذكرُ الفتنَ التي تموجُ موجَ البحرِ؟ قال حذيفةُ: فَأَسْكَتَ القومُ،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من أرذل العُمر، ومن فتنة الدنيا، وفتنة النار برقم (٦٣٧٥)، ومسلم في «صحيحه» مختصرًا برقم (٥٨٧) و(٥٨٩)، وأخرجه بطوله برقم (٤٩).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٣٦٣)، ومسلم برقم (٢٧٠٦).

فقلتُ: أنا، قال: للهِ أبوكَ. ثم قال حذيفةُ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**تُعرَضُ الفِتنُ على القلوبِ كالحصيرِ عُودًا عُودًا - أي كما يُنسجُ الحصيرُ عودًا عودًا - فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتى تصيرَ على قلبينِ: على أبيضَ مثلِ الصَّفا فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ، والآخرَ أسودُ مُرْبادًّا - أي بياضٌ يسيرٌ فيه سواد - كالكوزِ مُجَخِّيًا - أي مَنكوسًا - لا يعرفُ معروفًا ولا يُنكِرُ منكرًا، إلا ما أُشرِبَ من هَواهُ**»[1].

٣- الحذرُ من السير في رِكاب المنكَر، والسلامةُ إنما تكونُ في الإنكارِ، روى مسلمٌ في «صحيحه» عن أمِّ سلمةَ ﵂: أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ستكونُ أمراءُ فتعرفونَ وتُنكِرونَ، فمن عَرَفَ فقد بَرِئَ، ومن أنكرَ سَلِمَ، ولكنْ مَنْ رضيَ وتابَعَ**». قالوا: أفلا نُقاتِلُهم؟ قال: «**لا، ما صَلَّوا**»[2].

قال النوويّ - في شرحه للحديث - قوله: «**مَنْ عرفَ فقد بَرئَ**» معناه: من عرف المنكرَ ولم يَشتبه عليه فقد صارت له طريقٌ إلى البراءةِ مِنْ إثمِهِ وعقوبتهِ؛ بأنْ يُغيّرَه بيديهِ أو بلسانِه، فإن عَجَزَ فليكرهْه بقلبِهِ. وقوله: «**ولكن من رضيَ وتابع**». أي: ولكن العقوبةَ والإثمَ على من رضي وتابع[3].

فهل نحذر من المنكراتِ - وما أكثرَها - بما نستطيعُ من درجات الإنكارِ. . ففي ذلك سلامةٌ لنا أولًا، قبل سلامةِ الواقعين في المنكرِ، ومن تهاونَ أو قصّر فلا يلومَنّ إلا نفسَه!

٤- السيرُ في رِكابِ جماعةِ المسلمين وإمامِهم. . فذلك مَخْرَجٌ من الفتن،

---

(١) رواه مسلم (١٤٤)، وأحمد ٥/٣٨٦، ٤٠٥، والبخاري شطره الأول ٥٢٥.

(٢) رواه مسلم برقم (١٨٥٤)، وأبو داود برقم (٤٧٦٠).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي للحديث السابق.

وقاربٌ من قواربِ النّجاةِ بإذن اللهِ. . عن حذيفةَ ﷺ قال: كان الناسُ يسألونَ رسولَ الله ﷺ عن الخيرِ، وكنتُ أسألُه عن الشرِّ مخافةَ أن يُدرِكَني، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنّا كنّا في جاهليةٍ وشرٍّ، فجاءنا اللهُ بهذا الخيرِ، فهل بعد هذا الخيرِ من شرٍّ؟ قال: «**نَعَم**». قلتُ: وهل بعد ذلك الشرّ من خيرٍ؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**» -أي كَدَرٌ- قلتُ: وما دَخَنُهُ؟ قال: «**قومٌ يَهْدُونَ بغير هَدْيِي؛ تَعرفُ منهم وتُنكِرُ**». قلت: فهل بعد ذلك الخيرِ من شرّ؟ قال: «**نعم، دُعاةٌ على أبوابِ جهنّمَ، مَن أجابَهم إليها قَذَفوه فيها**». قلتُ: يا رسولَ الله، صِفْهُم لنا، قال: «**هُم من جِلْدَتِنا؛ ويتكلّمون بألسِنتنا**». قلتُ: فما تأمُرُني إنْ أدركَني ذلك؟ قال: «**تلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهُم**». قلتُ: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمام؟ قال: فاعتزِلْ تلكَ الفرق كلَّها، ولو أنْ تَعَضَّ بأصلِ شجرةٍ حتى يُدْرِكَكَ الموتُ وأنتَ على ذلك»[1].

رضيَ اللهُ عنك يا حذيفةُ وأنتَ الرجلُ الحَصيفُ، وما زلتَ تستخبرُ رسولَ الله ﷺ عن الفتنِ، وتسألُ عن ملامِحِها وهويّةِ أصحابِهَا، حتى كشفَ الرّسولُ ﷺ لك وللأُمة من وَرائكَ الأمرَ، وأَرشدَ إلى المَخْرج. . فهؤلاء الدُّعاةَ إلى الباطل ليسوا يهودًا ولا نصارى ولا أعاجم، بل هم من جِلْدَتنا ويتكلّمون بألسنتنا، وما أخطرَ الغَزوَ إذا كان من الداخل. . والمَخرجُ بلزوم جماعةِ المسلمين وإمامِهم، وأن يحرصَ المسلمُ على أن يكونَ من الطائفةِ المنصورةِ، فأولئك لا تضرُّهم الفتنُ حتى يَلْقَوا ربَّهم وهو راضٍ عنهم، وأولئك هم الغرباءُ الذين يَصْلحون إذا فسدَ الناسُ، أو يُصلِحون ما أفسدَ الناسُ، وأولئك قال عنهم النبيُّ ﷺ: «**لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي يُقاتِلونَ على الحقِّ، ظاهرينَ على من نَاوأَهُم**

---

(١) متفق عليه، خ (٣٦٠٦)، م (١٨٤٧).

حتى **يُقاتِلَ آخِرُهُم المسيحَ الدّجالَ**»[١].

فإن لم يكن فالعزلةُ والفِرارُ بالدين، حتى يموت المسلمُ دون الفتن ولو عضّ على أصلِ شجرة.

٥- الرّكونُ إلى العلم والتثبّتُ من الأخبار، وعدمُ الخوضِ بالباطل، أو اعتبارُ القصصِ الواهيةِ والشائعاتِ أساسًا للحُكمِ والتقييم.

أجل، إنَّ العلماءَ الرَّبانيين أبعدُ الناس وقوعًا في الفتن، يحفظُهمُ اللهُ بالعلم النافع، وفي «صحيح البخاريِّ» عن أبي بكرةَ ﷺ قال: لقد نفعَني اللهُ بكلمةٍ سمعْتُها من رسولِ الله ﷺ أيامَ الجَمَلِ بعد ما كِدْتُ أنْ ألحقَ بأصحابِ الجَملِ فأُقاتلَ معهم، قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهلَ فارسَ قد ملَّكوا عليهم بنتَ كسرى قال: «**لن يُفلحَ قومٌ ولّوْا أمْرَهم امرأةً**»[٢].

وبالعلم النافع يميز المرءُ بين الحقِّ والباطل، وسُلطةُ الشيطان على العلماء أقلّ من سُلطتِه على العوامّ والجَهلةَ؛ فهو يتلاعبُ بهؤلاء وتسقط حِيَلُه عند عَتَباتِ العلم والعلماء، وصدق الله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٤].

إن التثبتَ من الأخبار من سِيما العلماءِ، أما التخوُّضُ في الباطل واعتمادُ أخبارِ الفاسق، والاتّكاءُ على القصص والحكاياتِ الغريبةِ؛ فذلك شأنُ الجهلةِ الذين يطيرون بأيِّ خَبَرٍ يسمعونَه، وتأملوا قولَ ابنِ عمرَ ﷺ في انتشارِ القصصِ

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.. وهو من روايات الطائفة المنصورة (انظر سلمان العودة صفة الغرباء ١٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٥) و(٧٠٩٩)، أحمد (٥/ ٤٣، ٤٧، ٥١).

(٣) سورة الزمر، الآية: ٩. (٤) سورة المجادلة، الآية: ١١.

في زمان الفتن، حيث قال: لم يكن يُقَصّ في زمانِ رسولِ الله ﷺ ولا أبي بكر ولا عمر ولا عثمان، إنما كان القَصصُ في زمن الفتنة[١].

وعلى سبيل الاحتياط والتحفُّظ نهى الرسولُ ﷺ عن إتيان الدَّجال فقال: «**مَنْ سمعَ بالدّجالِ فلا يأتِه، فإن الرَّجلَ يسمعُ به ويقول: أنا أعرفُه، إنه الكذابُ، ثم لا يلبثُ أن يذهبَ إليه فيَتْبعُه**»[٢].

ويمتد أثرُ العلماءِ من هذه الحياةِ إلى مشاهدِ القيامةِ حين يشهدون على أهلِ الفتنِ والأهواءِ والفجورِ بالتمتيع والإنظار في الحياة الدّنيا، بخلاف ما كانوا يتوهّمون: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

عبادَ الله: ومن لم يستطعْ أن يُلِمَّ بالعلم من أطرافِهِ، فلا أقلَّ من العلم بأنواعِ الفتنِ وأسبابِها، وقواربِ النجاةِ من الفتن، وإذا لم يكن لديهِ قدرةٌ على معرفةِ ذلك بنفسِهِ فليسأل أهلَ العلمِ بذلك، كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

واحذروا الفتنَ أيها المسلمون ما ظهرَ منها وما بطن، وتذكروا عُظْمَ وَقْعِها، وتعوَّذوا بالله منها، وتوبوا إلى بارئِكُم، ولا تكونوا ممَّن قال اللهُ فيهم: ﴿أَوَلَا

(١) رواه ابن حبان في الموارد (١١١) وإسناده صحيح وهو موقوف على ابن عمر (المحمود، خطب الجمعة ص (٦٣)).

(٢) معنى حديث صحيح رواه أحمد من حديث عمران بن حصين ٤/ ٤٣١، ٤٤١، وأبو داود (٤٣١٩).

(٣) سورة الروم، الآيتين: ٥٥، ٥٦.

(٤) سورة النحل، الآية: ٤٣.

يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[١].

عصمني اللهُ وإياكم والمسلمينَ من الفتن، ورزقنا العلمَ النافعَ والعملَ الصالحَ، أقول ما تسمعونَ وأَستغفرُ اللهَ لي ولكم.

❁ ❁ ❁

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٦.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يبتلي عبادَهُ بالشرِّ والخير فتنةً، ويوفّق مَنْ شاءَ لطاعتِه، ومن يضللِ اللهُ فما له من هادٍ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه، لا ملجأَ ولا مَنْجا منه إلا إليه، وهو الذي يُفَرُّ إليه ويُعتَصمُ به، وأشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بيّن بسُنّتِهِ القوليةِ وسيرَتِه العمليةِ كيف يكون الفرارُ من الفتن وسُبلَ النجاة منها.. اللهمَّ صلّ وسلِّم عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين.

إخوة الإسلام:

٦- ومن قوارب النّجاةِ في أزمان الفتنِ: العبادةُ الحقّةُ لله، والعبادةُ لله - بشكل عام - هدفُ الوجودِ من الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

وتشتد الحاجةُ للعبادة كلّما اشتدتِ الفتنُ وتلاحقتْ؛ ذلك لأنَّ الإنسانَ يأنسُ بالعبادةِ وينشرحُ صدرُه، ويطمئنُّ قلبُه، وبها يحرُسه اللهُ من وَسوسةِ الشياطين وإغوائِهم، وحين ينقطعُ القلبُ عن خالقهِ تستحوذُ عليه الشياطينُ ويقع في أنواع الفتن.. والبيتُ الخَرِبُ - غالبًا - مأوى للشياطين.

لقد أرشد النبيُّ ﷺ إلى العبادةِ وحَثَّ على المبادرة عليها في أوقاتِ الفتن؛ فقال: «**بادِروا بالأعمالِ الصالحةِ فِتَنًا كَقِطَعِ الليلِ المُظلمِ، يُصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا**»(٢).

وبيّن عليه الصلاةُ والسلام قَدْرَ العبادةِ وقيمتَها في أوقاتِ الفتن فقال:

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (١١٨)، وأحمد في «مسنده» ٢/ ٣٠٤، ٣٧٢، والترمذي في «جامعة» برقم (٢١٩٦).

«**العبادةُ في الهَرْج كَهِجْرَةٍ إليّ**»[١]. والهرجُ: استحكامُ القتل بين المسلمين، وهو نوعٌ من الفتن.

أيها المسلمون: وفرقٌ بين من يشتغلون -أوقاتَ الفتن- بالقيلِ والقالِ وتخطئةِ هذا وتصويبِ ذاكَ، أو بمجرَّدِ ذِكر أنواع الفتن وما بُلِيَ به الناسُ دون أن يكون هناك عملٌ صالحٌ، أو دعوةٌ للإصلاح، وبين من يشتغلون بعبادةِ ربِّهم في حالِ خَلَواتِهم، ويعملونَ في الدعوةِ والإصلاحِ وتسكينِ الفتنِ في حالِ اجتماعِهِم بالناس.

٧- أيُّها الناسُ: والدعوةُ إلى اللهِ وإلى سبيلِه قاربٌ آخرُ من قواربِ النجاةِ، فالدُّعاةُ إلى الله يُحذِّرون من الوقوع في الفتن، ويرشدون إلى سُبلِ النَّجاةِ منها، وأول ما يُنقذُ الدعاةُ أنفُسَهم، فليس من الدعوةِ الحقَّةِ أن ينهى الدعاةُ غيرَهم عن الفتنِ وهم واقعون فيها، وكم وقى اللهُ من فتنةٍ بسببِ جهودِ الدُّعاةِ وتوفيق اللهِ لهم، وكم أحيا اللهُ بالدعوةِ أشخاصًا كانوا غارقين في الفتن.

إن الفرقَ كبيرٌ بين من يُحيون الأمةَ بالدعوة، ويُجدِّدون عَزْمها ويزيدون من إيمانها.. وبين من هَمُّهُم التثبيطُ والإحباطُ والحكمُ على الناس بالهلاك، دون تقديمِ أيِّ جُهْدٍ في الإصلاح، وفي الحديث: «**مَنْ قالَ: هَلَكَ الناسُ فهو أهلكُهُم**».

وفي رواية: «**فهو أهلَكَهُم**». وعلى أيِّ المعنييْنِ سواء كان هو أشدَّهم هلاكًا، أو كان السببَ في إهلاكِهم، فذلك معنىً سلبيٌّ، وتلك سلبيةٌ لا تليقُ بالمسلم بشكل عامّ، ولا ينبغي أن يكون ذلك جهدَه في وقتِ الفتن على وجْهِ الخصوص.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٤٨).

فهل يا تُرى ينشطُ المسلمون للدعوة في كلّ زمانٍ، ويشتد نشاطُهم للدعوة في أزمان الفتنِ لشدةِ الحاجة لدعوتِهم؟

٨- وفي سبيل النجاةِ من الفتن لا بد من تحرير مصطلَحِ الفتنة ووضْعِه في موضعِه الشرعيِّ، كما جاءتْ به نصوصُ الكتابِ والسُّنةِ، وكما فَهِمَه سَلَفُ الأُمةِ.. ولا ينبغي أن يكونَ مصطلحُ الفتنةِ كلًا مباحًا لكلِّ ناعقٍ.. أو بضاعةً مُزجاةً يُطلقها الجهالُ كيف شاءوا وعلى من شاءوا.. أو متنفَّسًا لأهلِ الأهواءِ يرمون بها مَن خالفهم ولو كان محقًّا.

إن الاختلاطَ في مفهومِ الفتنةِ قد يجعلُ من الحقِّ فتنةً، وقد يُصوِّرُ أهلَ الحقِّ أصحابَ فتنةٍ، وبالعكس فقد يَظهَرُ الباطلُ بصورةِ الحقِّ، وقد يُلمَّعُ المنافقُ فيقال: ما أظرفَه! وما أحسنَ مَنْطِقَه! وإن كان رصيدُه من الإيمان قليلًا.. ومن الخُبثِ والفجور كمًّا كبيرًا.. والعالِمون بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ﷺ هم القادرون على ضبطِ مصطلحِ الفتنةِ وتحديدِ هُويّة أهلِ الفتن.

إخوة الإيمان:

٩- والرفقةُ الصالحةُ معينةٌ على تجاوز الأزماتِ والفتنِ، ولقد أوحى اللهُ إلى نبيِّه ﷺ - فيما أوحى - ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[١].

وليس عَبَثًا أن يقولَ النبيُّ ﷺ: **«لا تُصاحِبْ إلا مؤمنًا، ولا يأكلْ طعامَكَ إلا تقيٌّ»**[٢].

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) رواه أبو داود والترمذي بسند صحيح: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩١٧.

وهو القائل: «**المرءُ على دينِ خَليلِهِ، فلينظرْ أحدُكم من يُخَالِل**»[١].

ولذا قال جماعةٌ من السلف: «**اصْحَبْ من يُنهضُكَ حالُه، ويدُلُّك على الله مَقالُه**»[٢].

وإذا كان أثرُ القرينِ الصالح على قرينه مشهورًا في دلالتِهِ على الخير ومَنْعِهِ من الشرور والفتن، فَلِقرينِ السُّوءِ أثرٌ عكسيٌّ سلبيٌّ، وتأمل هذا الحوارَ القرآنيَّ في أثرِ الرفيق: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[٣]. وتأمل كذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٤].

عبادَ الله: تلك قواربُ تسعةٌ للنجاةِ من الفتنِ، وهي إجمالًا:

١- التعوذُ من الفتن بالدُّعاءِ.

٢- الحذرُ من الانتكاسةِ في الفتن.

٣- الحذر من السيرِ في رِكابِ المنكراتِ والحرصُ على إنكارِها.

٤- السيرُ في ركاب جماعةِ المسلمينَ وإمامِهم، والحرصُ على أن يكون المسلمُ من الطائفةِ المنصورةِ.

٥- العلمُ والتثبُّتُ وعدمُ اعتمادِ القصصِ والشائعاتِ.

٦- لزومُ العبادةِ والإكثارُ من القُرُباتِ.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود، انظر صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩١٧.

(٢) روحانية الداعية: عبد الله علوان، صفات الداعية، حمد العمار ص٦٥.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ٥١-٥٧.

(٤) سورة الزخرف، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

٧- الدعوةُ إلى الله، والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ.

٨- تحريرُ مصطلح الفتنة، وعدمُ الخلطِ بينها وبين الإيذاءِ في سبيل اللهِ.

٩- اختيارُ الرفقةِ الصالحة، والحذرُ من قرينِ السُّوءِ.

ألا فاحذروا أيها المسلمون أن تفتنوا أنفسَكم، أو تفتِنوا غيرَكم عن الدخولِ في الإسلام؛ بسبب تقصيركم وضعفِكم، وذلك من عجائبِ مواقع الفتنِ ومعانيها، وتلك التي حذرَ منها إبراهيم الخليلُ ومَن معه حين قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1].

قال قَتادةُ رحمه الله: «المعنى: لا تُظهِرْهم علينا فيُفتَنوا بذلك؛ يَرَون أنهم إنما ظهروا علينا لحقٍّ هم عليه»[2].

إن الفتنة تقعُ حين يرضى المسلمون بالهَوانِ، ويتركون الجهادَ في سبيل اللهِ، وينحرفون في سلوكياتِهم، فيصُدّون غيرَهم عن الدخولِ في دينِ الله، وتلك قاصمةٌ من القواصِمِ.



(١) سورة الممتحنة، الآية: ٥.

(٢) ذكره ابن جرير في «تفسيره».

فوائد مختارة، والصحابي الذي اهتز له عرش الرحمن(١)

الخطبة الأولى:

إخوةَ الإسلام: ما أحوجَنا على الدوامِ للتفكيرِ في المبدأ والمعادِ، وحقيقةِ الحياةِ، ومصيرِ الأحياءِ، وطبيعةِ الحياةِ الدُّنيا والسعيِ للآخرة.

وسأختارُ لكم قُصاصاتٍ معبِّرةً، وفوائدَ مختارة، تنيرُ الطريقَ، وتُبصِّرُ السالكَ، سطَّرها يَراعُ العلماء، وإنما أرادوا بها تنبيهَ الغافلِ.. وشحذَ الهِمَمِ.

الفائدةُ الأولى: المبدأُ والمعادُ حقيقةٌ يؤمنُ بها المؤمنونَ، ويرتابُ فيها الكافرونَ والمنافقونَ، وبراهينُ المعادِ، وأدلَّتُه في القرآنِ كثيرةٌ، وهي مبينةٌ على أصولٍ ثلاثةٍ:

أحدها: تقريرُ كمالِ علمِ الربِّ ﷻ، كما جاء الردُّ على من قال: «من يُحيي العظامَ وهي رميمٌ» ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

الأصل الثاني: تقريرُ كمالِ قدرتِهِ تعالى كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾(٤).

الأصل الثالث: كمالُ حكمتِهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾(٥). وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١/ ١١/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة يس، الآية: ٧٩.

(٣) سورة يس، الآية: ٨١.

(٤) سورة القيامة، الآية: ٤.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٦.

تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾[١].

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: ولهذا كان الصوابُ أن المعادَ معلومٌ بالعقلِ مع الشرعِ، وأن كمالَ الربِّ تعالى وكمالَ أسمائه وصفاتِه تقتضيه وتُوجِبُه[٢].

الفائدةُ الثانية: للعبدِ سترٌ بينَه وبين اللهِ، وسِترٌ بينه وبين الناسِ، فمن هتكَ السترَ الذي بينه وبين اللهِ، هتكَ اللهُ السترَ الذي بينه وبين الناسِ.

وللعبدِ ربٌّ هو ملاقيهِ، وبيتٌ هو ساكِنُهُ، فينبغي له أن يسترضيَ ربَّه قبل لقائِه، ويعمرَ بيته قبل انتقالِه إليه.

الفائدةُ الثالثة: قالوا: أصولُ الخطايا كلُّها ثلاثةٌ: الكِبرُ، والحِرصُ، والحَسدُ. فالكِبرُ هو الذي أصارَ إبليسَ إلى ما أصارَهُ، والحرصُ هو الذي أخرجَ آدمَ من الجنةِ، والحسدُ هو الذي جرّأَ أحدَ ابنَي آدمَ على أخيهِ، فمن وُقِيَ شرَّ هذه الثلاثةِ فقد وقيَ الشرَّ، فالكفرُ من الكِبرِ، والمعاصي من الحِرصِ، والبغيُ والظلمُ من الحسدِ.

الفائدة الرابعة: احذر يا عبدَ الله من هجرِ القرآنِ، وهجرُ القرآنِ أنواع:

فمنها: هجرُ سماعِه والإيمانِ به والإصغاءِ إليه.

الثاني: هجرُ العملِ به والوقوفِ عند حلالِه وحرامِه وإن قرأه وآمنَ به.

الثالث: هجرُ تحكيمِه والتحاكمِ إليه في أصولِ الدينِ وفروعِهِ.

الرابع: هجرُ تدبُّرِهِ وتفهُّمِه ومعرفةِ ما أرادَ المتكلمُ به منه.

الخامس: هجرُ الاستشفاءِ والتداوي به في جميعِ أمراضِ القلوبِ ودوائها، فيطلبُ شفاءَ دائه من غيره ويهجرُ التداوي به، وكلُّ هذه الأنواع من الهجرِ داخلةٌ

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتين: ١١٥، ١١٦.

(٢) الفوائد (٢٩).

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[١].

الفائدةُ الخامسة: من قواطعِ سيرِ المرءِ عن الآخرةِ تعلُّقُه بالمألوفِ من ملاذِّ الدُّنيا، وقد يخيلُ الشيطانُ للإنسانِ بصعوبةِ تركِ المألوفِ، وإنما يجدُ المشقةَ في تركِ المألوفاتِ والعوائدِ من تركها لغيرِ اللهِ، أما مَنْ تركَها صادقًا مخلصًا في قلبِهِ لله، فإنه لا يجدُ في تركِها مشقةً إلا في أوّلِ وهلةٍ ليُمتَحنَ أصادقٌ هو في تركِها أم كاذبٌ، فإنْ صبرَ على تلك المشقةِ قليلًا استحالتْ لذةً.

وهذه الفائدةُ تشجعُ المبتَلينَ على تركِ ما ابتُلوا من أمورٍ محرَّمةٍ.

الفائدةُ السادسة: قال بعضُ الزُّهادِ: ما علمتُ أن أحدًا سمعَ بالجنةِ والنارِ، تأتي عليه ساعةٌ لا يطيعُ اللهَ فيها بذكرٍ أو صلاةٍ أو قراءةٍ، أو إحسانٍ، فقالَ له الرجلُ: إنِي أُكثرُ البكاءَ، فقال: إنك إن تضحكْ وأنت مُقرٌّ بخطيئتكَ، خيرٌ من أن تبكي وأنت مُدِلٌّ على الله بعملِكَ.. ثم قال الرجلُ للزاهد: أوصني، فقال: دَعِ الدُّنيا لأهلِها كما تركوا همُ الآخرةَ لأهلِهَا، وكن في الدُّنيا كالنحلةِ؛ إنْ أكلتْ أكلت طيبًا، وإن أطعمتْ أطعمتْ طيبًا، وإنْ سقطتْ على شيءٍ لم تكسِرْهُ ولم تخدِشْهُ.

الفائدةُ السابعة: في ظلال قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

ففي هذه الآية عِدّةُ أسرارٍ وحِكمٍ ومصالحَ للعبدِ؛ فإن العبدَ إذا علمَ أن المكروهَ قد يأتي بالمحبوبِ، والمحبوبُ قد يأتي بالمكروهِ، لم يأمن أن توافيه المضرةُ من جانب المَسرّةِ، ولم ييأس أن تأتَيه المسرةُ من جانب المضرَّةِ، لعدم

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٠. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

علمِه بالعواقبِ، فإنَّ اللهَ يعلمُ منها ما لا يعلمُهُ العبدُ. . ومن هنا فعلى العبدِ أن يطمئنّ لقضاءِ الله وقَدرِه، وأن لا يقلقَ لمكروهٍ ينزلُ به - فقد يكون فيه الخيرُ - وألا يُنسيه الفرحُ بالنعمةِ تحصلُ له ما قد تجرُّه عليه من ويلاتٍ ومكارهَ.

الفائدةُ الثامنة: بم تفكِّر بين هَمّ الدنيا والآخرة؟ قال العارفون: فرِّغْ خاطرَكَ للهمِّ بما أُمرتَ به، ولا تُشغله بما ضُمنَ لك، فإن الرزقَ والأجل قرينان مضمونان، فما دامَ الأجلُ باقيًا، كان الرزقُ آتيًا، وإذا سَدّ عليكَ بحكمتهِ طريقًا من طرقه، فتحَ لك برحمتِه طريقًا أنفع لك منه، فتأمل حالَ الجنينِ يأتيه غذاؤه وهو الدمُ من طريقٍ واحدةٍ وهو السُّرة، فلما خرجَ من بطنِ الأُم وانقطعتْ تلك الطريقُ، فتح له طريقينِ اثنين، وأجرى له فيهما رزقًا أطيبَ وألذّ من الأولِ لبنًا خالصًا سائغًا، فإذا تمّت مدةُ الرَّضاع وانقطعتِ الطريقانِ بالفطامِ، فتحَ له طُرقًا أربعةً أكمل منها: طعامان وشرابان؛ فالطعامان من الحيوانِ والنبات، والشرابانِ من المياهِ والألبان، وما يُضاف إليهما من المنافعِ والملاذِّ، فإذا ماتَ انقطعت عنه هذه الأربعةُ الطرقُ، لكنه سبحانه يفتح له - إن كان سعيدًا - طرقًا ثمانيةً، وهي أبوابُ الجنةِ الثمانيةِ، يدخلُ من أيِّها شاءَ، فهكذا الربُّ لا يمنع عبدَه المؤمنَ شيئًا من الدُّنيا إلا ويؤتيهِ أفضلَ منه وأنفعَ له[1].

الفائدةُ التاسعة: أنواعُ الدراهم وأفضلُ الكسب، وما نوعُ درهمكَ قالوا: الدراهمُ أربعةٌ: درهمٌ اكتُسبَ بطاعةِ الله، وأُخرجَ في حقِّ الله، فذاكَ خيرُ الدراهم، ودرهمٌ اكتُسبَ بمعصيةِ الله وأُخرجَ في معصيةِ الله، فذاكَ شرُّ الدراهمِ، ودرهمٌ اكتُسبَ بأذى مسلمٍ، وأُخرجَ في أذى مسلمٍ فهو كذلك، ودرهمٌ اكتُسبَ بمُباحٍ وأُنفقَ في شهوةٍ مباحةٍ، فذاكَ لا له ولا عليه.

---

(١) الفوائد (٧٥) النفائس.

الفائدةُ العاشرة: ذكرى وتحذير.. كم يُفرِّط بعضُ المسلمينَ في الصلاة وهي عمادُ الدِّين، وكم يؤدِّيها أناسٌ على غير هَدي المرسلين فينقرونها نقرَ الغُراب، أو يسهونَ عنها في أوقاتها، والله تعالى توعّدَ وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1].

إن المحافظة على الصلاة علامةُ الوارثين للفردوسِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

والويلُ لمن أضاعها وأولئكَ لهم الغيُّ: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[3].

كم تشهدُ الفُرشُ على المتأخرينَ عن الصلواتِ المفروضةِ، وكم تئنُّ المساجدُ على المنشغلينَ عن عمارتها بعمارةِ القصورِ والضيعاتِ الدنيوية الفانية.

قرأ عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ثم قال: لم تكن إضاعتُهم تركَها، ولكن أضاعوا الوقتَ[4].

وقال الحسنُ البصري: عطّلوا المساجدَ ولزموا الضيعاتِ[5].

إن العزاء يُقدَّم لمن فاتَتْهُ صلاةٌ مفروضة، فكيف بمن فاتته صلواتٌ، وفي صحيح السنة: «الذي تفوتُه صلاةُ العصرِ كأنما وُتِرَ أهلَه ومالَه»[6]. والمعنى: نقص أهلُه ومالُه[7].

وإذا كان العزاءُ يقدمُ لمن فقدَ شيئًا من ولده.. فكيف بمن نُقِصَ في أهلِه

---

(١) سورة الماعون، الآيتين: ٥، ٦.
(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ٩-١١.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥٩.
(٤) تفسير ابن كثير للآية.
(٥) المصدر نفسُه.
(٦) رواه الجماعة، خ٢/ ٢٤، مسلم برقم (٦٢٦).
(٧) جامع الأصول ٥/ ٢٠٤.

وولدِه؟ إن هذه الصلواتِ الخمسَ لا يحافظُ عليهنَّ إلا مؤمنٌ يرجو ثوابَ اللهِ ويخافُ عقابَه - فهي ليست ليومٍ أو يومين أو سنةٍ أو سنتين. . بل في كلِّ يومٍ خمسُ مراتٍ مفروضة عدا السننِ والرواتبِ المشروعةِ - ولذا يضيقُ المنافقونَ بالصلاةِ ولو أدوها كسالى يُراءون الناس - والامتحانُ الكاشفُ للمصلينَ صلاةُ الفجرِ وصلاةُ العشاءِ؛ فهنّ أثقلُ صلاتين على المنافقين، ولو يعلمونَ ما فيهما من الأجرِ لأتوهما ولو حَبْوًا. . ألا فجدِّدوا إيمانكُم وأقيموا الصلاةَ بأوقاتِهَا وواجباتِهَا وسُننها، تكونوا من المفلحين، وإياكم وتلاعبَ الشيطان ووسوستَه، وجاهدوا أنفسكم على الخشوع في الصلاة فالله يقول: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1].

أيها المؤمنون: إننا نخطئُ بالليلِ والنهارِ، ومن رحمة اِلله بنا فرضَ الصلاةَ علينا، فهن كفاراتٌ. . وهنَّ أشبه بنهرٍ جارٍ يغتسلُ منه المصلونَ كلَّ يوم خمسَ مراتٍ، فهل يبقى على أولئك من دَرَنٍ. . إنه فضلُ الله يؤتيه من يشاء، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسِه.



(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه، كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وَسعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، كان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا.. اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ النبيينَ.

إخوةَ الإسلام: وثمةَ فائدةٌ، بل عِدَةُ فوائدَ تتعلقُ بحياةِ رجلٍ مجاهد، وصحابيٍّ فاضلٌ، كان في طليعةِ قومه، بل سيدٌ مطاعٌ فيهم، كان له في الجهادِ حظوةٌ.. وفي الشهادةِ مفخرة.. هو من أهلِ بدرٍ، وكفى بأهلِ بدرٍ فخرًا أن يقال لهم: «**اعملُوا ما شِئتُم فقد غفرتُ لكم**». اهتزّ لموتِه عرشُ الرَّحمن.. ويقال: إن ملائكةَ الرحمنِ شاركت في حملِ جنازته.

إنه سعدُ بنُ معاذٍ الأوسيُّ الأشهليُّ، كان له مع قريشٍ موقفٌ، ومع اليهودِ موقفٌ، ومع المنافقينَ موقفٌ، وقبل هذا وذاكَ كان له مع قومِه موقفٌ مشرفٌ.. وبه نبدأُ؛ لأن سعدًا بهم بدأ بالدعوةِ.. وتأملوا في آثارِ الدعوةِ.. أخرج ابن إسحاق في «السيرة» قال: لما أسلمَ سعدْ وقفَ على قومه فقال: يا بني عبدِ الأشهلِ، كيف تعلمونَ أمري فيكم؟ قالوا: سيدُنا فضلًا وأيمنُنا نقيةً، قال: فإن كلامَكُم عليَّ حرامٌ، رجالُكم ونساؤكم حتى تؤمنوا باللهِ ورسولِه، قال: فوالله ما بقيَ في دار بني عبدِ الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا وأسلموا[1]. أما قريشٌ فقد بلغها إسلامُ سعدٍ عن طريقِ هاتفٍ يهتفُ على أبي قبيسٍ ويقول:

فإنْ يُسلمِ السعدانِ يصبحْ محمدٌ بمكةَ لا يخشى خلافَ المُخالفِ

فقال أبو سفيانَ: من السعدانِ؟ سعدُ بكرٍ، سعدُ تميمٍ؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣٧.

فسمعوا في الليل الهاتفَ يقول:

أيا سعدُ سعدُ الأوس كنْ أنتَ ناصرًا ويـا سـعـدُ الـخـزرجـيـنِ الـغَـطـارفِ

أجيبـا إلى داعـي الـهُـدى وتـمـنَّـيـا على اللهِ في الفردوسِ مُنيةَ عارفِ

فإنَّ ثوابَ اللهِ للطالبِ الهدى جنانٌ مِـنَ الـفـردوسِ ذاتُ رَفـارفِ

لقد تأثرت قريشٌ لإسلامِ سعد.. ففضلًا عن صداقتِه مع بعض زعمائهم قبلَ الإسلام.. كان السيدَ المطاعَ في قومِه.. وبإسلامه دخل في الإسلامِ معظمُهم.. وظلت قريشٌ تُكِنّ له العداوةَ منذ أسلم - وظلّ بعضُ رجالاتها يتحيَّنونَ الفرصةَ للقضاءِ عليه، حتى إذا كانت غزوةُ الأحزابِ رماه (حِبّانُ بنُ العَرقةِ) بسهم في أكحَلِه - وهو يقول: خذها مني وأنا ابنُ العَرقةِ، فردّ عليه سعدٌ، عَرّقَ اللهُ وجهَكَ في النارِ ثم قال: اللهم إن كنتَ أبقيتَ من حربِ قريشٍ شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قومَ أحبّ إليّ من أن أجاهدَهُم فيكَ من قومٍ آذوا نبيَّكَ وكذَّبوه وأخرجوه، اللهم إن كنتَ وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم فاجعَلْها لي شهادةً، ولا تُمِتني حتى تقرَّ عيني من بني قريظةَ[(١)].

ولقد استجابَ اللهُ دعوةَ سعدٍ.. فما قدمتْ قريشٌ إلى المدينةِ بعد الأحزاب.. واندملَ جُرحُه حتى مكَّنه اللهُ من رؤيةِ ما قرَّتْ به عينُه لبني قريظةَ، ثم انفجر الجرحُ ونزفَ الدمُ، وكانت الشهادة لسعدٍ بعد حكمِه في بني قريظةَ - فما هو موقفُه من اليهودِ؟

أخرج البخاريُّ ومسلمٌ وأحمدُ وابنُ سعدْ عن عبدِ الرحمنِ بنِ سعدِ بنِ معاذْ أن بني قريظةَ - حين نقضوا العهدَ وحاصرَهم رسولُ اللهِ ﷺ - نزلوا على حكمِ

(١) أخرجه أحمد ٦/١٤١، ابن هشام في «السيرة» ٢/٢٦٦، سير أعلام النبلاء ١/٢٨٢، ورجاله ثقات.

رسولِ الله ﷺ، فأرسلَ إلى سعدٍ فجيءَ به محمولًا على حمارٍ وهو مُضنًى من جُرحِهِ، فقال له: «**أشِرْ عليَّ في هؤلاءِ**». قال سعدٌ: إني أعلمُ أن الله قد أمركَ فيهم بأمرٍ أنتَ فاعِلُهُ، قال: أجلْ، ولكن أشِرْ، قال: لو وُليتُ أمرَهم لقتلتُ مقاتِلتَهُم، وسبيتُ ذراريَّهم. فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيدِه، لقد أشرتَ عليَّ فيهم بالذي أمرَني اللهُ به**»[١].

لقد كان سعدٌ رضي الله عنه من أعرف الناس باليهودِ.. وإن قومًا نكثوا عهدَهم في أحلكِ الظروفِ، ومع خيرِ البرية لا ينفعُ فيهم إلا حزُّ الرءوسِ، وقد كان حكمُ سعدٍ رضي الله عنه موافقًا لحكمِ الله من فوقِ سبعِ سماوات - وهذا الذي أقرَّه النبيُّ ﷺ ونفَّذه.

وما أحوجَ الأمةَ اليومَ إلى رجلٍ، بل رجالٍ أمثالَ سعدٍ يتعاملونَ مع اليهودِ بما يستحقون.

أيها المسلمونَ: وهذا السيدُ المجاهدُ البدري - لم يسلم من أذى المنافقينَ ولَمْزِهم - فلقد كان سعدٌ رضي الله عنه رجلًا طوالًا بدينًا - وحين ماتَ واحتملوا جنازتَه وجدوا لها خِفة عجيبةً، فقال المنافقون: والله إن كان لبادنًا وما حملنا أخفَّ منه.

وفي الرواية الأخرى وهي أصحّ إسنادًا: فقال القومُ: ما حملنا يا رسولَ الله ميتًا أخفّ علينا منه، قال: «**ما يمنعُه أن يخفَّ وقد هبطَ من الملائكةِ كذا وكذا لم يهبطوا قطُّ قبلَ يومِهم قد حملُوه معكم**»[٢].

أيها المؤمنونَ: وسعدٌ رضي الله عنه هو الذي اهتزَّ عرشُ الرحمنِ لموتِه، كما أخبرَ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٤٣)، ومسلم برقم (١٧٦٨).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» بإسناد حسن، وانظر «سير أعلام النبلاء» ١/ ٢٨٦، ٢٨٧.

بذلك الصادقُ المصدوقُ ﷺ(١).

ومع هذا الجهادِ والشهادةِ والمناقبِ العظمى.. لم يَسلمْ سعدٌ رضي الله عنه من ضمَّة القبر.. تلكَ التي لا ينجو منها أحد، قال جابر رضي الله عنه: جلس النبيُّ ﷺ على قبر سعدٍ وهو يُدفنُ فقال: «**سبحانَ الله!**» مرتين، فسبحَ القومُ، ثم قال: «**اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ**» فكبَّروا، ثم قال: «**عجبتُ لهذا العبدِ الصالحِ شُدِّدَ عليه في قبرِه حتى كان هذا حينَ فُرِّجَ عنه**»(٢).

ما أعظمَ الهوَل يا عبدَ الله: وإذا لم يَسلمْ سعدٌ من أهوالِ القيامةِ وهوَ بعدُ في أوّلِ منازلها.. فكيف الحالُ بعَرَصاتِ القيامة.. وكيف الحالُ بمن هم دون سعدٍ بمراحلَ، رُحماكَ ربي ما أشدَّ الهولَ! وأعظمَ المطَّلعَ! حتى تبيضَّ مفارقُ الولدان، وتضعُ الحواملُ حملَها وترى الناسَ سكارى وما هم بسكارى، ألا فاتخذوا عبادَ الله لهذا اليومِ أُهبته؛ فهناكَ يفرُّ المرءُ من أخيهِ وأمِّه وأبيه، وصاحبتِه وبنيه، لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه.

رضيَ اللهُ عنكَ يا سعد وحشرنا معك، وأعاننا على ما أعانك عليه.



---

(١) صحح إسناده الذهبي في «السير» ١/ ٢٩٣.

(٢) أخرجه أحمد، والحاكم في «مستدركه» ٣/ ٢٠٦ وصححه، ووافقه الذهبي.

من معاني الحج، وتعميم منع المرأة من العملِ مع الرجال(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، مَنَّ على عبادِه بمواسمِ الخيراتِ ما يرفعُ لهم به الدرجاتِ، ويكفرُ عنهم السيئاتِ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، قضى بقصرِ هذه الحياةِ الدنيا وجعلها متاعًا للغرور، وحكمَ بأن الآخرةَ هي الحيوانُ لو كانوا يعلمون، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه وخيرتُه من خلقِه، قضى حياتَه جهادًا وعبوديةً ودعوةً حتى أتاه اليقينُ، اللهمّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلين، وارضَ اللهم عن أصحابِهِ أجمعين، والتابعينَ ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٣).

عبادَ الله: خصّ اللهُ أقوامًا بفضله فهم دائمونَ على طاعتِه، مستثمرونَ لفرصِ الخيرِ، مسارعونَ إلى مغفرتِه، وأولئك ينتقلون من طاعةٍ إلى أخرى وما أن ينتهي موسمٌ للطاعةِ إلا ويستقبلونَ بالعزيمةِ والبشرى موسمًا آخر.. وهكذا تَعظُمُ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٢/ ١١/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

أرصدتُهم للآخرةِ، وتُبنى لهم القصورُ والغُرفاتُ وتُزيَّنُ لهم الجنانُ الباقياتُ وهم بعدُ في الدنيا.

وبإزاءِ هؤلاءِ صنفٌ يأكلونَ ويشربونَ ويتمتعونَ في الدنيا وكأنّها نهايةُ المطاف.. فلا هِمّةَ لهم في المسارعةِ، ولا شعورَ عندَهم بفرصِ الطاعة، شَغَلَهم التنافسُ في الدنيا عن التنافسِ في الآخرة، وحجبتهم المعاصي عن أنوارِ الإيمان، أولئكَ تبدأُ المواسمُ وتنتهي وكأنها لا تعنيهم، وإن مارسوها أحيانًا فمِن بابِ تقليدِ الآخرينَ أو مجاملتِهم.

إنها القلوبُ الغافلةُ.. والأرواحُ المُصابةُ، والهممُ الدنيّةُ، ها نحن في أحدِ أشهرِ الحجِّ كم تثيرُ فينا ذكرياتُ الحجِّ من معانٍ وأحاسيسَ.. وهناك تُسكبُ العبراتُ ويتوجَّه المذنبونَ إلى الغفّار، فلا يَدَع للأوابينَ المخلصينَ من ذنبٍ إلا غفرَه - ويعودُ الحاجّ بالحجّ المبرورِ، وكأنّما ولدَتْهُ أُمّه.. بل ويعودُ الحاجُّ الموفقُ بالحجّ المبرورِ وليس له جزاءٌ إلا الجنةُ، كم تتطلعُ النفوسُ المذنبةُ إلى المغفرة، وكم هو عظيمٌ الجزاءُ حين يكون الجنةَ، أين الشاردون؟ أين السادرون؟ أين المسرفون؟ بل وأين المؤمنونَ من فضلِ اللهِ ورحمتهِ؟

إن طوفانَ الحياةِ الماديةِ يكادُ يُغرقُنَا.. أفلا ننجو من الغرقِ وسفينةُ الحجّ تنتظرنا؟ وإن رائحةَ الذنوبِ والمعاصي تكادُ لهولِها تزكُمُ أُنوفَنَا - أفلا نتطهّرُ منها ونتزينُ ونتعطرُ بلباسِ التقوى، وثيابِ الإحرامِ، فهي داعيةٌ للتجردِ والعبوديةِ، وهي وسيلةٌ للتطهيرِ والتقوى!

أيها المسلمونَ: تأملوا سورةَ الحجِّ وكيف بدايتُها؟

إنها تبدأُ بالدعوةِ لتقوى اللهِ، وتُذكّرُ بالبعثِ وزلزلةِ الساعة، وهذه البدايةُ مُشعرةٌ بأنّ الحجّ رحلةٌ إلى اللهِ، ففيه خروجٌ عن الأهلِ والولدِ والوطنِ، وفيه تجردٌ من المَخيط، ووقوفٌ ومشهدٌ عظيمٌ يتجردُ فيه المسلمُ عن دنياهُ وجاهِهِ وكلِّ

اعتباراتهِ؛ ليتساوى في مناسكِ الحجّ ومواقفهِ الشريفُ والوَضيعُ، والغنيُّ والفقيرُ، والأميرُ والمأمورُ، والذكرُ والأنثى.. لا فرقَ إلا بالتقوى.. وكذلك يكونُ الموقفُ في عَرَصاتِ القيامةِ للحسابِ.. وكذلك كان يَفهم السلفُ الصالحُ حقيقةَ الحجِّ ومعناه، ويتذكرونَ به مشاهدَ القيامةِ وموازينَها وقيمَها.. وبمعاني الإيمانِ والتقوى يتفاضلُ الناسُ..

وسأسوقُ لكم نموذجًا من إيمانيات الحُجاج، كشفَها الفاروقُ عمرُ في خلافِته، وكشف معها نبوءةً للنبيِّ ﷺ حين أخبر عن سيدِ التابعين.

وتأملوا في رجلٍ أثنى عليه النبيُّ ﷺ ولم يرَه، وطلب ممَّن أدركه أن يطلبَ الاستغفارَ والدعاءَ منه، وإن كان هذا الرجلُ خاملَ الذِّكر.. مُقتَصِدَ المَلبس، حقيرًا في أعينِ أهلِ الدُّنيا، أجل لقد حجَّ عُمر رضي الله عنه بالناسِ سنةَ ثلاثٍ وعشرين - قبيلَ استشهادِهِ بأيام، وكان شغلُه البحثَ عن سيدِ التابعين أويسٍ القَرَنيِّ، ذاك الرجلُ الذي صعدَ عمرُ لأجله جَبلَ أبي قبيسٍ وأطلّ على الحجيج ونادى بأعلى صوتهِ: يا أهلَ الحجيجِ من أهلِ اليمنِ، أفيكم أويسٌ من مُراد؟ فقام شيخٌ طويلُ اللحيةِ من قَرَنٍ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنك قد أكثرتَ السؤالَ عن أويسٍ هذا، وما فينا أحدٌ اسمُه أويسٌ إلا ابنُ أخٍ لي يُقالُ له أويسٌ، وأنا عمُّه وهو حقيرٌ في أظهرِنا، خاملُ الذِّكرِ، وأقلُّ مالًا، وأوهنُ أمرًا من أن يُرفعَ إليك ذِكْرُه، فسكتَ عمرُ - كأنه لا يريده - ثم قال: يا شيخُ، وأينَ ابنُ أخيكَ هذا الذي تزعمُ؟ أهو معنا في الحَرَم؟ قال الشيخ: نعم يا أميرَ المؤمنينَ، هو في الحرم غيرَ أنه في أراكِ عَرفةَ يرعى إبلًا لنا، فركبَ عمرُ وعليّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنهما، وأسرَعا إلى أراكِ عَرفةَ، ثم جعلا يتخللانِ الشجرَ، ويطلبانِ أُويسًا، فإذا هما به في طِمرينِ من صوفٍ أبيضَ، قد صفّ قدمَيْهِ يصلي إلى الشجرة، وقد رمى ببصرِه إلى موضعِ سجودهِ، وألقى يديهِ على صدرِه، والإبلُ حولَه ترعى، قال

عمرُ لعليٍّ: يا أبا الحسنِ، إن كان في الدنيا أويسٌ القرني فهذا هو، وهذه صفتُه، ثم نزلا عن حماريهما وأقبلا يُريدانِه، فلما سمعَ أويسٌ حِسَّهما أوجزَ في صلاتِه ثم تشهَّدَ وسلّم، وتقدَّما إليه وسلَّما ثم ردّ السلامَ عليهما، فقال له عمرُ: مَنِ الرجلُ؟ قال: راعي إبلٍ وأجيرٌ للقوم، قال عمر: ليس عن الرعايةِ أَسألُكَ ولا عن الإجارةِ، إنما أسألُكَ عن اسمِك، فمَن أنتَ يرحمُكَ اللهُ؟ فقال: أنا عبدُ اللهِ وابنُ أَمَتِه، فقالا: قد علمنا أن كلَّ من في السماواتِ والأرضِ عبيدُ اللهِ، وإنا لنقسمُ عليكَ ألا أخبرتَنا باسمِكَ الذي سمَّتكَ به أمُّك، قال: يا هذان، ما تريدانِ إليَّ؟ أنا أويسُ بنُ عبدِ الله، فقال عمر: اللهُ أكبر، أوضحْ لنا عن شِقّكَ الأيسرِ. قال: وما حاجتكُما إلى ذلك؟ فقالَ له عليٌّ رضي الله عنه: إن رسولَ الله ﷺ وصفَكَ لنا، وقد وجدنا الصفةَ كما أخبَرَنا، ونريد أن نعلمَ اللّمْعَةَ البيضاءَ بمقدار الدِّينار أو الدِّرهمِ، فلما نظرَ عمرُ وعليٌّ إلى شِقِّه الأيسرِ، وبه اللمعةُ البيضاءُ ابتدرا أيهما يُقبّلُ قبلَ صاحِبِه، وقالا: يا أويسُ إن رسولَ الله ﷺ أمرَنا أن نقرئَكَ منه السلامَ، وأمرنا أن نسأَلكَ أن تستغفرَ لنا، فإن رأيتَ أن تستغفرَ لنا يرحمُكَ اللهُ، فقد خُبِّرنا بأنك سيدُ التابعين وأنكَ تشفعُ يومَ القيامةِ في عددِ ربيعةَ ومُضرَ، فَبَكى أويسٌ بكاءً شديدًا، ثم قال: عسى أن يكونَ ذلك غيري، قالا: بل أنتَ، فادعُ لنا، قال أويسٌ: ما أخصُّ باستغفاري نفسي ولا أحدًا من ولدِ آدمَ، ولكن في البرّ والبحرِ، للمؤمنينَ والمؤمناتِ، والمسلمينَ والمسلماتِ في ظُلمِ الليلِ وضياءِ النهارِ، ولكن من أنتما يرحمُكُما اللهُ، فإني قد خّبرتُكما وشهرتُ لكما أمري، ولم أحب أن يعلَمَ بمكاني أحدٌ من الناس؟ فقال عليٌّ: أما هذا فأميرُ المؤمنينَ عمرُ، وأما أنا فعليُّ بنُ أبي طالب، فوثبَ أويسٌ فرحًا مستبشِرًا فعانَقهُما وسلّم ورحَّبَ بهما وقال: جزاكم اللهُ عن هذه الأمةِ خيرًا، ودعا لهما، ثم قالَ عمر: مكانكَ رحمكَ اللهُ حتى أدخلَ مكةَ فآتيكَ بنفقةٍ من عطائي وفَضْلِ

كسوةٍ من ثيابي، فإني أراكَ رثَّ الحال، وهذا المكانُ ميعادُ بيني وبينك غدًا، فقال أويسٌ: يا أميرَ المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك ولا أعرفكَ بعدَ اليومِ ولا تعرفني، ما أصنعُ بالنفقة؟ وما أصنعُ بالكسوةِ؟ أما ترى عليّ إزارًا من صوفٍ ورداءً من صوف، متى تراني أُخْلِقهُما.. ومعي أربعةُ دراهم أخذتُها من رعايتي متى تُراني آكلُها؟ يا أميرَ المؤمنين، إن بيني يديّ عقبةً لا يقطعها إلا كلُّ مُخفٍّ مهزولٍ، فأخفَّ يرحمُك اللهُ.. إن الدنيا غرّارةٌ غَدّارةٌ، زائلةٌ فانية، فمن أمسى وهمتُه فيها اليومَ مدّ عُنقَه إلى غدٍ، ومن مدّ عنقَه إلى غدٍ أعلقَ قلبَه بالجمعة، ومن أعلق قلبَه بالجمعة لم ييأس من الشهرِ، ويوشكُ أن يطلبَ السنةَ، وأجلُه أقربُ إليه من أملِه، ومن رفضَ هذه الدنيا أدركَ ما يريدُ غدًا من مجاورةِ الجبار، وجرت من تحتِ منازِله الثمارُ، فلما سمعَ عمرُ كلامَه ضربَ بدِرّتِهِ الأرضَ ثم نادى بأعلى صوتِه: ألا ليتَ عمرُ لم تلدْه أمُّه، ليتها عاقرًا لم تعالجْ حملَها، ألا من يأخُذُها بما فيها ولها.

ثم قال أويسٌ: يا أميرَ المؤمنينَ، خُذْ أنتَ هاهنا، حتى آخذَ أنا هاهنا، ومضى أويسٌ يسوقُ الإبلَ بين يديه، وعمرُ وعليٌّ ينظران إليه حتى غابَ فلم يَروه.

وهكذا إخوة الإيمان تكونُ المعاني والقِيمُ، ويوزنُ الرجالُ، ولمثلِ أولئكَ الرجالِ قال عليه الصلاة والسلام: «**إن خيرَ التابعينَ رجلٌ يقالُ له أويسٌ، وله والدة وكان به بياضٌ، فمُروه فليستغفرْ لكم**»[1].

أيّها المسلمونَ: ومن زلزلةِ الساعةِ وأهوالِ يومِ القيامة - إلى ذكر الجهادِ والقتال في سورة الحج؛ حيث تتوسطُ آياتُ الحجّ بينهما: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ

---

(١) رواه مسلم من حديث عمر رضي الله عنه برقم (٢٥٤٢).

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[١]. وذلكَ مُشعرٌ كذلك بالارتباطِ بين الحجِّ والجهادِ.. فالحجّ نوعٌ من الجهاد، ولذا نقلَ الرسولُ ﷺ ذاك الرجلَ الذي اكتتبَ في إحدى الغزواتِ وله زوجة تريدُ الحجَّ، فقال ﷺ: «**اذهب وحجَّ مع امرأتِكَ**»[٢]. فنقله من جهادٍ إلى جهاد.

وعن المرأةِ والحجّ قال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**عليكنّ جهادٌ لا قتالَ فيه: الحجُّ والعمرة**»[٣]. فهل يا ترى يتذكرُ المسلمونَ حين الحجِّ زلزلةَ الساعةِ ومواقف القيامةِ؟ وهل يستشعرون وهم يحجونَ معنًى من معاني الجهاد في سبيل الله؟

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].



(١) سورة الحج، الآية: ٣٩.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٦)، ومسلم برقم (١٣٤١).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٩٠١)، وأحمد ٦/ ١٦٥، وبنحوه البخاري (٢٨٧٥).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، ولا عدوانَ إلا على الظالمينَ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وليُّ الصالحينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله سيدُ الأولينَ والآخرين.

أيّها المسلمونَ: وقعَ بيدي قرارٌ حكيم، وتعميمٌ كريم صادرٌ من أعلى سلطةٍ في الدولةِ ومُبلَّغٌ إلى كافةِ الجهاتِ الحكوميةِ والمؤسساتِ العامةِ للاعتمادِ والتقيُّدِ بموجبِهِ.. هذا التَّعميمُ حَرِيٌّ بأن يُذكرَ ويشكرَ من أصدرَه.. ويُتابعَ من تباطأَ أو قصّرَ في تنفيذه، التعميمُ يَخصّ قضيةً مهمةً من قضايانا المعاصرةِ.. ويحسمُ جدلًا طالما ركضَ وأرجفَ مَن في قلوبهم مرضٌ - إنه يتعلقُ بالمرأةِ وحمايتِها من الاختلاطِ بالرجال ويقطعُ دابرَ الدعوةِ للزجِّ بها وظيفيًّا في أيِّ مكان، ويؤكِّد على أن يكون عملُ المرأةِ في الأعمالِ التي تُناسبُ طبيعَتها، ولا يخدشُ حياءَها أو يهدرُ كرامَتها أو ينالُ من أخلاقِها.

التعميمُ الجديدُ تاريخه في ٥/ ١٠/ ١٤٢١هـ، ولكنه معطوفٌ على تعميمٍ سابقٍ مؤرَّخ في ١٦/ ٥/ ١٤٠٣هـ. وعلى قرارٍ صادرٍ لهيئةِ كبارِ العلماءِ بتاريخ ٢٠/ ٨/ ١٤١٢هـ.

ومن حقّ من اطلّعَ على هذا التعميمِ الحديثِ القديمِ أن يتساءل:

- هل من حقّ أحدٍ أن يقترحَ أو يطرحَ ما يخالفُ ما نصّ عليه التعميمُ بشأنِ عملِ المرأةِ ومنعِها من أيِّ عملٍ تختلطُ فيه بالرجال، سواءً في الإداراتِ الحكوميةِ أو غيرِها من المؤسساتِ العامةِ أو الخاصةِ أو الشركاتِ أو المهن؟

- ومَن المسئولُ عن عدمِ جِدِّيَّةِ بعضِ القطاعاتِ في التنفيذ - حيثُ يوجدُ أحيانًا اختلاطُ المرأةِ بالرجالِ في العملِ في عددٍ من الوزاراتِ والدوائرِ الحكوميةِ والمؤسسات - ولعلّ عملَ المرأةِ في المستشفياتِ أو الخطوطِ

السعوديةِ نماذجُ صارخةٌ لهذا الاختلاطِ، والحاجةُ لا تستدعيه ولا تستلزمُه، والتعميمُ يؤكدُ على منعِه، بل ومحاسبةِ من يُخالفُه.

- هل سيُسكِتُ هذا التعميمُ الطروحاتِ الفجةَ عن عملِ المرأة، وهل سينكفئُ الموتورونَ الذين لا يزالونَ يطرحونَ إشكاليةَ عملِ المرأةِ على أعمدةِ الصحفِ والمجلاتِ وفي كافةِ القنواتِ الإعلاميةِ دون تحفُّظٍ أو تحوُّطٍ، كالذي جاءَ في التعميمِ الكريمِ السالف.

- ماذا سيكونُ وضعُ المرأةِ العاملةِ في أيٍّ من الدوائرِ والمؤسساتِ التي يوجدُ بها ما يخالفُ ما نَصّ عليه القرارُ.. حاضرًا ومستقبلًا، ومَنْ المسئولُ عن الممارساتِ الخاطئةِ والمنافيةِ لمضمونِ هذا التعميم؟

- كيف سيتعاملُ المسئولونَ في المؤسساتِ الحكوميةِ والخاصةِ مع هذا التعميم، هل سيحتاجونَ إلى متابعةِ الجهاتِ الرقابيةِ؟ أم سيجعلونَ من أنفُسِهم أداةً للمراقبةِ لتنفيذِ ما حواهُ التعميمُ، وإصلاحِ ما يحتاجُ إلى إصلاحٍ بوضعِ المرأةِ المختلطةِ؟

- هل ستمارسُ الهيئاتُ الدينيةُ والشئونُ الإسلاميةُ، وهيئاتُ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ دورَها في العملِ بموجبِ هذا التعميم.. والإنكارِ على من تجاوزَ أو قصّرَ في التنفيذ؟

- كيف سيستثمرُ الغيورونَ هذا التعميمَ لصالحِ المرأةِ، بل ولصالحِ الرجلِ.. بل وصالحِ المجتمعِ بأسرِه؟

- بل وهل تستثمرُ المرأةُ هذا التعميمَ لصالحِ قضيّتِها وحمايَتِها من العملِ إلى جانبِ الرجلِ، فمن حقِّها أن تطالبَ بتأمينِ أماكنَ للعملِ خاصةٍ بها، تُديرُها وتشرفُ عليها، وتمنَعُ وجودَ الرجالِ بها مطلقًا.. فالمرأةُ قادرةٌ بنفسِها ومع بناتِ جنسِها على ممارسةِ العملِ وإدارتِه.. وتجربتها في تعليمِ المرأةِ نموذجٌ

يشهدُ على نجاحِها وعَدمِ حاجتها إلى مشاركةِ الرجل.

إنه قرارٌ يستحقّ الإشادة.. وتعميمٌ يحتاجُ إلى دقّةٍ في المتابعة.. وجدِّيّةٍ في التنفيذ - إنه مُنصفٌ للمرأةِ كما أنه منصفٌ للرجل - وهو بوابةُ أمانٍ بإذنِ اللهِ عن فسادِ القيمِ والأخلاق - فهل نتفاعلُ جميعًا معه.. وهل يَعتبرُ كلُّ شخصٍ منّا نفسَه مسئولًا عن تنفيذِه على مستوى الرجلِ والمرأةِ والمسئولِ والعاملِ في القطاعِ العامِّ أو الخاصِّ.. ذلكَ ما نرجو ونأملُ، وتحيةً لمن أصدرَ هذا التعميمَ، ولمن تعاملَ معه بجديةٍ وإخلاصٍ.



(١) في السيرة النبوية[١]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربّ العالمين، جعل محبةَ الرسولِ ﷺ من علاماتِ الإيمان، بل شرطٌ له: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من وَلَدِهِ ووالِده والناسِ أجمعين**»[٢].

وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، حَكَم بأنّ أتباعَ الرسولِ ﷺ دليلٌ على محبةِ اللهِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه بمحبَّتَه توجد حلاوةُ الإيمانِ: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنّ حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سِواهُمَا**»[٤].

اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهمّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ ومَن تبَعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين وسلِّم تسليمًا كثيرًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٦].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٥/ ٤/ ١٤٢١هـ.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (١٥)، ومسلم في «صحيحه» برقم (٤٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (١٦)، ومسلم في «صحيحه» برقم (٤٣).

(٥) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

عبادَ الله: في تاريخ الأممِ كلِّها عظماءُ يُقَدِّرهم الناسُ حقَّ قَدْرهم، ويَرَون لهم فضلًا على غيرهم، وإذا تفاوتت خِصال العَظَمة بين الشجاعةِ والكرمِ، وبين قوةِ الأجسام أو عظمةِ العقولِ، أو نحوِها من صفاتٍ يَبرزُ بها العظماءُ.. فإن للعظمةِ المرتبطةِ بوحي السماء شأنًا آخرَ.. فكيف إذا كان هذا النوعُ من العظماءِ يجمع صفاتِ العظمةِ كلَّها.. ويتفق أصحابُ المللِ - وعبر القرونِ المتلاحقةِ - على الاعترافِ بعظمةِ محمدٍ ﷺ، ونزاهةِ سيرتِه وطيبِ خُلُقِه، وما بنا - معاشرَ المسلمين - حاجةٌ لشهادة الآخرينَ بعد شهادةِ الحقِّ المبينِ في قرآن يُتلى إلى يومِ الدِّين ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وقد بلغ الخبرُ آفاقَ الأرض وعنانَ السماء، وما من عاقل رأى محمدًا ﷺ أو قرأ سيرتَه إلا ويعترفُ بهذه العظمةِ، ويشهدُ لمحمدٍ ﷺ، ولو كان على غيرِ دينهِ، ويقول أحدُهم في مؤتمر جمع أعدادًا من المثقفين الغربيينَ سنة ١٩٢٧م: «إن البشريةَ لتفخرُ بانتسابِ رجلٍ كمحمدٍ ﷺ لها، إذ أنه رغم أُمّيتِهِ استطاع قبل بضعةَ عشرَ قرنًا أن يأتي بتشريع سنكونُ نحن الأوروبيين أسعدَ الناسِ لو وصلنا إلى قمّتِه بعد ألفي سنة»[2].

ويقول آخرُ: فالرسالةُ التي دعا إليها هذا النبيُّ ظلت سراجًا منيرًا أربعة عشر قرنًا من الزمان لملايينَ كثيرةٍ من الناسِ، فهل من المعقولِ أن تكونَ هذه الرسالةُ التي عاشت عليها هذه الملايينُ ومات أكذوبةَ كاذبٍ، أو خديعةَ مخادع، ولو أن الكذبَ والتضليلَ يروجان عند الخلقِ هذا الرواجَ الكبيرَ لأصحبتِ الحياةُ سخفًا وعبثًا، وكان الأجدرُ بها ألا توجد[3].

إخوة الإسلام: أما المسلمون فقد أشادوا - ولا غرابةَ - بسيرة محمدْ ﷺ،

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) الرسول في كتابات المستشرقين (٧٦). (٣) أوروبا والإسلام ص٤٥.

وشهدت مصنفاتُهم المؤلَّفةُ في كلِّ فنٍّ من فنونِ السيرة على عظيم حفاوتِهم وعنايتِهم بالسيرة وصاحِبِها، وأكّدَ العلماءُ على أن سيرةَ محمدٍ ﷺ من أسبا تقويةِ الإيمان واليقين في القلوبِ، وفي ذلك يقول ابنُ القيّم: وإذا تأملتَ أخبارَ الأممِ وأيامَ اللهِ في أهلِ طاعتِه وأهلِ معصيتِه طابقَ ذلك ما علمتُه من القرآنِ والسُّنةِ، ورأيتُه بتفاصيلِ ما أخبر اللهُ به ووعدَ بهِ، وعلمتَ من آياتهِ في الآفاق ما يدلُّك على أنَ القرآنَ حقٌّ، وأنّ الرسولَ حقّ، وأن الله يُنجز وعدَه لا مَحالة[١].

وهل سيرةُ المصطفى ﷺ إلا جزءًا من أيامِ اللهِ - بل هي أصدقُ أيامِ اللهِ - في نُصرة أهلِ طاعتِه وخُذلانِ أهل معصيتِه؟

ويرى ابنُ حزمٍ رحمه الله أن السيرةَ النبويةَ طريقٌ لخيري الدُّنيا والآخرةِ ويقول: «من أرادَ خيرَ الآخرةِ وحكمةَ الدنيا، وعدلَ السيرةِ، والاحتواءَ على محاسنِ الأخلاقِ كلِّها، واستحقاقِ الفضائلِ بأسرِها، فليقتدِ بمحمد ﷺ، وليستعمل أخلاقَه وسِيرَه ما أَمكنه»[٢].

عبادَ الله: إن التمعُّنَ في سيرةِ محمد ﷺ يؤكد نبوتَه، وتشهدُ على صدق رسالتِه، وهي بذاتِها معجزةٌ من معجزاتِه، وفي هذا قال أحدُ العلماء: «إن سيرة محمدٍ ﷺ لمن تدبّرها تقتضي تصديقَه، وتشهدُ له بأنه رسولُ اللهِ حقًا، فلو لم تكن له معجزةٌ غيرَ سيرتِه لكفى»[٣].

أجل إن أخلاقَ محمدٍ ﷺ وجميلَ سيرتِه، برهانٌ على نبوته، ودليل على عظمتِه وقائدٌ إلى الإيمان بما جاء بهِ، يقول القاضي عياضٌ رحمه الله: وإذا تأمّل المنصفُ جميلَ أثرِه، وحميدَ سيرتِه، وبراعةَ علمِه، ورجاحةَ عقلِه وحلمِه،

(١) الداء والدواء ص٢٢.

(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (٢٤).

(٣) ابن حزم، «الفصل في الملل والنحل» ٢/ ٩٠، دار المعرفة.

وجُملَةَ كمالِه، وجميعَ خِصالِه، وشاهدَ حالَه، وصوابَ مقالِه، لم يمترِ في صحَّة نبوتِه وصِدقِ دعوتِه -ثم قال-: وقد كفى هذا غيرَ واحدٍ في إسلامِه والإيمانِ به.

ثم ساق قصةَ الحبرِ عبدِ اللهِ بن سلام رضي الله عنه حين جاء إلى رسول الله ﷺ -يوم قَدِمَ المدينةَ- فلما رآه قال: عرفتُ أنّ وجهَه ليس بوجهِ كاذبٍ[1].

وفي «صحيح مسلم» من حديث ضِماد رضي الله عنه أنه حين قدم على رسول الله ﷺ ليَرْقيَه، فابتدَرَه النبيُّ ﷺ بالقول: «**إن الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُهُ، من يهدِه الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلِل فلا هادَي له، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه**» قال له ضِمادٌ: أعِدْ عليَّ كلماتِك هؤلاء، فلقد بلغنَ قاموسَ البحرِ - وفي رواية «ناعوسَ البحرِ» - يريد: اشتهرتْ مقالتُك هذه في جميع أقطار الأرض شرقًا وغربًا - (ثم قال): هاتِ يدَك أُبايعك[2].

أيها الناسُ: لقد غابت سيرةُ الحبيبِ المصطفى ﷺ عن نفرٍ من المسلمين، فلم يعلموها، وأنّى لهؤلاء أن يعملوا بها، وما حلّ الشقاءُ والنّكدُ بالأمةِ المسلمةِ إلا حين غابت عنهم أضواءُ السيرةِ، وفُصِلتْ أجيالٌ من المسلمين عن التربِّي على هذه السيرة العَطرةِ، وظنّ بعضُ المسلمين أنه يَكفيهم منها التعلّقُ بالمواليد والاحتفالاتِ البِدعية.. وكأن العنايةَ بالسيرة أو الذّكرى لمحمدٍ ﷺ لا ينبغي أن تتجاوزَ أيامًا معدودةً.. وعَبْرَ قصائدَ فيها من الشّركيات ما تُنزَّه عنه السيرةُ العطرةُ، وعَبْرَ اجتماعات واحتفالاتٍ لم يفعلها الرّسولُ ﷺ بنفسِه، ولا اجتمع على مثلِها صحابتُه من بعدِه وهم أقربُ الناسِ له، وأكثرُ الناسِ محبةً وتعظيمًا له.. لكنها البِدَع المُحْدَثَةُ يُلقيها ويُروّجُ لها شياطينُ الإنسِ والجنّ ليصرفوا بها الناسَ عن المحبةِ الحَقّة والاقتداءِ الدائمِ بسيرةِ محمد ﷺ وهَدْيِهِ.

---

(١) رواه الترمذي، وانظر: القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٣٤٢).

(٢) صحيح مسلم (٥٩٣).

أيها المسلمون: إن المحبةَ الحقّةَ لمحمدٍ ﷺ تَعني صِدْقَ متابعتِه، والاستمساكَ بهَدْيِه، والجهادَ لنُصرة دينِهِ، والدعوةَ لنشرِ رسالتِه في العالمين، وأشدُّ الناس محبةً للنبيِّ ﷺ أكثرُهم تمسكًا بسنتِه، وإتباعًا لهديِهِ، وحرصًا على دعوة الخَلْق لطريقتِه.

أما الدّعاوى الفارغةُ والاحتفالاتُ البِدْعيّةُ، فتلك بضاعةُ البطّالين، وما بالمسلمين حاجةٌ لمزيد التّهريج والدّجل، والسلبيةِ، وترديد القصائدِ والمديحِ دون عملٍ مُثمر ودعوةٍ جادّةٍ، وسلوكٍ منضبط بأوامرِ الإسلام وهدي محمدٍ ﷺ.

ومصيبةٌ أن تتقدمَ الأُممُ الأخرى بالعمَل والإنتاج وتبقى طوائفُ من المسلمين تُفضّل العُزلةَ وتنتسبُ للتصوّفِ، وتُعظّم الأولياءَ، وتطوفُ حول قبور الموتى.. وتتمسّحُ بمن يُسمّون بالأولياء.. وقد يصل الأمرُ إلى الخضوع لهم وتقديمِ طاعتِهم على طاعةِ الأنبياء، ثم تزعم أنها تُحبّ محمدًا ﷺ، وكلّ ذلك ضَلالٌ مبينٌ، وانحرافٌ عن صراطِ الله المستقيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].



(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين اصطفى لنا الدين، وأكرمنا ببعثة خاتمِ المرسلين، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، دعا الخلقَ لعبادته، واصطفى من الملائكةِ رُسلًا ومن الناسِ يبلّغونَ عن اللهِ شرعَه ويهدون الناسَ - بإذن اللهِ - إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ.

وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، أكرمُ الخلق على اللهِ، الشافعُ المشفَّع في المَحشر.. اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

أيها المسلمون: وهناك خصائصُ تتميز بها سيرةُ النبيِّ ﷺ على غيره من الأنبياءِ، وتختصُّ بها رسالتُه على سائرِ رسالاتِ السماءِ، فرسالةُ الإسلامِ التي بُعِثَ بها محمد - خاتمة وعامة.

وبرسالة محمدٍ ﷺ خُتمت رسالاتُ السماءِ وانقطعَ الوحيُ.. فلا رسالةَ بعد رسالتِه، ولا دينَ يُقبلُ إلا دينُه الإسلام ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1].

وفي «صحيح السنة»: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياءِ كمَثلِ رَجلٍ بنى دارًا فأَتمّها وأكملَها إلا موضع لَبِنَةٍ، فجعلَ الناسُ يَدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون: لولا مَوضعُ اللّبِنَة! » قال رسولُ الله ﷺ: «**فأنا موضعُ اللَّبِنَةِ، جئتُ فختمتُ الأنبياءَ**»[2].

ورسالةُ محمدٍ ﷺ مُتمّمةٌ لرسالاتِ الأنبياءِ قبلَه، وهو أولى الناسِ بالأنبياءِ من أَتباعهم الذين حرّفوا وبدّلوا ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» برقم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**أنا أولى الناسِ بعيسى ابن مريمَ في الدُّنيا والآخرةِ**»[١].

وقال لليهود: «**أنا أولى بموسى مِنكم**»[٢].

ومن مقتضيات ختم الرسالات برسالة محمدٍ ﷺ أن تتوحّد البشريةُ تحت لواءِ التّوحيدِ، لا تعترفُ بالطبقيّة ولا العُنصريةِ، وأن يُرَدّ على كلّ مُدّعٍ النبوةَ دعوتَه، بل يُصنَّفُ ضمن المتنبّئين الكذّابين الذين ابتدأ ظهورُهم ومحمدٌ ﷺ على قيد الحياةِ وما زال مستمرًا.

ومن مقتضياتِ العالميةِ في الرسالة المحمّديةِ أن يمتدّ أثرُها في المكان لتشملَ المعمورةَ كلَّها، وتمتدّ في الزمان لتستغرقَ ما بقي من تاريخ الإنسانيةِ حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها، لا يُفرّق في الإسلام بين عربيٍّ وأعجميٍّ وحُرٍّ وعبدٍ، وغنيٍّ وفقير، وأميرٍ ومأمور.

وبمقتضى عالمية الإسلام ينبغي أن تنتهي الدياناتُ الأخرى وتصير إلى الإسلام امتثالًا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٣] ولقول الرسول ﷺ: «**فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذهِ الأُمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يُؤمنْ بالذي أُرسلتُ به إلا كان من أصحابِ النار**»[٤].

عبادَ الله: ومن خصائص رسالةِ محمدٍ ﷺ أنْ أنزلَ عليه كتابًا مُعجزًا تحدّى اللهُ به الأولينَ والآخِرين أن يأتوا بمثلِه.. ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا

---

(١) متفق عليه، البخاري برقم (٣٤٤٣) واللفظ له، ومسلم برقم (٢٣٦٥).

(٢) متفق عليه، البخاري برقم (٣٩٤٣)، ومسلم برقم (١١٣٠).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٤) رواه مسلم، كما في «مختصر المنذري» (١٣).

- وأبقى هذه المعجزةَ محفوظةً على مرّ الزمانِ وتكاثُرِ الأعداءِ، تستجيبُ لها العقولُ السليمةُ، والقلوبُ الواعيةُ، وإن لم تشهد نزولَها أو ترى الرسولَ المُنزَّل عليه بها.

إن القرآنَ معجزةٌ خالدةٌ لخلودِ رسالةِ الإسلام، وهي محفوظةٌ بحفظ اللهِ ما بقيتِ الحياةُ وانتشرَ الأحياءُ.. وذلك ما لم يتوفَّر مثلُه لنبيٍّ من الأنبياءِ قبلَه - عليهمُ الصلاةُ والسلامُ.

ومن خصائصِ سيرة محمدٍ ﷺ ونبوَّتِه أن اللهَ تعالى أطلعَه على غيبٍ، وقصَّ عليه من الأحوالِ الأنبياءِ السابقينَ، وعرَّفه بأخبارِ الأُممِ الماضين مما لم يتوفَّر مثلُه لنبيٍّ قبلَه، ولم تعلم به أمتُه من قبلِه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[1].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[2].

أيها المسلمون: واختُصّ محمدٌ ﷺ من بين الأنبياءِ بنوعيةٍ من الأصحاب لم يتوفَّرْ مثلُهم كذلك لنبيٍّ من الأنبياء - لا في العدد ولا في النوعية، فمحمدٌ ﷺ أكثرُ الأنبياءِ تبَعًا، وأصحابُه رضوانُ الله عليهم لا يُقارَنون بغيرهم له إتّباعًا - فما قالوا له: اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولا قالوا له: (أنتَ اللهُ) أو: (ابنُ الله) أو: (ثالثُ ثلاثةٍ) - تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوًا كبيرًا - وقد مرّت بهم مِحَنٌ وبلوى فصبروا لها، واقتضى أمرُ الإسلام أن يُفاصِلَ الابنُ أباه، بل يقاتله على الإسلام، فاستجابوا حتى أظهر اللهُ دينَه، وهذه الشّدة عبّر عنها أحدُ الصحابة لنفرٍ من التابعين كانوا يغبطونَه على رؤية رسولِ الله ﷺ

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

وشهودِ مشاهدِه، فاستُغضب الصحابيُّ - المقدادُ بنُ الأسود ﷺ - ثم أقبل عليهم يقول: ما يحملُ الرّجلَ على أن يتمنّى محضرًا غيّبه اللهُ عنه؟ لا يدري لو شهدَه كيف يكون فيه؟ واللهِ لقد حضرَ رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كبَّهمُ اللهُ على مناخِرِهم في جهنّم، لم يجيبوه ولم يُصدّقوه أو لا تحمَدون اللهَ ﷻ إذْ أخرجَكم لا تعرفون إلا ربّكم، فتُصدّقون بما جاء به نبيُّكم ﷺ، قد كُفيتُم البلاءَ بغيرِكم، واللهِ لقد بُعثَ النبيُّ ﷺ على أشدّ حالٍ بُعثَ عليها نبيٌّ قَطّ، في فترةٍ وجاهليةٍ، ما يَرون أن دينًا أفضلَ من عبادةِ الأوثانِ، فجاءَ بفُرْقانٍ فرّق به بين الحقِّ والباطلِ، وفرّق به بين الوالدِ وولدِه، حتى إن كان الرجلُ ليرى والدَه أو ولده أو أخاه كافرًا، وقد فتح الله قُفْلَ قلبِهِ بالإيمان، ويعلمُ أنه إنْ هلكَ دخل النارَ، فلا تقرُّ عينُه وهو يعلم أن حبيبَه في النارِ، وأنها للتي قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[1].

عبادَ الله: هذه إطلالةٌ على جوانبَ من السيرة النبوية وللحديثِ بقيّة إنْ شاء اللهُ تعالى.. اللهمّ علّمنا ما ينْفَعُنا وانفعنا بما علّمتنا.



(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٤. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» وهو في «الصحيح» منه للألباني ص٦٠.

(٢) في السيرة النبوية[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفُسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ له ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدهُ ورسولُه، اللهمَّ صلّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلينَ، وارضَ اللهمَّ عن الصحابة أجمعينَ، والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين وسلّم تسليمًا كثيرًا.

عبادَ الله: اتقوا اللهَ حقَّ التقوى، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، واحرصوا على هَدْي المصطفى ﷺ، ومن يتقِ اللهَ يجعلْ له مخرجًا، ومن يطع الرسول فقد اهتدى.

إخوة الإسلام: ابتدأتُ في الجمعة الماضية حديثًا عن السيرة النبوية بذكرِ شيءٍ من خصائصِها، وحقيقةِ المحبةِ لصاحبها عليهِ الصلاة والسلام.

وحديثُ اليوم استكمالٌ لما قبلَه، فالضرورةُ داعيةٌ لمعرفةِ هذه السيرةِ العطرةِ، بل هي كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فوق كلِّ ضرورة؛ إذ لا سبيل إلى السعادة والفلاحِ في الدُّنيا والآخرة إلا على أيدي الرسلِ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث على التفصيل إلا من جهتِهم، ولا يُنال رضا اللهِ البتة إلا على أيديهم». إلى أن يقول: «وإذا كانت سعادةُ العبد في الدارَين معلّقةً بهَدْي النبيِّ ﷺ، فيجبُ على كلِّ من نَصَحَ نفسَه، وأحبّ نجاتَها وسعادتَها أن يعرفَ من هَدْيِه وسيرتِه وشأنِه ما يخرجُ به عن الجاهلين به، ويدخلُ في عِداد أتباعِه

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٢/ ٤/ ١٤٢١هـ.

وشيعتِه وحزبِهِ، والناسُ في هذا بين مُستقِلّ ومستكثرٍ ومحروم، والفضلُ بيدِ اللهِ يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم»[١].

عبادَ الله: وتقديرُ الرسولِ ﷺ وإجلاله تحدَّث عنها البُلغاءُ، وصاغها الشعراءُ قصائدَ ومديحًا تُروى وتتلى، وهذا كعبُ بنُ زهير ﷺ الشاعرُ ابنُ الشاعرِ وأبو الشُّعراءِ - كان رسولُ اللهِ ﷺ قد أهدَرَ دمَه، فأُشير على كعب أن يأتيَ للرسولِ ﷺ، فجاء إليه مُسلمًا معتذرًا، مُثنيًا على شمائِلِه، هائبًا للقائِه ومما قال:

نُبّئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعَدَني ... والعفوُ عند رسولِ الله مأمولُ
ما زلتُ أقتطعُ البَيداءَ مُدّرعًا ... جُنحَ الظلامِ وثوبُ الليلِ مسبولُ
حتى وضعتُ يميني ما أُنازعُها ... في كَفِّ ذي نَقِماتٍ قولُه القيلُ
إنَّ الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به ... وصارمٌ من سيوفِ اللهِ مَسلولُ
في عُصبةٍ من قريش قال قائلُهم ... ببطنِ مكةَ لما أسلَموا زُولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ[٢] ولا كُشُفٌ[٣] ... عند اللقاءِ ولا مِيلٌ[٤] معازيلُ[٥]
شُمُّ العرانينِ أبطالٌ لبوسُهُمُ ... من نسجِ داودَ في الهيجا سَرابيلُ
لا يفرحون إذا نالت رماحُهمُ ... قومًا وليسوا مجازيعًا إذ نِيلُوا

إلى أن يقول - مبديًا تخوّفَه من الرسول ﷺ -:

فَلَهُوَ أخوفُ عندي إذ أُكلّمه ... وقيل إنك محبوسٌ ومقتولُ
من خادرٍ من لُيوثِ الأُسْدِ مَسْكنُه ... ببطن عَثَّرَ[٦] غِيلٌ[٧] دون غِيلُ

---

(١) زاد المعاد ١/ ٦٩، ٧٠.

(٢) أنكاس جمع نُكُس: وهو الضعيف.

(٣) أي: الذي لا فرس له.

(٤) أي: جبان.

(٥) أي: من لا سلاح له.

(٦) اسم موضع.

(٧) أي: الشجر الملتف.

ومع ذلك كلِّه فقد عفى عنه النبيُّ ﷺ وقبِلَ عُذرَه وإسلامَه، بل خلع بُردته التي كان يلبسها، فعرفت قصيدته تلك بـ(البُردة) وهي غيرُ البردة المنكرة للبوصيري[1].

أيها المؤمنون: ومحمدٌ ﷺ نبيُّ الهدى والرحمة، أعطاه الله اسمين من أسمائه فقال عنه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وجعله رحمةً للأمة حيًا وميتًا، أما في حياته فكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**حياتي خيرٌ لكم وموتي خيرٌ لكم**»[4].

أما رحمته للأمة بعد موته، فلِمَا رواه مسلم في «صحيحه» عنه ﷺ إنه قال: «**إن الله ﷻ إذا أراد رحمةَ أُمةٍ من عباده قبضَ نبيَّها قبلَها، فجعله لها فَرَطًا وسَلَفًا بين يديها، وإذا أراد هلَكَةَ أُمةٍ عذّبها ونبيُّها حيٌّ فأهلكها وهو ينظر، فأقرّ عينه بهلكتِها حين كذَّبوه وعصوا أمرَه**»[5]، إذًا فالرحمةُ حاصلةٌ بنبِّينا في حال حياتِه، وذلك لهدايتِه الخلقَ لسبيل الخير، وبعد مماتِه لتقدُّمه فَرَطًا لهم وعدم هلاكهم وفتح فُرصِ التوبة لهم. وقيل: إن رحمتَه لجميع الخلق: للمؤمن رحمةٌ بالهداية، ورحمةٌ للمنافق بالأمان من القتل، ورحمةٌ للكافر بتأخير العذاب[6].

أيها المسلمون: وانقسم الناسُ في حياتِه ولا زالوا إلى ثلاثة أقسام: مؤمنين استجابوا لله والرسول إذْ دعاهم لِما يُحييهم، وهؤلاء جزاؤهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ، لهم فيها ما يشاءون خالدين فيها.

---

(١) انظر القصيدة في ديوان كعب ص٢١، وانظر بعضها في «زاد المعاد» ١/ ٩١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٤) رواه ابن مسعود بسند صحيح.. انظر هامش «الشفا» للقاضي عياض ١/ ١٩ (٢).

(٥) مسلم ح(١٧٩٢). وانظر «مختصر المنذري» (١٥٩٦).

(٦) القاضي عياض، «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ١/ ١٩.

ومنافقين غرَّهم الشيطانُ وغرّتهم أنفسُهم، وظنوا أنهم يُخادعون اللهَ والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسَهم وما يشعرون، وهؤلاء حكَمَ اللهُ بأنهم في الدّرْك الأسفلِ من النار، ولن تجدَ لهم نصيرًا، إلا من تابَ وآمنَ وأصلحَ.

وفئةٍ ثالثةٍ: كفّارٍ معاندين صُرَحَاءَ في محاربتِهم لله ورسولِه، وهؤلاء لهم نارُ جهنمَ خالدين فيها لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفّف عنهم من عذابها، كذلك يجزي اللهُ كلَّ كفور.

أمةَ الإسلام: وعاش رسولُ الهدى ﷺ في سبيل إقرارِ هذا الدِّين ونشرِه في العالِمين حياةَ الزهدِ والكَفَافِ -ولو شاء أن تُسيَّلَ له الجبالُ ذهبًا لسالت- ولكن آثرَ أن يشبَع فيشكرَ ويجوعَ فيذكرَ، واجتمع عليه وعلى أصحابه رضوانُ الله عليهم شدةُ الجوع وشدةُ الخوفِ، وربط على بطنِه حَجَرين من شدة الجوع، في وقتٍ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ، وظُنَّ بالله الظنون.. هنالك ابتُلي المؤمنونَ - ومحمدٌ ﷺ قائدُهم - وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، ويصف طرفًا من هذه الشّدة - في يوم الخندق والأحزاب - حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه للرجل الكوفي الذي قال له: يا أبا عبد الله، أَرأيتم رسولَ الله ﷺ وصحبتُموه؟ قال: نعم يا ابنَ أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: واللهِ لقد كنّا نَجْهدُ. قال: فقال الكوفي: واللهِ لو أدركناه ما تركناهُ يمشي على الأرض ولحمَلْناه على أعناقِنا، قال: فقال له حذيفةُ: يا ابنَ أخي لعلك لا تدري لو أدركتَ رسولَ اللهِ ما تصنع؟ ثم ساق طَرَفًا من مواقفِ الشدةِ التي مرّت بهم ورسولُ اللهِ يُنادي في المسلمين: «**مَنْ رَجُلٌ يقومُ فينظرُ لنا ما فعلَ القومُ، ثم يَرجعُ، أسألُ اللهَ أن يكونَ رفيقي في الجنةِ؟**» فما قام أحدٌ من القوم من شدّةِ الخوفِ وشدّةِ الجوع وشدّة البَرْدِ.. حتى دعاني رسولُ اللهِ ﷺ فلم يكن لي بُدٌّ من القيام.. إلى آخر القصةِ التي رواها ابنُ

إسحاقَ بسند حسن. وروى مسلمٌ القصةَ في كتاب المغازي[١].

أجل، إن سيرة محمدٍ ﷺ تُعلِّمُنا - فيما تعلِّمنا - العيشَ لحياةٍ كريمةٍ وهدفٍ نبيل، إنها معاني ومواقفُ تشدّ النفوسَ بعيدًا عن الزّيفِ والمبالغةِ، ولابد وأن يتخفَّفَ المرءُ من زينةِ الحياة، ويتعالى على زُخرفها، ويوم أن كانت ملوكُ فارسَ والرومَ تتقلّب على الأرائك والسُّررُ، كان محمد ﷺ ينام على الحصير حتى أثّر في جنبِهِ، وكانت منازلُهم قصورًا فارهةً وجناتٍ وأنهارًا، ومحمد ﷺ اتخذ من حجراتِ أزواجِهِ مسكنًا له في الحياة وقُبِرَ في إحداهنَّ بعد الممات.

وعلّمنا محمدٌ ﷺ بسيرتِهِ العمليةِ الصبرَ على المِحَن، والتفاؤلَ في زمن الشدائدِ، والجِدَّ والعملَ، والثقةَ بنصر اللهِ رغم الزلازلِ والكُروبِ، وتشهد بطحاءُ مكةَ، وعَقَبةُ الطائفِ، وجَبَلُ أُحد ويومُ حُنين - وسواها من مواقع السيرةِ وأحداثِها - على صدق محمدٍ ﷺ والمؤمنين معه في الجهادِ والتضحيةِ والبلاغِ المبين.

وحَسْبُ الذين يعشقون البطولةَ بكافّةِ معانيها أن يقرؤوا في السيرة وسيجدون ما يروي ظمأهم. . إي وربِّي، إنّ موقفَ أهلِ الطائفِ من دعوةِ الهُدى يمثِّلُ نوعًا من بطولةِ محمدٍ ﷺ في الصبر وتحمُّل الأذى الجسديِّ، كيف والأذى النفسيُّ الواقعُ من أعظمها.

بطولةٌ أُخرى - في هذا الحدث - يوم أن ردّ على مَلَكِ الجبالِ ومنَعه أن يُطبقَ الأخشبين على قومهِ الذين أخرجوه، وبطولةٌ ثالثة تتمثَّل في نظرة النبيِّ ﷺ للمستقبلِ ويقينِه بانتصار الدعوةِ ولو في جيلٍ ما زالوا في الأصلاب، وهو ما عناه ﷺ: «**بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابِهم مَنْ يَعبدُ اللهَ وحدَه**» يقول هذا

---

(١) الصحيح المسند من فضائل الصحابة، مصطفى العدوي ٣٣٣، ٣٣٤، مع زيادة عليها.

وهو في موقفِه ذاك، لا يدري كيف يدخل مكةَ ثانيةً بعد أن خرج منها، وهل يأذنُ له ملأُ قريشٍ بدخولِها -وقد كان- فلم يدخلْها إلا في جِوارِ بعضِ رجالاتِها[1].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].



(١) الشامي أضواء على السيرة ص٢٠ بتصرف.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، جعلنا خيرَ الأُمم وآخرَها، وبعث لنا خاتمَ الأنبياءِ وخيرةَ المرسلين، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريك له، الفضلُ منه وإليه وهو العليمُ الحكيمُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، كان فضلُ اللهِ عليه عظيمًا، وفضلُه على أُمّتِه عظيمٌ أيضًا، اللهم صلِّ وسلّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

إخوة الإيمان: وسيرةُ محمدٍ ﷺ لقيتْ من المسلمين عنايةً مبكّرةً، فكانت أحداثُها تُروى في جيل الصحابةِ لمن لم يشهدها، فابنُ عباس رضي الله عنهما كان يُحدِّث العشيةَ كلَّها في المغازي، وكان كما يقول مَن حضر مجلسَه يُخصِّصُ جزءًا من يومِه لتدريس المغازي[1]، إلى حدٍّ قال معه عليُّ بنُ الحسين بنِ عليٍّ رضي الله عنهما: «كُنّا نُعلَّم مغازي النبيِّ ﷺ كما نُعلَّم السّورةَ من القرآنِ» ثم تطور الأمرُ - في جيل التابعين - فأمر الخليفةُ الراشدُ عمرُ بنُ عبد العزيز - عاصمَ بنَ عمرَ بنِ قَتادةَ أن يجلسَ في جامع دمشق فيحدّثَ الناسَ بمغازي رسولِ الله ﷺ ومناقبِ أصحابه.. كما روى ابنُ سعد في «طبقاته»[2].

واستمرت العنايةُ بالسيرة وأحداثِها تعليمًا وتأليفًا، حتى تجاوزَ الاهتمامُ بها المسلمين إلى غيرِهم، وفرضتْ بكمال أخلاقِ صاحِبِها وشمولِ أحداثها، على أحدِ الكتّاب الغربيين (مايكل هارث) إذْ ألّف كتابًا بعنوان «المائةِ الأوائل» أن يبدأ كتابَه بالرسولِ ﷺ على أنه الرجلُ الأولُ والمؤثّر في تاريخ الإنسانية كلِّها. ويقولُ لبني قومه: «إن اختياري (محمدًا) ليكون الأولَ في قائمة أهمِّ رجال

(١) انظر: مغازي عروة بن الزبير (ص٢١).

(٢) الجزء المتمم لتابعي أهل المدينة، تحقيق زياد منصور (١٢٨).

التاريخ قد يُدهشُ القرّاءَ - يعني في مجتمعِه الأمريكيِّ - ولكنه الرجلُ الوحيدُ في التاريخ كلِّه الذي نجح أعلى نجاحٍ على المستويين الديني والدنيويِّ[١].

عبادَ الله: والسؤالُ الذي يفرضُ نفسَه علينا -معاشرَ المسلمينَ في هذه المرحلة- ما مدى عنايتِنا بسيرة محمدٍ ﷺ وأصحابه؟ ما نصيبُها من مناهِجنا الدراسيةِ في المراحل الدراسية المختلفةِ وفي التخصصات الجامعيةِ، والدراساتِ العليا، وللجنسين: الذكورِ والإناثِ؟ ما حجمُ العنايةِ بها في المحاضراتِ العامةِ ودروس المساجدِ؟ وما مدى عنايتِنَا بها في تعليم أبنائنا في البيوتِ عَبْرَ حِلَقٍ أو أشرطةٍ أو كُتيباتٍ يفهمون لغتَها ويُدركون العبرةَ منها؟ هل تُعنى بها المؤسساتُ الإعلاميةُ؟ وتُخرجُ لها محلاتُ التسجيل أشرطةً صحيحةَ المعلومةِ، جيدةَ الإخراج، مشوقةً في العَرْضِ والاستنتاج.. إنها تستحقّ كلَّ عِناية، والحاجةُ إلى وصولِها للبيوتِ تفوق كثيرًا من الحوائجِ والموادِّ المُخرجةِ.. وهل ينبري لهذه المهمةِ مجموعةٌ من أهل الاختصاص في السيرة واللغةِ والأدب والإعلامِ.. حتى تتضافرَ الجهودُ وتتكاملَ التخصصاتُ.

إخوة الإسلام: والعنايةُ بالسيرة النبويةِ تعني العنايةَ بالرجل وتوجيهِ مواهبِه، وتعني العنايةَ بالمرأةِ وعلوِّ هِمّتِها وصَوْنِها وحِفْظِ كرامتِها، وتعني العنايةَ بالطفلِ وحُسْنَ تربيتِه، ذلكم لأن محمدًا ﷺ في سيرتِه وجَّه عنايتَه لهؤلاء جميعًا، فتخرّجَ من مدرسة النّبوةِ رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ لم يشهدْ لهم تاريخُ البشريةِ نظيرًا.

بل التفتَ محمدٌ ﷺ إلى الأمراءِ وأكرم كِرامَ القوم، ولم يُغفلِ الملوكَ والرؤساءَ من دعوتِه، فكاتبَهُم وراسلَهم، وسارت دعوتُه في القُرى والمدنِ الكبرى، يحملُها الدّعاةُ المخلصون، وتُجهّزُ لها البعوثُ والسرايا.

---

(١) انظر: صالح الشامي: «من معين السيرة» ص٦.

أمةَ الإسلام: والعنايةُ بالسيرةِ النبويةِ تعني - كذلك - تقديرَ القِيَم ورعايةَ الأخلاقِ الفاضلةِ، وتحقيقَ العَدْلِ، ومَنْعَ الظّلم، والعنايةَ بالدعوةِ إلى الله، ونشرَ العلمِ النافعِ، ورَفْعَ رايةِ الجهادِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ، وهي سبيلٌ لاجتماعِ المسلمينَ، ناهيةٌ عن الفُرقةِ والتنازعِ والشّحناءِ والبَغْضاءِ وسواها من رديء السلوكِ والأخلاق.

والسيرةُ - باختصار - هي الصورةُ المُشْرقةُ الواقعيةُ لتعاليم الإسلامِ، وليست مجرّدَ رواياتٍ تُسرَدُ، فهل نقرأُ هذه السيرةَ لِنَسْتلْهمَ هذه المعاني، ونُحقّقَ الأُسوةَ الحسنةَ التي قال الله عنها: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

عبادَ الله: وحينَ بلغ الكتابُ أجلَه، واستوفى محمدٌ ﷺ عُمُرَه المقدّرَ له، وكَمُل دينُ الله، وبلّغه محمدٌ ﷺ البلاغَ المبينَ، نزل بمحمدٍ ﷺ ما نزل بالأنبياءِ قبلَه، وانتقل إلى جِوارِ ربِّه في الرّفيقِ الأعلى، حتى وإن حَزِنَ المسلمون وتألَّموا لفِراقِه - وحقّ لهم أنْ يَألموا - وأجهشوا بالبكاءِ، وأظلمتِ المدينةُ في وُجوهِهم يومَ وَفاتِه، كما أشرقتْ في وجوههم يومَ قَدِمَها - في هجرته - مهاجرًا. . لكنّها سُنّةُ الله في خلقِه، تجلَّد المسلمون لها وواصلوا المسيرَ على سُنتِه وهَدْي سيرتِه، وحاربوا مَنِ ارتدوا على أعقابِهم - ممن لم يتمكّنِ الإيمانُ من قلوبهم، وهم يتلون قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

وظل هؤلاءِ الأصحابُ الكرامُ أوفياءَ للرّسالةِ التي جاء بها، فحملوها إلى

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

الآفاق يفتحون المُدن بـ«لا إله إلا الله» ويدعون الخلقَ إلى طاعةِ رسولِ اللهِ ﷺ فيما جاء به من عندِ الله.. وتلك مسئوليَّتَهُم ومسئوليةُ مَنْ جاء بعدَهم من المسلمين، حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها، وتلك هي البُرْهانُ على مَحبّة النبيِّ ﷺ، والشاهدُ على الانتفاع بسيرتِه.

ومع ذلك كلِّه ظلّ المسلمون في المدينةِ يتذكّرون حَبيبَهم، وكلّما ذُكّروا به تحركتْ مشاعرُهم. أخرج ابنُ عساكرَ بسند جيد -كما يقول الزّرقاني- وأنكره الذهبي: أن بلالًا رضي الله عنه توجّه للشام مجاهدًا، ثم قَدِمَ المدينةَ لرؤيا رآها في النبيِّ ﷺ، فأتى قبرَه وجعل يبكي، ثم التقى بالحسنِ والحسينِ رضي الله عنهما، فجعل يَضمُّها ويُقبِّلُهما، فقالا: نتمنى أن نسمعَ أذانَك الذي كُنتَ تؤذّنُ به لرسولِ الله ﷺ، فعلا سطحَ المسجدِ ووقَف مَوْقِفَهُ الذي كان يقفُ فيه، فلما قال: (اللهُ أكبر) ارتجّتِ المدينةُ، فلما قال: (أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله) ازدادت رجَّتُهَا، فلما قال: (أشهدُ أنّ محمدًا رسولُ اللهِ) خرجتِ العَواتقُ من خُدُورِهنَّ، وقالوا: بُعثَ رسولُ الله! فما رُؤِيَ يومٌ أكثرَ باكيًا ولا باكيةً بالمدينة بعدَه ﷺ أكثرَ من ذلك اليوم(١).

أيها المسلمون: لنقرأ سيرةَ محمدٍ ﷺ وأَصحابِه قراءةً واعيةً، فكم نحن محتاجون لهم، بل تحتاجُ البشريةُ كلُّها إليها، ففيها الخيرُ والفلاح والعِزّةُ والرِّفْعَةُ في الدّنيا والآخرةِ، وهي السبيلُ لخَلاص العالَم من وَيْلاتِه في الدّنيا، والطريقُ الأمِنُ للسلامة في الآخرةِ.

وإن من واجبِ المسلمينَ وحقوقِ غيرِهم عليهم أن تُتَرْجَمَ هذه السيرةُ إلى كلِّ لغةٍ، وتصلَ إلى كلِّ حيٍّ على هذه البسيطةِ، وكلُّ تقصير في هذه المهمةِ سُيسأَلُ

(١) شرح الزرقاني على المواهب القسطلاني ٣ (٣٧٠)، سير أعلام النبلاء ١/٣٥٨، وقال الذهبي إسناده لين وهو منكر.

عنه المسلمونَ.. فَدينُهم دينُ الحقّ، ورسولُهم خاتمُ المرسَلين، وبه انقطع الوحيُ من السماء، ولكن قبل أن نُترجمَ السيرةَ النبوية إلى لغاتِ الآخرينَ، لابُدّ أن نترجِمَها في واقع سلوكِنا، حتى يتحوّل المسلمُ إلى سيرةٍ تتحرّكُ على الأرض، وهذا، وإن وقف دُونَه ضَعْفُ النفوس وتداني الهِمَم، إلا أنّ اللهَ وعَدَ على مجاهدةِ النفس خيرًا وما لا يُدرَكُ كلُّه لا يُتركُ جُلَّه، اللهم هَيّئْ للمسلمين من أمرِهم رَشَدًا، وارْزُقهم مَحبّةَ الرسولِ ﷺ على الوجهِ المشروعِ، والدعوةَ لدينِه، والسيرَ على هَدْيِهِ والعملَ بسيرتهِ.



المخدّرون المُستهزئون(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمدَ لله نحمده ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذ باللهِ من شرورِ أنفُسِنا ومن سيئات أعمالِنا.

اتقوا اللهَ معاشرَ المسلمين وراقِبوه، فبالتقوى تصلُح أمورُ الدّين والدُّنيا، وبالتقوى يستقيمُ الفردُ والمجتمعُ.. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٢)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٤).

أيها المسلمون: لا غَرابة أن تُحاصَرَ الأمةُ الإسلاميةُ من قِبَلِ الأعداءِ، فذاك جزءٌ من العَداوةِ والبغضاء، وسعيٌ لتحقيقِ العَنَتِ كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٥) ولا غرابةَ حين يسعى اليهودُ والنصارى أو الشيوعيون أو الوثنيون أو المنافقون للعَبَثِ بهويةِ الأمةِ، ومحاربةِ فكرِها وتشويهِ أخلاقِها، والاستهانةِ بقِيَمِها، فذلك سعيٌ منهم لسَلْكِ الأمةِ في مسلكِهم، والله يقول: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾(٦)، ويقول: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾(٧). ولكن المستغرب حقًا حين يتسلّلُ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة ١٩/ ١/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة الطلاق، الآيتين: ٢، ٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتين: ٧٠، ٧١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

(٦) سورة النساء، الآية: ٨٩.

(٧) سورة الممتحنة، الآية: ٢.

نفرٌ من أبناءِ المسلمين -بعلمٍ أو بجهل- إلى عقائد الأمةِ وأخلاقِها وثوابِتها ومصادرِ التشريع فيها.. ساخرًا مستهزئًا.. أو مشوّهًا ظالمًا، أو مُستهينًا مستحقِرًا.

وما زال المسلمون بين الفَيْنَةِ والأخرى يسمعون عن أشخاصٍ يسخرون بشيء من شعائر الدين، أو يَلمِزون المطَّوِّعين من المؤمنين، أو يقلِّلون من شأن السُّنةِ النبويةِ، أو يُطلقون لألسنتهم العَنَانَ في الطعنِ بخِيار الأمةِ من الصحابةِ أو التابعين أو العلماء الربّانيين، أو يتحدَّثون عن القِيمِ الإسلاميةِ، والحدودِ الشرعيةِ، وأحكامِ الدين القطعيةِ، على أنها قضايا مطروحةٌ للنقاشِ ولهم الخِيَرَةُ في قَبُولِها أو رفضِها، والله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ﴾[1].

إن الاستهزاءَ بشيءٍ من آياتِ اللهِ أو رسلهِ أو المؤمنينَ باللهِ لإيمانهم.. كفرٌ صُرَاحٌ ورِدّةٌ عن الإسلام، وكما قال تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْۚ﴾[2].

حتى وإن ظن ذلك المستهزئُ عند نفسِه أنه لم يأتِ كفرًا، كما قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ رحمه الله في تعليقه على هذه الآية، فدلّ على أنهم لم يكونوا عند أنفسِهم قد أتوا كُفرًا، بل ظنوا ذلك ليس بكفر، فبيّن أن الاستهزاءَ باللهِ وآياتهِ ورسولِه كفرٌ، يُكفّر به صاحبُه بعد إيمانه[3].

عبادَ اللَّهِ: ومن أواخِرِ ما تَسامَع الناسُ به - في مجال السُّخريةِ بآياتِ اللهِ - الغناءُ بالقرآن، وتلحينُ آياتِه على أنغام الموسيقى وآلاتِ الطّرَبِ، ولم يكن هذا غلطةَ ساخرٍ واحدٍ، بل سَرَى ذلك في عدَدٍ من أصحابِ هذه البضاعةِ المُزْجَاةِ، وتناقلت بعضُ الصُّحفِ أسماءَ عددٍ من هؤلاءِ الساخرين، ونَتَج عن هذا نظرةٌ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦. (٢) سورة التوبة، الآية: ٦٦.
(٣) الفتاوى ٧/ ٢٧٣.

مَشُوبَةٌ بالحَذَرِ والاستغراب لدى عُمومِ المسلمين، الذين يَحمِلون غيرةً على حُرُماتِ الله، سواءً كانوا ملتزمين أو غيرَ ملتزمين بجميع شعائرِ الدِّينِ، لهؤلاء المُغنيّنَ والمغنياتِ.

إن الغناءَ -بحدِّ ذاتِه- محرّمٌ شرعًا، كيف لا! واللهُ يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١].

سُئل ابنُ مسعود رضي الله عنه عن ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ في هذه الآيةِ، فقال: هو الغِناءُ، واللهِ الذي لا إله إلا هو -يُردّدها ثلاثًا- وكذا قال ابنُ عمرَ، وابنُ عباس وجابرٌ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسنُ، وسعيدُ بن جُبَير، وقَتادةُ، والنَّخَعيُّ وميمونُ بنُ مِهْرانَ، ومَكحولٌ[٢].

وقال ابنُ القاسم: سألت مالكًا عن الغناءِ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[٣] أفحقٌّ هو؟[٤].

وقال القرطبيُّ عند تفسير هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ هذه إحدى الآياتِ الثلاثِ التي استدل بها العلماءُ على كراهةِ الغناءِ والمَنْع منه، والآيةُ الثانية قولهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾[٥] قال ابنُ عباس: هو الغناءُ بالحِمْيريّة: اسْمِدي لنا، أي: غنِّي لنا. والآية الثالثة قولهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[٦].

قال مجاهدٌ: الغناء والمزامير[٧].

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٦.
(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٥١، ٥٢.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣٢.
(٤) السابق ١٤/ ٥٢.
(٥) سورة النجم، الآية: ٦١.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.
(٧) تفسير القرطبي ١٤/ ٥١.

وفي «صحيح البخاري» في كتاب الاستئذان «باب: كل لهو باطلٌ» إذا شَغَله عن طاعةِ الله.. ثم ساق الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

قال ابنُ حَجر: يشمل هذا النهيُ المُشغِلُ عن طاعةِ الله ما كان مأذونًا بفعله أو منهيًّا عنه، كمن اشتغل بصلاةٍ نافلة أو تلاوةٍ أو ذِكْر أو تفكّر في معاني القرآنِ مثلًا، حتى خرج وقتُ الصلاةِ المفروضةِ عَمْدًا، فإنه يدخل تحت هذا الضابط، ثم قال: وإذا كان هذا في الأشياء المُرَغّبِ فيها والمطلوبِ فِعلُها، فكيف حالُ ما دُونَها؟[1]

وترجمةُ البخاري هنا إشارةٌ منه إلى حديثٍ رواه أحمدُ والترمذيُّ وحسّنه أبو داودَ، والنسائي، وصححه ابنُ خزيمةَ والحاكمُ من حديث عقبةَ بن عامرٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إنّ اللهَ عز وجل ليُدْخِل بالسَّهم الواحدِ ثلاثةَ نَفَرٍ الجَنّة**.. إلى قوله - وهو الشاهدُ هنا - «**كلُّ لَهْوٍ باطلٌ، ليس من اللّهوِ محمودٌ إلا ثلاثةٌ: تأديبُ الرجلِ فرسَه، وملاعبتُه أهلَهُ، ورَمْيَه بقوسِهِ ونَبْلِهِ، فإنهنّ من الحقِّ**»[2].

ومن تلميح البخاريِّ إلى تصريحهِ، فقد ساق الحديثَ عن النبيِّ ﷺ قال: «**ليكونَنّ من أُمتي أقوامٌ يَستحلّون الحِرَ والحَريرَ والخمرَ والمعازِفَ**»[3].

والمعازفُ هنا - كما قال شُرّاح الحديثِ - آلاتُ الملاهي والغناء.

وتأمّل هنا قوله ﷺ: «**يستحِلُّون**» فهو مؤشرٌ إلى حُرمتها، وتأمّل كذلك كيف قُرِن تحريمُ «المعازف» مع تحريم الزِّنا وهي «الحِر» والحريرَ والخمر.. فماذا يُقال في «الغناء» بعد هذا؟

---

(١) الفتح ١١/ ٩١.

(٢) انظر «جامع الأصول» لابن الأثير ٥/ ٤١، ٤٢، و«الفتح» لابن حجر ١١/ ٩١.

(٣) أخرجه البخار ي (٥٥٩٠)، الفتح ١٠/ ٥١ وفي مواطن أخرى.

إخوة الإسلام: وتردّدت عباراتُ السّلَفِ في وصفِ المُغنّين بأوصافٍ مُشينة، فمرةً يُوصَفون بالسّفَه، ومرةً بالفسوق، فالإمامُ مالك رحمه الله قال حين سُئِلَ عن الغناء في المدينة: إنما يفعلُه عندنا الفُسّاق[1].

وعن القرطبي قال: الاشتغالُ بالغناء على الدّوام سَفَهٌ تُرَدّ به الشهادةُ[2].

عبادَ الله: وعن أثر الغناءِ على القلوبِ قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ رحمه الله: «ومَن كان له خبرةٌ بحقائقِ الدِّين وأحوالِ القلوبِ، ومعارِفِها وأذواقِها ومواجيدِها، عَرَف أن سماعَ المُكاءِ والتّصْديةِ لا يَجلبُ للقلوبِ منفعةً ولا مصلحةً، إلا وفي ضمن ذلك من الضّررِ والمفسدةِ ما هو أعظمُ منه، فهو -الغناء- للروح كالخمرِ للجسد، يفعل في النفوسِ فِعْلَ حُميا الكؤوس، ولهذا يُورّث أصحابَه سُكرًا أعظمَ من سُكر الخمر، فيجدون لَذّةً بلا تمييز، كما يجدُ شاربُ الخمر، بل يحصل لهم أكثرُ وأكبرُ مما يحصل لشاربِ الخمرِ، ويصدُّهم عن ذِكْرَ اللهِ، وعنِ الصلاة أعظمَ مما يَصُدُّهم الخمرُ، ويُوقع بينهم العداوةَ والبغضاءَ أعظمَ من الخمر، حتى يَقتلَ بعضُهم بعضًا من غير مَسٍّ بيدٍ، بل بما يقترن بهم من الشياطين[3].

إخوة الإيمانِ: ومَن يقرأُ أو يسمعُ عن حياة ما يُسمّى (بالوسطِ الفني) يجدُ هذه الآثارَ.. ويسمعُ عن بعضِ حفلاتِهم من الاختلاطِ مع النساءِ.. واختلاطِ المسلم بغيرِه من الكُفَّار والفُسّاق.. وما يُسمّى بالليالي الحمراءِ، وكلُّها صَخَبٌ وكأسٌ وغانيةٌ، إلى غير ذلك من ممارساتٍ لا أخلاقيةٍ، يتعفّفُ القلمُ عن ذِكْرِها وتُنزَّه بيوتُ اللهِ من التصريحِ بها.. وكلُّ ذلك شاهدٌ على آثارِ الغناءِ وتأثيره على متعاطِيهِ.. ممّا نسألُ اللهَ لنا ولإخواننا المسلمين السلامةَ منه ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/٥٥.
(٢) السابق ١٤/٥١.
(٣) الفتاوى ١/٥٧٣، ٥٧٤.

عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾[1].



(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، أمَرَ بالعَدْلِ والإحسان، ونهى عنِ الفحشاءِ والمُنْكَر، وأشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، يُمهِل ولا يُهمِل، وأخْذُه أليمٌ شديدٌ، وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، دعا الأمةَ إلى معالي الأمورِ، ومَكارمِ الأخلاق، ونهاها عن الفواحشِ والآثام، اللهمّ صلّ وسلّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: وأهلُ الغناءِ والمِزْمار، وأصحابُ السهراتِ والرّقصاتِ هم مُخدِّرون للأمة، ومُعوِّقون لمسيرتِها نحو مَراقي العِزّةِ والكرامةِ، وكم تسلَّل العدوُّ إلى ديار المسلمين وهم غارقون في شُربِ الكأس ومُخَدّرون في سماع أنغام الخِلِّ والحَبيب..؟! وكذلك ضاع الأقصى، وأرسلَ اليهودُ أسرابَ الطائراتِ تقصفُها في وقتٍ كنّا نُرسِلُ ألحانَ الغناءِ ونتمايلُ، وكأنّ نَصرَنا فوقَ الثُّريا - وحلّتِ النكبةُ لعدّة عواملَ، كان من بينها لَهْوُنا حين جَدّ الآخرون، وتصويرُ الهزيمة والضّياع نصرًا، واستفاق الناسُ على أَصْدَاءِ الحقيقةِ هَزيمةً وضَياعًا وتشرُّدًا، وصاغ شاعرُ الأقصى مشاعرَ الأسى عَبْر قصيدةٍ أسماها «خَدِّريهم يا كوكبَ الشرق» ومما قال فيها:

كَوكبَ الشّرقِ لا تَذُوبي غَراما ... ودَلالًا وحُرقةً وهُياما

لا ولا تَنفُثي الضَّياعَ قصيدًا ... عبقريًا أو تُرسِلي الأنغاما

فَدِماءُ الأحبابِ في كلِّ بيتٍ ... تَتنَزّى وتبعثُ الآلاما

وجراحُ الأقصى جِراحُ الثّكالى ... ودموعُ الأقصى دُموعُ اليتامى

إلى قوله:

مَنحوكِ الإعجابَ يا وَيْحَ قومي ... وعلى الصَّدْرِ علّقوكِ الوِسَاما

نـاولـيـهـم مـن راحَـتَـيْـكِ كُـؤوسًـا ... وامْنَحِيهم من ناظِرَيكِ ابتساما

واجـعـلـي الـفَـنَّ ردّةً وضَـيـاعًـا ... لا أحـاسـيـسَ أُمـةٍ تـتـسـامـى

وَدَعِـيـهـم فـي كـلِّ وادٍ يَـهـيـمـون ... سُـكـارى ونُـكّـسـي الأعـلامـا

خَدِّريهم باللّحْنِ يا كوكبَ الشّرق ... وَصُوغي من لَحْنِكَ استسلاما[1]

عبادَ اللَّهِ: وماذا حقّق هؤلاء المُغَنون والمُغنيات للأمة من أمجاد.. في زمنٍ بات العدوُّ يُحاصرُ المسلمين، وينهبُ خيراتِهم، ويَعبثُ بقيَمِهم ويُشوِّه أخلاقَهُم.. إنهم في وادٍ وقضايا الأمةِ وجهادُ المسلمين مع أعدائهم في وادٍ آخرَ.

فكيف إذا تطاول هؤلاء المُغنون والمغنيات على القرآن، فلحّنوه على أنغام الموسيقى، إنها كارثةٌ ومصيبة تُضاف إلى مَصائِبهم، ولكنْ من رحمة اللهِ أن هيّأ للمسلمين - قديمًا وحديثًا - من يُنافحُ عن الدّين والحُرماتِ، ويكشفُ عَوَرَ وانحرافَ هؤلاء المغنين والمغنيات، ويحذِّر الأمةَ من شرورهم، ولا عُدِمَت الأُمةُ من أمثالِ هؤلاء، ولكن المصيبةَ حين يَنْبَري نَفَرٌ من المسلمينَ في المقابل للدفاعِ عن هؤلاء والله يقول: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[2]، ويَرُوعُكَ الأمرُ حين ترى أعمدةَ الصّحفِ وبها يَعُبّ نَفَرٌ من الكُتّاب مدافعين، وربما وصفوا هؤلاء بالنّزاهةِ والعدالةِ، ووصفوا من كَشَفَ أمرَهم وحذّر الأُمةَ من مَكرِهم بالمغالاةِ والتسرُّع.. أو نحوِها من عباراتٍ أخرى[3].

أيها المسلمون، أيها المغنونَ، أيها المستمِعون للأغاني: ما خُلقتم في هذه

---

(١) يوسف العظم، ديوان «في رحاب الأقصى» ص٢١٣، عن محمد الحمد التوبة وظيفة العمر (٢٣٥).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٣) انظر «جريدة النخبة» عدد (١٣٦) في ١٣/ ١/ ١٤٢٢هـ.

الحياةِ عَبثًا، ولن تُترَكوا هَمْلًا، راجعوا أنفُسَكم وتهّيئوا لِمَا أمامكم، وانظروا في الزاد الذي تَرِدُون به على ربّكم. . إن حُبّ سماعِ أصواتِ الغناءِ، وحُبَّ آي القرآن في قلب امرئٍ لا يجتمعان؟ وإن الغناءَ رُقيةُ الزنا، وأَيُكم يُطيق أن يُصَبَّ في أُذنيه الآنُكُ يومَ القيامة (الرصاص المُذاب) وأيّكم يستعيضُ بسماع الغناءِ في الدُّنيا عن سماع الروحانيين في الآخرةِ، والروحانيون - كما قيل - قُرّاءُ أهلِ الجنة[١] أيّكم يَرْغَبُ سماعَ أصواتِ الحُمْقِ والفُجور؟ وهل عَلِمتم أنّ صوتَ الغناءِ منها، جاء في «صحيح سنن الترمذي» قولُه ﷺ: **«ولكن نُهيتُ عن صوتيْنِ أَحمقيْنِ فاجِرَيْنِ صوتٍ عند مصيبةٍ، خمشِ وُجوهٍ وشقِّ جيوبٍ، وَرنّةِ الشيطان»**[٢].

وفي رواية **«صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما: صوت مزمار ورنّةُ شيطانٍ عند نَغمةْ ومَرَح، ورنّةٌ عند مصيبةٍ: لطمُ خدودٍ وشقُّ جيوبٍ»**[٣].

يا عبدَ الله: كيف بك بالجواب عند السؤالِ عما سَمِعَتْه أُذناكَ في الدُّنيا والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٤].

إن بابَ التوبةِ مفتوحٌ، وربُّنا كريم ونداؤه مستديمٌ ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥].

وإذا تاب غيرُ المسلمين ورجعوا إلى ربِّهم، أفليسَ المسلمون أولى بالتوبةِ والرجوع، وبقدرِ ما نسمعُ من تطاوُلِ المغنيين أحيانًا - نسمع عن توبةِ آخرين، وكم نَسعدُ ونفرحُ لتوبةِ هؤلاء، أو لتوبة غيرِهم ممن بُلي بسماعِ الغناء، ولو

(١) انظر «تفسير القرطبي» ١٤/ ٥٣، ٥٤.

(٢) صحيح سنن الترمذي ١/ ٢٩٥، ح(٨٠٤).

(٣) ذكره القرطبي وعزاه إلى الترمذي وغيره، التفسير ١٤/ ٥٣.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٥) سورة النور، الآية: ٣١.

نشرت وسائلُ الإعلام عن كلّ تائبٍ لرأيتم من ذلك عَجَبًا، ولقد كان المُغني البريطاني الشهير (كات ستيفنز) واحدًا من هؤلاء التائبين والداخلين في الإسلام على إثر رحلةٍ شاقةٍ في الحياة مِلْؤُها الضّجَرُ والضجيجُ الفارغُ.. وحين تاب ودخل في الإسلام قال: الحمدُ للهِ.. لقد وُلِدْتُ الآن وعرفتُ إلى أين أسيرُ.. لقد انصرفتُ عن الإسلام فترةً بسبب تشويهِ أجهزة إعلامِنا الغربيّ، بل حتى أجهزةِ الإعلام الإسلامية، فكثيرًا ما تُشوِّه الحقائقَ الإسلاميةَ.. هكذا قال هذا التائبُ ثم ختم بقوله: وأما الملايينُ التي كسبتُها من الغناء فوهَبْتُها كلّها للدعوة الإسلامية[1].

إن في ذلك لعبرةً، وفيما سمعتم أو قرأتم من نصوصٍ على الغناء لآياتٌ موقظة. وما فتئَ علماءُ الأثرِ - قديمًا وحديثًا - يُفتون بتحريم الغناءِ ويحذّرون من سماعِه - فضلًا عن ممارسته - ودَعُوكم من فتاوى المترخِّصين في الغناء - قديمًا وحديثًا - ومن تَتبَّع الرُّخَصَ هَلَك.

واحذروا مطارحاتِ ومناقشات أصحاب الأهواءِ والشُّبهاتِ والشهواتِ، المرقِّقين للدين.. والخائضين في أكثر من قضية للإثارةِ والبلبلة.. وإلا فأين هؤلاء من مناقشاتِ العلمانيين فيما يَطرحون.. وأين هم مما يُثيرُه أعداءُ الإسلام من شُبَهٍ في الإسلام، وسبّ وسخريةٍ بالرسولِ والقرآن.. أين هم من المساهماتِ الإيجابية في قضايا الأمةِ الكبرى، وسَط تحدّيات اليهود والنصارى والوثنيين وأصحاب العقائد والنِّحَل الباطلةِ؟ أين هم من الدفاع عن المسلمين المستضعَفين؟ وأين هم من نصرة المظلومين؟ هل انحسرتِ القضايا والمساهماتُ في قضايا تُفرّقُ ولا تجمَعُ، وتُثيرُ ولا تُصلِحُ.. إنها الفتنُ

(١) محمد الحمد، التوبة ص٣٠٣.

والبلبلة، نسأل اللهَ لنا ولإخواننا العافيةَ والسلامةَ منها.

واحذروا -معاشرَ المسلمين جميعًا- من البلايا والمشتبهات ومَن وَقعَ في الشُّبُهاتِ وقعَ في الحَرام، كالراعي يَرعى حول الحِمَى، ويوشك أن يرتع فيه.



وقفاتٌ حول ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾[١]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمين أغنى وأقنى، وأماتَ وأحيى. وله الحكمُ في الآخرةِ والأُولى، وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ما من دابةٍ في الأرضِ إلا هوَ آخذٌ بناصيتها، وعليه رزقُها، وبيده مبدأُها ومنتهاها، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، أصابته الضراءُ، وتوفرت له السراءُ، فصبرَ وشكرَ وكانَ عبدًا شكورًا.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلين، وارضَ اللهمّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعينَ ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣].

أيّها المسلمونَ: يُخيلُ لبعضِ الناسِ أن الجوعَ لا يكونُ إلا في أزمانِ الفقرِ، وأن الخوفَ لا يكونُ إلا مع الضعفِ، وأن المرضَ لا يكونُ إلا في الحياةِ البدائية.

ولكن أحداثَ الزمانِ تثبتُ أن الجوعَ قد يَحصلُ في زمنِ الغِنى، بل ربما

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٢/ ١/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة النساء، الآية: ١. (٣) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

تزامنَ الفقرُ مع إهدارِ الثرواتِ في البحر، وإحراقِها في البرِّ وربما وقعَ الخوفُ للأغنياء، وكم يشهدُ الناسُ انتشارَ الأمراضِ وتنوُّعَها في زمنِ الطبِّ ودقةِ تخصصاتِ الأطباءِ، أجلَ، إنها الحكمةُ الربانيةُ، والبلوى تَحِلُّ وترتحلُ، وتنتقلُ عبرَ الأجيالِ والأممِ، لتؤكِّد وعدَ الرحمنِ في القرآن: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وهنا وحولَ هذه الآيةِ أقفُ الوقفاتِ التاليةَ:

أولًا: (ما نوعُ هذه البلوى في الآية؟)

إنها شاملةٌ للخوفِ من الأعداء، والجوعِ، وذلكَ بقلةِ الطعامِ أو فسادِه، وذهابِ الأموالِ أو بعضِها، وذلكَ بجوائحَ سماويةٍ أو غرقٍ، أو ضياعٍ، أو اعتداءِ الظلمَةِ على الأموال، وموتِ الأصحابِ والأقاربِ والأحبابِ أو مرضهم، وتلك نقصُ الأنفسِ وقلةُ البركاتِ في الثمارِ، فلا تُغِلُّ الحدائقُ ولا تُنتِجُ المزارعُ، وذلكَ نقصُ الثمرات[1].

الوقفة الثانية: (وثمةُ بلايا وأمراضٌ أخرى):

ألسنا نشهدُ في هذه الأيام ونسمعُ عن أمراضٍ لم نسمعْ بها من قبلُ، وما أن ينتهي مرضٌ إلا ويبدأ آخرُ، وهكذا من مسمياتٍ وأمراضٍ لم نسمع بها من قبلُ.. ومن أمراضِ الأورامِ الخبيثةِ المنتشرةِ والمزعجة، إلى مرضِ حمّى الوادي المتصدعِ المرعبة.. إلى الحُمَّى القُلاعيةِ الجديدة.. وهذه الحُمى الجديدة وحسبَ تصريحِ وزيرِ الزراعةِ، فإن عددَ البؤرِ المَرَضيةِ المُسجلةِ لهذه الحُمى إلى نهايةِ العامِ المنصرم (٣٠/ ١٢/ ١٤٢١هـ) بالمملكة قد بلغت ستًا وأربعينَ حالةً، وتنتشرُ حسبَ تصريحِ المصدرِ في مناطقِ المملكةِ ومدنِها،

---

(١) تفسير ابن كثير، والسعدي للآية (١٥٥) من سورة البقرة.

كالرياض والشرقية، ومكةَ والطائفِ والمدينةِ والحدودِ الشماليةِ، والقصيمِ، وعسير، وحائل[١].

إن من البلايا أن يُصابَ الناسُ بالرعبِ في طعامهم، ومن المحنِ أن يتوفَر الغذاءُ ثم لا يستفيدُ الناسُ منه؛ خشيةَ ما ينتقلُ منه من أمراض.. وإذا كانت الشائعاتُ بالأمسِ تدورُ حولَ أكلِ الدجاجِ وما يخلِّفه من أمراضٍ نتيجةَ سوءِ التغذيةِ ونوعِ الطعامِ الذي تأكله.. فها نحنُ اليومَ نتخوفُ من اللحومِ نتيجة الحمى الملابسة لها.. سواءٌ منها المتصدعةُ أو القلاعية، فهلَ يفِرُّ الناسُ من هذا إلى لحومِ البحرِ ويكتفونَ بالأسماك؟ لا مفرَّ من قدرِ الله.. كيف وقد نُشرَ في الصحفِ مؤخرًا: السرطانُ يصلُ الأسماكَ.. وفي تصريحِ المتخصصينَ في علومِ البحارِ قالوا: إنهم اكتشفوا السرطانَ في سمكةٍ وزنُها خمسُ كيلو[٢].

الوقفة الثالثة: عبادَ الله (تنبيهٌ لا تخويفٌ)

ومع أهميةِ الحيطةِ والحذرِ والأخذِ بالأسبابِ المشروعة، فأهمُّ من ذلك اليقينُ والتوكلُ على اللهِ، وحين نوردُ هذه الأخبارَ والأحداثَ لا من أجل التخوّفِ والهلعِ.. وإنما لأخذِ العبرةِ وللتنبيه إلى ضرورةِ العودةِ إلى اللهِ ومراجعةِ النفس، فتلك بلايا ومحنٌ - وغيرُها كثيرٌ - يُمتحنُ الناسُ بها ليرجعوا إلى خالقِهم وليراجعوا أعمالَهم، وتأملوا نهايةَ قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣]، وتأملوا نهايةَ الآيةِ التي نحن بصددِ الحديث عنها: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٤].

---

(١) جريدة الجزيرة ٢/ ١/ ١٤٢٢هـ.
(٢) عكاظ ٢/ ١/ ١٤٢٢هـ.
(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

الوقفة الرابعة: (من أسرارِ المصائبِ ونتائجِها):

إن الله تعالى يبتلي الناسَ بالسراءِ والضراءِ ليرى -وهو أعلم- شكرَهم وصبرَهم، وما دامَ الحديثُ على البلاءِ، فقد قالَ العارفون: إنّ من أسرارِ ذلك:

أ- أن المسلمين إذا ابتُلوا فصبرَوا عزّتْ عقيدتُهم في نفوسِهم، ثم انتقلت هذه العزةُ إلى أعدائهم، إذ يقولونَ: لولا ما في هذه العقيدةِ التي ينتمونَ لها من خيرٍ لما صبروا على تكاليفها، ولا قَبِلُوا هذا البلاءَ، وقد ينقلبُ المعارضون للعقيدةِ باحثينَ عنها وعن أسرارها.

ب- ومن أسرار البلاءِ -كذلك- أن يَصلُبَ عودُ أصحابِ العقيدةِ ويقوى، إذ المحنُ والبلايا تَستخرجُ مكنونَ القُوى، وما عندَ العبدِ من طاقة، وتفتحُ للقلوبِ منافذَ من الخيرِ ما كان لها أن تظهرَ إلا تحتَ مطارقِ الشدائدِ والمحنِ.

ج- وسرٌّ ثالثٌ مهمٌّ هو الالتجاءُ إلى اللهِ وحده حينَ تَهتزُ الأسنادُ كلُّها وتتوارى الأوهامُ وهي شتّى، ويخلو القلبُ إلى الله وحدَه، لا يجدُ سندًا إلا سندَه، ولا مخرجَ ولا فرجَ إلا من عندِه(١).

وتلك وربِّي تربيةٌ للنفوسِ في زمنِ الشدائدِ لا يعقلُها إلا من صبرَ ورجعَ إلى ربِّه، أولئكَ يُبَشّرون بالجزاءِ في الدنيا قبلَ الآخرة ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾(٢).

الوقفة الخامسة: (ما جزاءُ الصبرِ على البلاء؟)

والجواب: تجدونَ ذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾(٣) قال بعضُ المفسرين: أَمَنَةٌ من العذابِ، وقال عمرُ رضي الله عنه: نعم

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٤٥ عند تفسير الآية السابقة.

(٢) سورة البقرة، الآيتين: ١٥٥، ١٥٦. (٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

العِدْلانِ، ونعمتِ العلاوة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾: فهذانِ العدلان، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة.. والعدلان: ما يوضعانِ على جانبيّ البعير، والعلاوةُ بينهما.. والمعنى: أُعطوا ثوابَهم وزيدوا أيضًا[١].

هنا عبادَ الله تتحولُ البلايا إلى عطايا، والمحنُ إلى مِنح.. لكن دونَ ذلكَ الصبرُ والتقى، واليقينُ والتوكُّل، والاحتسابُ والشكرُ، وتلكَ وأمثالُها من معانٍ قيمةٍ لا يلقّاها إلا ذو حظٍّ عظيم. وذو علمٍ بأسرارِ المصائبِ ونتائجها.

الوقفة السادسة: (من أسرارِ هاتينِ الآيتينِ ودروسِهما):

قال السعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: اشتملت هاتانِ الآيتانِ على توطينِ النفوسِ على المصائبِ قبلَ وقوعِها لتخفَّ وتسهُلَ إذا وقعت، وبيانِ ما تُقابَلُ به إذا وقعت وهو الصبرُ، وبيانِ ما يُعينُ على الصبرِ وما للصابرينَ من أجر، وإن هذا الابتلاءَ سُنةٌ من سننِ الله[٢].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[٣].

❁ ❁ ❁

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٨٥ عند الآية.
(٢) تفسير السعدي ١/ ١٨٢، ١٨٣.
(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، عظّمَ أجورَ الصابرينَ فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وما يَعْزُبُ عن ربّك من مثقالِ ذرةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ ولا أصغرَ من ذلكَ ولا أكبرَ إلا في كتابٍ مبين، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله، ابتلاه ربُّه فصبرَ وشكر، وخطّ للأُمةِ منهجَ الاستقامةِ محفوفًا بالصبرِ والشكر.

وهو القائل «**عجبًا لأمرِ المؤمنِ، إن أمرَه كلَّه له خيرٌ، إن أصابتْهُ سَرّاءُ شكرَ، فكانَ خيرًا له، وإن أصابتْهُ ضراءُ صبرَ فكان خيرًا، وليسَ ذلكَ لأحدٍ إلا للمؤمن**». اللهمّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ.

إخوةَ الإيمان..

الوقفة السابعة: (حاجتُنا إلى الصبرِ):

ما أحوجَنا إلى الصبرِ في هذه الحياةِ بحلوها ومُرِّها، وعاجِلِها وآجلِها، إننا بحاجةٍ إلى الصبرِ على طاعةِ الله بتكاليفِها وديمومتِها، وحُسنِ أدائها، وانتظار جزائها من اللهِ، وبحاجةٍ إلى الصبرِ عن معاصي اللهِ بإغراء المعصيةِ وبريقِها الخادع.. وضعفِ النفوسِ أمامَ مغرياتِها ووسوسةِ شياطينِ الإنسِ والجنّ لاقترافِها.

وبحاجةٍ إلى الصبرِ على أقدارِ اللهِ المؤلمة.. بمرارتِها ومفاجآتها وتتابُعِها.

قال العالِمُون: الصبرُ صبران: صبرٌ عن معصيةِ اللهِ، فهذا مجاهدٌ، وصبرٌ

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

على طاعةِ الله، فهذا عابدٌ، فإذا صبرَ عن معصيةِ الله، وصبرَ على طاعةِ الله: أورثه اللهُ الرضاءَ بقضائه، وعلامةُ الرضاء سكونُ القلبِ بما وردَ على النفسِ من المكروهاتِ والمحبوبات.

وقال بعضُهم: حَدُّ الصبر ألا تعترضَ على التقدير، أما إظهارُ البلوى على غير وجه الشكوى، فلا يُنافي الصبر، فقد قالَ اللهُ عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[1]، مع أنه قال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾[2].

الوقفة الثامنة: (البلايا مع الصبرِ مكفراتٌ):

إن من رحمةِ الله بعباده أن يبتليَهُم ليرفعَ درجاتِهم، ويكفرَ عنهم سيئاتِهم.. وكم يتألمُ المرءُ لضُرٍّ نزل به، واللهُ تعالى أرادَ الخيرَ له، وكم يحزنُ الإنسانُ لشيءٍ فاتَه، واللهُ يُريدُ أن يُعوضَه خيرًا منه.. فهل ندركُ السرَّ، وهل نحتمي بالصبرِ مع احتسابِ الأجر؟

أخرج مسلمٌ في «صحيحه» من حديث أبي سعيدٍ الخدري وأبي هريرةَ رضي الله عنهما، أنهما سمعا رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما يصيبُ المؤمنَ من وَصَب، ولا نصبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ، حتى الهمَّ يُهِمُّهُ إلا كُفِّرَ به من سيئاته**»[3].

وفي الحديثِ الآخرِ قال ﷺ: «**ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِه، وولدِه، ومالِه، حتى يَلقى الله وما عليهِ من خطيئة**»[4].

الوقفة التاسعة: (البلايا بين أهلِ الإيمانِ وأصحابِ الفجور):

وهنا وقفةٌ وتنبيهٌ، فقد يُخالجُ النفسَ شيءٌ حين يرى المسلمُ المصائبَ تتابعُ

---

(١) سورة ص، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣. تفسير القرطبي ٢/ ١٧٤.

(٣) مختصر المنذري (١٧٨٩).

(٤) أخرجه الترمذي وحسنه «جامع الأصول ٩/ ٥٨٤».

على أهلِ الإيمان، بينما يُرى أهلُ الباطلِ والفجورِ والنفاقِ في عافيةٍ وسلامةٍ منها ظاهرًا.. وهنا لا بدَّ للمسلمِ أن يستيقنَ أن العطاءَ ليس علامةَ الرضاء، وأن البلاءَ ليس دليلَ الغضب، فقد جاءَ عن النبيِّ ﷺ قوله: «**إن عِظم الجزاءِ مع عِظم البلاءِ، وإن اللهَ تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فلهُ الرِّضا، ومن سَخط فله السخط**»(١).

وفي حديثٍ آخر: «**إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا عجّلَ له العقوبةَ في الدُّنيا، وإذا أرادَ بعبدِه الشرَّ أمسكَ عنه، حتى يُوافَى به يومَ القيامة**»(٢).

وهنا مثلٌ نبويٌّ مقارنٌ، قال رسول الله ﷺ: «**مثلُ المؤمنِ كمثلِ خامةِ الزرع؛ من حيثُ أتتها الريحُ تُفيئُها، فإذا اعتدلت تُلَقّى بالبلاءِ، والفاجرُ** - وفي روايةٍ «**المنافق**» - كالأَرْزَةِ صماءُ معتدلةٌ، حتى يَقصِمها اللهُ إذا شاءَ»(٣).

وفي «موطأ مالكٍ» بسندٍ مرسلٍ عن يحيى بن سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إن رجلًا جاءه الموتُ في زمنِ رسولِ الله ﷺ، فقال رجلٌ: هنيئًا له، ماتَ ولم يُبتلَ بمرضٍ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**ويحكَ، ما يدريكَ لو أن اللهَ ابتلاهُ بمرضٍ فكفّرَ عنه من سيئاته**»(٤).

الوقفة العاشرة: (شيءٌ من البلاءِ لا كُلُّه، وأقسامُ الناسِ في البلاءِ):

إن الله تعالى قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾. لأنه لو ابتلاهم بالخوفِ كلِّه أو الجوعِ لهلكوا، والمحنُ تمحِّصُ لا تُهلك(٥). وعلى المسلمِ أن

---

(١) رواه الترمذي وإسناده حسن «جامع الأصول ٩/ ٥٨٤».
(٢) رواه الترمذي وإسناده حسن، السابق ٩/ ٥٨٣.
(٣) متفق عليه «جامع الأصول ١/ ٢٧١».
(٤) مرسل صحيح، «جامع الأصول ٩/ ٥٨٣».
(٥) ابن سعدي «التفسير» ١/ ١٨٠.

يدركَ أن كلّ مصيبةٍ تنالُه فإنما هي جزءٌ من قدرِ الله، وهناكَ ما هو أعظمُ منها . .
وعليه أن يسترجعَ ويصبرَ.

والناسُ حيالَ المصائبِ فريقان: فريقٌ جازعٌ، وفريقٌ صابرٌ؛ فالجازعُ حصلت له مصيبتان: فواتُ المحبوبِ بهذه المصيبةِ النازلةِ، وفواتُ ما هو أعظمُ منها، وهو الأجرُ على الصبرِ عليها . . والصابرُ حصلَ على أجرِ المصيبةِ، وعلى ما يأتيهِ من فضلِ الله بَعدها، وفي «صحيح مسلم»: **«ما من عبدٍ تُصيبهُ مصيبةٌ فيقولُ: إنا لله وإنا إليه راجعونَ، اللَّهمّ أَجِرْني في مُصيبتي واخْلُفْ لي خيرًا منها، إلا آجرَهُ اللهُ في مصيبتهِ وأخلفَ له خيرًا منها»**.



بشائر الإسلام في نيجيريا(١)

الخطبة الأولى:

إنّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينهُ ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعينَ ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣).

أيها المسلمون: المتأمل في تاريخ الأُمةِ والشعوبِ المسلمةِ يرى أنها مرّت بمرحلةِ القيادةِ والرّيادةِ، ثم انحطّت وتخلّت عنها لتخلفها أممٌ وشعوبٌ غيرُ مسلمةٍ، قُدِّر لها أن تسيطرَ وتستعمرَ وتنهبَ الخيراتِ، وليتَها توقّفت عند حدّ المادّياتِ.. لكنها تجاوزت إلى إفسادِ عقيدةِ الأُمة، وتذويب قِيَمِها والعبثِ بأخلاقِها.. وأنتجت هذه المرحلةُ من الاستعمار جيلًا فاقدَ الهويةِ، ضَحْلَ الثقافةِ الإسلاميةِ، وقد نحج المستعمرُ في توظيف هؤلاءِ لخدمة أهدافِه، فخرج المستعمرون على صيحاتِ الجهاد هنا وهناك.. ولكنهم خلّفوا أذنابًا لهم؛ حكموا بحكمِهم، وقادوا الشعوبَ بتوجيهِ أسيادِهم، فاستمرَّ قطارُ التغريب في

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٤/ ٥/ ١٤٢١هـ.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٩.
(٣) سورة الأحزاب، الآيتين: ٧٠، ٧١.

بلاد المسلمين؛ في التعليم، والإعلام، وفي الحياةِ الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ، فضلًا عن النواحي السياسيةِ والعسكريةِ. . ومع ما خلّفتْهُ هذه المرحلةُ من آثارٍ سلبيةٍ، إلا أنّ المرحلةَ التي تلتْ هذه هي مرحلةُ اليقظةِ والصّحوةِ للشعوب المسلمةِ، لم يمنعْها رُكامُ الفسادِ. . ولم يُمِتْ شعورَها الإسلاميَّ مخططاتُ الاستعمارِ والتذويب. . نعم كلُّ ذلك لم يمنعْها أن تستجيبَ لنداء الفِطرة، وأن تعود إلى أصالَتِها، وأن ترفعَ شِعارَ الإسلامِ؛ مطالبةً لتطبيق شَرعِ الله والاحتكام إليه في سائرِ شئونها.

أجل لقد أُصيب الغربُ والشرقُ بالإحباطِ على أَثَرِ صحوةِ المسلمين ويقظةِ الشعوبِ المسلمةِ، فبعد عقودٍ من الزمن حافلةٍ بالإفساد على أيديهِم وأيدي أذنابِهم، يتجدّدُ البعثُ الإسلاميُّ هنا وهناك، وكأنّ فِكرَهم وأساليبَهُم ذهبت أدراجَ الرّياح.

عبادَ الله: وسأختار لكم نموذجًا لبلدٍ مسلم عاث المستعمرُ في أرضِه أكثرَ من قرنٍ من الزمان، وأحدَثَ خلال هذه الفترةِ آثارًا سيئةً، لا يزالُ بعضُها شاهدَ حالٍ على مستوى الفردِ والدولةِ، فنظامُ الدولة عِلْماني، واللغةُ الرسمية هي الإنجليزيةُ، هذه الدولةُ تُمثّل أكبرَ دولةٍ في أفريقيا من حيثُ السكانُ، والعطلةُ الأسبوعيةُ يوما السبت والأحد. . إلى غير ذلك من آثار التغريب، وهي بلدُ خيراتٍ - وإن ظل شعبُها في معظمه في عِداد الفُقراء - وهي دولةٌ متذبذبةٌ وضعيفةٌ في اقتصادِها، وإن كانت دولةً نفطيةً كبرى، لكنه الفسادُ الإداريُّ، وضعْفُ الذِّممِ منعَ وُصولَ الحقّ إلى أصحابهِ.

إنها دولةُ (نيجيريا) والتي يزيد عَددُ سكانِها على عشرين ومائة مليون نسمة، يتوزَّعون على ستّ وثلاثين ولاية، ذات حكم فِدرالي، ونسبةُ المسلمين فيها تقرُبُ من سبعين في المائة -إن لم تكن قد زادت مؤخرًا- وثمّةَ وجودٌ نصرانيٌّ

غذّاه الاستعمارُ البريطانيُّ، وزاد من نسبته في فترةِ سيطرتهِ على نيجيريا، ولم يكن من قبلُ شيئًا مذكورًا.. بل كان المسلمون وإلى جانبِهم وَثَنيّون لا يَدينون بدين.. فعمِلَ المستعمرُ على تنصير هؤلاء الوثنيين، وغرّب من استطاع من أبناء المسلمين، ويحلو للبعض أن يُطلقَ على نيجيريا (بلقان أفريقيا)؛ لأنها مقسّمةٌ دينيًّا وثقافيًا وعِرْقيًا[1].

واليوم يُسَرُّ الزائرُ لهذا البلدِ المسلم بصحوةِ المسلمين وتعطُّشِهم إلى هَدْي السماء، وتنقل وكالاتُ الأنباءِ وأخبارُ الدنيا طرفًا من مطالباتِ الشعبِ النيجيري لتطبيق الشريعةِ.. وقد أفلحتْ هذه الدعواتُ وبدأت بعضُ الولاياتِ فعليًا بتطبيق الشريعةِ، وأعلنت أخرى عزمَها على التطبيقِ، وحّددت لذلك زمنًا قريبًا.

ولا تزال الدعوة تنتقلُ من ولاية إلى أخرى، ويتوقع بعضُ المطَّلِعين أن تستجيب لنداء تطبيقِ الشريعةِ الإسلاميةِ ما يزيد على نصف ولايات نيجيريا خلال هذا العام.

أيها المسلمون: والأخبارُ التي تُنقلُ عن هذا البلدِ المسلمِ لا تزال لا تُمثلُ الحقيقةَ، ولا ترسمُ الصورةَ بكامل أحداثِها، ولئن اتّهم الإعلام الكافرُ بالتحيُّزِ في عدم توضيح الصورةِ، فاللومُ يقع أكثرُ على الإعلام الإسلاميِّ بوسائله المختلفةِ، حين يقصّرُ في خدمة قضيةِ المسلمين في نيجيريا، وتوضيح حالتِهم، ونقل احتياجاتِهم لإخوانِهمُ المسلمينَ ودعمِهم لقضيتهم.

إنها بشائرُ واعدةٌ ومستقبلٌ زاهرٌ بإذن الله للإسلام والمسلمين في نيجيريا.. يجدها المطّلعُ في المسجد والشارع، ويسمعها من أستاذِ الجامعة، ويراها في حماسِ العلماءِ ونشاطِ الدُّعاةِ، بل ويكبّرُ ويُهلّلُ لها عوامُّ المسلمين هناك،

(١) العالم الإسلامي - الصادرة عن الرابطة.

وتحيةً لكلِّ مسلم نيجيريٍّ ساهم في تطبيق الشريعةِ في بلاد المسلمين.

إخوةَ الإيمانِ: وهذه الصحوة في نيجيريا والمطالبةُ بتطبيق الشريعةِ ليست أمانيَّ وأحلامًا أو وعودًا وشعاراتٍ جوفاءَ.. بل هي خطواتٌ عمليةٌ ابتدأت بمنع أوكار الفساد؛ من بيوت الدعارة، ومحلات بيع الخمور، ومنعت التعامل بالرِّبا والقمار، وحاربت دورَ السينما، وأعلنت متابعة المجرمين، والقصاصَ من السُّراق والمفسدين.

وانتقلت بعد ذلك إلى تطبيقاتٍ شرعيةٍ، تهدي الناسَ إلى الخيرِ، وتُشيعُ الفضيلةَ وتمنع الرذيلةَ.

في ولاية (زمفرا) وهي أولُ ولايةٍ في نيجيريا أعلن حاكمُها المسلمُ (أحمد ثاني) عن تطبيق الشريعةِ، تمّ فصْلُ تعليمِ البنينِ عن البناتِ في مدارسِ الولاية منعًا للاختلاطِ بين الجنسين، وتم تخصيصُ باصاتٍ خاصةٍ بالرجال وأخرى بالنساءِ، بل وتَمّ فصلُ الرّجال عن النساءِ في المستشفياتِ، ولأول مرّةٍ في تاريخ نيجيريا أُنشئتْ وزارةٌ للشئون الإسلاميةِ، وبإمكاناتهم المحدودةِ تم توظيفُ مائتي داعيةٍ، وعشرين امرأة، وذلك لدعوة الناسِ للخير، وشَرح معاني وأهدافِ تطبيقِ الشريعةِ لسكان الولايةِ.. وعلى صعيد القضاءِ أنشئتِ المحاكمُ الشرعيةُ وشُكِّلَ مجلسٌ للقضاء، واختير له عددٌ من القُضاة للنظر في الشكاوى والجناياتِ وِفْقَ أحكام الشريعة الإسلاميةِ الغرّاءِ.

وحاكمُ الولايةِ ووزراؤه حريصون على إصلاح مناهجِ التعليم، والعنايةِ بالإعلام، وحريصون كذلك على اقتصادِ البلاد، ويهمُّهم كثيرًا أن تتحسّنَ أوضاعُ سكّانِ الولايةِ ليشعروا بآثارِ تطبيق الشريعةِ وعَدْلِ الإسلام - في كافّة المجالاتِ - وبكلّ ثقةٍ وعزّة يقول حاكمُ الولاية: إنني أتطلّعُ إلى تحسين أوضاعِ

الولايةِ في كافّةِ المجالاتِ؛ ليشعرَ الناسُ بأثَرِ تطبيق الشريعةِ، ويُدْركوا الفرقَ بين المرحلتين.

عبادَ الله: وحين تسمعُ إلى حاكم الولايةِ أو وزرائه يسرُّكَ جِدّيتُهم في تطبيق شَرْعِ الله، ويُثْلجُ صدرَك حرصُهم على التزام المنهج الصحيحِ في التطبيق - وإن كانوا لا يُخفونَ حاجتَهم إلى دعم إخوانِهم المسلمين لهم ماديًّا ومعنويًّا.. كما يسرُّك كذلك تفاؤلهم بنجاح تجربتِهم، بل وشعورُهم بأنّ المستقبلَ في نيجيريا للإسلام والمسلمين.. وقد كان لتجربتهم تلك أثرٌ على بقيَّةِ ولاياتِ نيجيريا، فمنها من حذا حَذْوَهم، ومنها من يتململُ سكانُها مطالبين بحقوقِهم في تطبيق الشريعةِ الإسلاميةِ كما حصل لغيرهم، لا سيما ودستورُ البلاد ينصُّ في إحدى فقراته على أنّ لكلّ ولايةٍ الحقَّ في اختيار النظام الذي تشاء في إدارةِ ولايتِها.

ونظرًا لأن اختيار حاكمِ الولايةِ عن طريق أصواتِ الناخبينَ وترشيحِهم في الولاية، فإنّ الولاياتِ ذاتَ الأغلبيةِ المسلمةِ قادرةٌ على الضغط على حاكم الولايةِ لتطبيق الشريعةِ؛ فهي التي اختارَتْه، وهي التي تُطالبُه بتطبيق الشريعةِ، وإذا لم يستجبْ فموعدُه الانتخاباتُ القادمةُ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1].

اللهم أعِزَّ الإسلامَ، وانصُرِ المسلمينَ في كلِّ مكان، وأعِزَّ الإسلامَ، وانصرِ المسلمين في نيجيريا، واللهمّ اهدهِم صراطكَ المستقيمَ، وثبّتهم واحفَظْهُم من كلّ مكروه.



(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وَعَدَ بنُصرةِ دينِه والتمكينِ لأوليائه، فقال جلّ قائلًا عليمًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٢).

وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، لا رادّ لقضائه ولا مُعقّبَ لحُكمِه وهو القويُّ العزيز، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، أخبر وهو الصادقُ الأمينُ أنّ هذا الدينَ سيبلُغُ ما بلغ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخلَه اللهُ هذا الدينَ، بعِزّ عزيزٍ أو بذُلّ ذليلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذلُّ اللهُ به الكُفرَ(٣).

اللهم صلّ وسلّم عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين.

عبادَ الله: وهذه البشائرُ في نيجيريا لم تأتِ من فراغٍ، ولم تَسلمْ من تحدّياتٍ، وليست مسدّدَة الاحتياجاتِ أو بغُنيةٍ عن الدّعم والمساعداتِ، ولا خلوًّا عن النقص والتقصير في الاجتهاداتِ.. وكلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ، ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلُّها، ولكن حسبُ المرءِ أن يتوجّه بصدقٍ إلى ربِّه، وأن يكونَ عملُه خالصًا للهِ، وهدفُه نصرةُ دينِ اللهِ، ورفعُ الظّلم، وإقرارُ العدلِ بين الناسِ.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٩. (٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٣) رواه أحمد والحاكم بسند على شرط مسلم.

إن المتأملَ في واقع نيجيريا يرى أنّ المسلمين الراغبينَ في تطبيق شرع الله يواجِهُهُم تحدياتٌ كثيرة - منها الوجودُ النصرانيُّ الذي أثار ولا يزال يثيرُ الفتنَ، ويُسهم بخلق المشاكل والقلاقلِ في طريق تطبيقِ الشريعةِ، وقد نشرت جريدةُ (العالم الإسلامي)، والتي تصدر من (رابطةِ العالم الإسلامي) أن آلافًا من الشباب النصرانيِّ توافدوا من أحياءٍ نصرانيةٍ استجابةً لدعوة قادةِ الكنائسِ المحليّة -في إحدى الولاياتِ- ورفعوا لافتاتٍ كُتب على بعضِها (لا للشريعة)، وأخرى تقول: (لا للشريعة من أجل سلامةِ البلاد)، وردّد المتظاهرون هُتافاتٍ معاديةً لتطبيق الشريعةِ الإسلاميةِ، منها: (يا شباب يا شباب: الشريعةُ بابُ عذاب). ثم تطورت المظاهرةُ إلى اعتداءاتٍ على الأرواح والممتلكاتِ، وإشعالِ الحرائق والسّلْبِ والنّهْبِ - وذلك في أعنف مواجهاتٍ تشهدُها نيجيريا منذ عشراتِ السنين - على حدِّ تعبير المجلة.

وفي هذا الصّدد يقفُ رئيسُ نيجيريا -الحالي- (أوبا سينجو) ضد تطبيق الشريعةِ باعتبارِه نصرانيٌّ إلى النّخاع - على حدِّ تعبير جريدة العالم الإسلامي الآنفة الذكر[1].

ويبدي بعضُ النصارى تخوُّفَهم من تطبيق الشريعةِ من أجل السياسةِ التي يقولون أنها ستمنع أبناءَهم من تعلُّم الدين النصرانيِّ، ويتخوّفُ نصارى آخرون من مَنْعِهم من التبشير بالنصرانية.

وبشكل عام فالنصارى -في نيجيريا- وهم أقلّ من المسلمين باتوا يفكرون ويُخطّطون لإفشال هذه الخطوةِ المباركةِ في تطبيق الشريعةِ، وقد فشلت محاولاتُهم السابقةُ، ونرجو أن يكونَ في وعي المسلمين لمكرِهم، وفي

(١) ٣-٩/ ربيع الأول ١٤٢١هـ

تمسُّكِهم بدينِهم وتوكُّلهم على ربِّهم وعدلِهم في المعاملةِ مع غيرِ المسلمين ما يحفظ اللهُ به جهودَهم ويكفيهم شرورَ أعدائهم.

أيها المسلمون: أما التحدي الآخَرُ فهو من بعض جهلَةِ المسلمين وغيرهِم، ولا سيَّما أصحابُ المصالح منهم، الذين شعروا أنّ تطبيقَ الشريعة سيَحرمُهم من امتيازاتٍ حصلوا عليها في ظلّ الفسادِ الإداريِّ، والذي سيتلاشى في ظلّ تطبيقِ الشريعةِ العادلةِ، وإذا لم يَخْلُ مجتمعُ الرّسول ﷺ من المنافقين الذين يُظهرون ما لا يُبطنون، فأنّى للمجتمعاتِ المعاصرةِ أن تخلو من هؤلاء - لا كثَّرَهُم اللهُ - وعلى المسلمين في نيجيريا أن يتنبَّهوا جيدًا لهذا الصّنفِ من الناس فهمُ العدوُّ - كما أخبر الله - وفي حال الغفلةِ عنهم يُخربّون ما لا يُخربّهُ غيرُهم، فألسنتُهم حِدادٌ، وقلوبُهم قلوبُ الذئابِ!

إخوة الإسلام: أما التحدي الثالث - الذي يواجِهُ المسلمين في نيجيريا في تطبيق الشريعةِ.. فهو تحدٍّ من جانب، واحتياجٌ من جانبٍ آخرَ، إذ إن تطبيقَ الشريعةِ في بلدٍ نُحّيتْ فيه الشريعةُ فترةً من الزمن وشاعتِ العَلْمَنةُ والتغريبُ في مناحي الحياة.. هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر ضعف الاقتصادِ، وحاجةُ عددٍ من أهل البلاد هناك إلى ضروراتِ الحياةِ - كلُّ ذلك يجعلُ تطبيقَ الشريعة يحتاج إلى إمكاناتٍ معنويةٍ ودعم ماديٍّ.. فالدعاةُ والقضاةُ هناك لا يستغنون عن دورات تُرسّخُ فهمَهم وتدعَمُ تجربتَهم، والمجتمعُ الذي يشتري الماءَ لوضوئه يحتاج إلى حفر آبارٍ تسدُّ حاجتهم، وحكامُ الولاياتِ الناصحون الذين يفكرون بإنشاءِ مدارسَ إسلاميةٍ، وجامعات تفي باحتياج ولاياتِهم، هؤلاء يستحقُّون الدعمَ والمساندةَ، وكذا حين يفكرون بإنشاءِ مكتبةْ كبرى تضمُّ أُمهاتِ المراجعِ في العلوم الشرعيةِ والعربيةِ، وإنشاءِ إذاعةٍ ومحطةِ تلفازٍ يُبثُ منها الخيرُ ويُعرّفُ

من خلالها بالإسلام، وماذا يعني تطبيقُ الشريعة.. كذلك يستحقون الدعمَ والمساندةَ.

وبكلّ حالٍ، فإن وقوفَ المسلمين مع إخوانهم - في نيجيريا - في ظلّ مرحلتِهم الراهنةِ.. هو من حقوق الأُخوَّة الإسلاميةِ، ومن نُصرة دينِ الله، والتمكين لشرعِه في الأرضِ، ما لم يرَ المسلمون خطًّا فاحشًا أو انحرافًا عظيمًا، أو تزيُّدًا وادّعاءً.

والمسلمون أمةٌ واحدةٌ، وتطبيقُ شرع الله في أيِّ بُقعةٍ من بقاعِ الدنيا يُسرُّ لها المسلمون جميعًا.. وعليهم كِفْلٌ من مسئوليتها في حال نجاحِها، أو إخفاقِها لا قدّر اللهُ.. وحين تشكر المملكةُ العربيةُ السعوديةُ ممثلة في جامعاتِها الإسلاميةِ ومعاهِدها لتعليم العربيةِ على إتاحة الفُرصِ للمنحِ الدراسيةِ لأبناء العالم الإسلاميِّ، أو غيرِها من مساعداتٍ للعالم الإسلاميِّ، فالحاجةُ اليومَ أكبرُ في ظلّ حربِ العقائد واجتماع اليهودِ والنصارى على المسلمين، وأين دور المؤسساتِ الإسلاميةِ والهيئاتِ، والأغنياء والدّعاةِ والعلماءِ.

عبادَ الله: إن المؤسف حقًّا ألّا تحظى هذه التجربةُ في تطبيق الشريعةِ في نيجيريا بمزيد عنايةِ وسائلِ الإعلام، ومعظمُ ما يسمعُه المسلمون هناك هو أحداثُ الشّغَبِ والاضطراباتِ فقط.. أما خطواتُ تطبيق الشريعةِ، وأما نشاطُ المسلمين وجهادُهم وحماسُهم لدينِهم، فلا تكادُ تسمعُ منها إلا نَزْرًا، وهنا يتساءل المرءُ: أين وكالاتُ الأنباءِ الإسلامية؟ وأين الإعلاميون المسلمون عمّا يجري هناك لِنَقْلِ الصورةِ بوضوحٍ للمسلمين؟ في زمنٍ بات النصارى في الغرب يُدافعون عن النّصارى في الشرقِ، وما نسيَ المسلمون بعدُ أحداثَ تيمورَ الشرقيةِ، ووقوفَ الغرب معهم حتى حققوا ما يريدون للنصرانية، أما اليهودُ فقد جمعوا فُلُولَهُم من أقطار الأرضِ وشكّلوا دولةً في وسط العالم الإسلاميِّ،

واستولوا على المقدساتِ الإسلاميةِ وعَبثوا بها، أفيكون التعاونُ والنصرةُ حِلًّا لليهودِ والنصارى، حرامًا على غيرهم؟!

إن دينَ الله منصورٌ لا مَحالةَ، واللهُ أغْيَرُ لدينِه وحرماتِه منّا.. وإذا أمكن لإخوانِ القردةِ والخنازير، وعُبّادِ الصليبِ والمسيح أن يقودوا البشريةَ، أفيعجز المسلمون وأصحابُ الدّين الحقِّ عن القيادة!! ولكنه القَدَرُ الإلهيُّ، والحكمةُ الرّبانيةُ لِيَميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيبِ، ويعلم اللهُ - وهو أعلم - من ينصرُ دينَه، ويجاهدُ في سبيلِه ممَّن يتولّى ويتخلّى عن مسئوليتِهِ، ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[1].

اللهمّ انصرْ إخوانَنا في نيجيريا ومكّن لهم، واجعل في نصرهِم نصرًا للإسلام وعزًّا للمسلمين، اللهمَّ اكفِهم شرورَ الأعداءِ وجهلَ الجُهلاء، وفتنةَ الأدعياءِ، اللهمَّ كن معهم ناصرًا ومعينًا، اللهم انصر بهم دينَكَ، واجعلهم حُماةً لشرعكَ، ووفقهم للعمل النافع والعملِ الصالح، والمنهج السديد.



(١) سورة محمد، الآية: ٣٨.

رمضان وواقع المسلمين[1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ أفاءَ على أمةِ الإسلام من مواسمِ الخيراتِ ما تُجددُ به إيمانَها، وأكرمَ المسلمينَ بأيامٍ وليالٍ فاضلةٍ تعوِّضُ بها ما فاتَها، والمغبونُ -حقًا- من تساوت عنده الأيامُ والشهورُ، وتسابقَ الناسُ للخيراتِ وهو بعدُ في فُتورٍ.

وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، جعلَ الصيامَ وسيلةً للتقوى، ومن يتقِ اللهَ يجعل له مخرجًا، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله، خيرُ من صامَ وأفطرَ، وقامَ حتى منه الأقدامُ تتفطرُ، وهو المغفورُ له ما تقدمَ من ذنبِهِ وما تأخرَ. . اللهمّ صلِّ وسلم عليه وعلى سائرِ النبيينَ والمرسلينَ، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ، والتابعينَ، ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].

أيّها المسلمونَ: بُشراكم شهرَ الصيام، وهنيئًا لكم - إذا بلّغكم اللهُ شهرَ رمضانَ، وكم لها من معنًى تلك التهاني التي اعتادَ بعضُنا أن يُهنئَ بعضًا بها لو عَقلناها وعملنا بمقتضاها. . أجل إن الصغيرَ والكبيرَ والذكرَ والأنثى، والرئيسَ والمرءوسَ كلٌّ منهم يُهنئُ الآخرَ في بدايةِ شهرِ رمضانَ، وهذا شيءٌ طيب. .

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٥/ ٩/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

لكن هل تظلّ هذه التهاني مجردَ عادةٍ لا تتجاوزُ الحناجرَ، أم ندركُ مغزاها، ونُثمّنُ القصدَ منها.

إن التهنئةَ بشهرِ الصيامِ تعني فرحتَنا بهذا الشهرِ الكريم، وتعني استعدادَنا لحسنِ استقبالِه، والمنافسةَ فيه بالطاعة، وتعني شعورنا بأن أيامَه دُررٌ تختلفُ عن غيرها، وتستدعي منا المحافظةَ على كلِّ لحظةٍ، واستثمارَ كلِّ ساعةٍ بنوعٍ من أنواعِ الطاعةِ، فهل تحقَّقَ معنى التهنئة في شهرِ رمضانَ، وهل نَستحيي من أنفسِنا ومن ربِّنا أن نقولَ ما لا نفعل، أو نفعلَ خلافَ ما نقولُ؟

إن نغمةَ التهاني تُطالِعُنا في بدايةِ الشهرِ، ثم تنسحبُ ليحلَّ محلَّها الترجمانُ الصادقُ أو الكاذبُ لهذه التهاني؛ فالذينَ يقدّرونَ هذا الشهرَ الكريمَ، ويتقربونَ إلى خالقِهم بطاعتِه، ويصونونَ صومَهم عن اللغوِ والرفثِ وقولِ الزورِ وسماعِ المنكرِ ومشاهدةِ المحرَّم، أولئك لهم ترجمانٌ صادق، والذينَ يَرونَ في شهرِ الصيام فرصةً للعَبِّ من الشهواتِ، ما حلّ منها بالإسراف، وما حرم منها بالتخوض والتهتُّك، ويرون شهرَ رمضان شهرًا ثقيلًا يعدونَ أيامَه ولياليهِ، وينتظرونَ إطلالةَ شهرِ شوالٍ بفارغٍ من الصبر، وأنّى لهؤلاءِ أن يدخلوا مضمارَ السّباقِ مع المسارعينَ للخيراتِ، حتى وإن أسبغَ عليهم ربُّهم من موفورِ الصحةِ وسعةِ الرزقِ ما ينبغي أن يشكروه عليه - هؤلاءِ أصحابُ الترجمانِ الكاذبِ لهذه التهاني المكرورةِ البلهاءِ.

أيها المؤمنونَ: وبعيدًا عن هذه الطائفةِ المحرومةِ من فيضِ رمضانَ، وقبلَ أن نودِّعَهُم ندعو لهم، فالقلوبُ بين إصبعينِ من أصابعِ الرحمنِ يقلِّبُها كيفَ يشاءُ، ونحنُ لهم ناصحونَ لا مُشَهِّرونَ ولا شائنونَ، أقولُ بعيدًا عن هذه الفئةِ التي نسألُ الله «اللهمَّ رُدَّهم إليكَ ردًّا جميلًا، وحبِّب إليهمُ الإيمانَ وزيِّنْهُ في قلوبهم، وكرِّه إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ» فثمةَ طائفةٌ أخرى أحيا قلوبًا وأحرصَ

على الخير، وأكثرَ استعدادًا للمسارعة. ولكن أولئكَ الخيِّرينَ كذلكَ لم يستثمروا رمضانَ كما ينبغي، فكم من مسجدٍ يحتاجُ إلى إمامَتِهم وهم يتسابقون إلى المسجدِ المشهورِ بُحسنِ تلاوةِ إمامهِ، أو لأن جماهيرَ من المسلمينَ تؤمُّه، وكم من تجمعاتٍ رمضانيةٍ على الأرصفةِ، أو في الاستراحاتِ يحتاجونَ إلى زيارتهم، وربما غَفلوا عن هؤلاء وأولئك، واختاروا أن يجتمعوا ويسمروا مع نظرائهم من الطيبين، وهل يغيبُ عن البالِ أن القلوبَ مهيأةٌ لسماع الدعوةِ والكلمةِ الطيبةِ في رمضانَ أكثرَ من غيرها، فأينَ استثمارُ هذه الفرصَ؟ وكَم يأخذكَ الأسى حين تسمعُ أن عددًا من الدُّعاةِ وطلبةِ العلمِ والمشايخِ ربما اعتذروا عن تقديمِ أيِّ مساهمةٍ في الدعوة، إما في مساجدهم التي يصلونَ فيها، أو في مساجدَ أخرى يمكن وصولُهم إليها.. فكيف يُساهمُ هؤلاءِ في القرى والمناطق النائيةِ - ولو ببعضِ أوقاتِهم - إن لم يكونوا مرتبطينَ بمساجد تمنعُهم من ذلك؟

وبالجملةِ فثمةَ فرصٌ كثيرةٌ للدعوةِ ونشرِ الخيرِ في رمضانَ، فأينَ الخيّرونَ منها؟ وهل تُسبقُ بدراسةٍ وتخطيطٍ وتنسيقٍ مع الجهاتِ الرسميةِ ذاتِ الاختصاص؟ لينطلِقَ قطارُ الدعوةِ في رمضانَ بمستوى يتلاءمُ وقدسيةَ هذا الشهرِ الكريم؟

أيها المسلمونَ: وعلى نطاقٍ أوسعَ والمسلمونَ كافةً يستقبلونَ رمضانَ هذا العام، وفيهم من اللأواءِ والفاقةِ والجراحِ ما لا يُشكى إلا إلى اللهِ، فهو وحدَه مفرّجُ الكروبِ ومنزلُ النصرِ.

أجل إن الضيفَ الكريمَ يحلّ هذا العامَ والقلوبُ الموجعةُ تَحِنُّ إليه وفيه دواءٌ لأمراضِها، كيف لا والصيامُ سبيلٌ للتقوى، وحين تتحقَّقُ التقوى فللمتقين هدىً، والعاقبةُ للتقوى، والذين اتقوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطانِ تذكَّروا فإذا

هم مبصرون، ومن يتقِ اللهَ يجعل له مخرجًا ويرزُقْه من حيثُ لا يحتسبُ.. ورمضانُ فيه عِظةٌ وذكرى لوحدةِ الأمةِ واجتماع كلمَتِها، وإذا توحَّدوا على الصيامِ في شهرٍ مخصوص، ولزموا الصيامَ من طلوعِ الفجرِ وأفطروا حين الغروب.. لا يتخلَّف منهم أحدٌ عن هذا النظامِ الربانيِّ الموحَّد - إلا من عُذْرٍ أو مرضٍ - أفينبغي لهم أن يختلفوا بعد ذلك وتتفرقَ كلمتُهم، ويشمتَ بهم أعداؤهم.. وفي أعظمِ قضاياهم يسومُهم اليهودُ والنصارى سوءَ العذابِ، ثم لا يَدْعوهمُ ذلك إلى جمعِ طاقاتِهم وتوحيدِ صفوفِهم، والانتصارِ لقضيتهم، والدفاعِ عن إخوانهم المظلومينَ في كلّ مكان؟

أيّها المسلمونَ: إن الشعورَ بآلام المسلمينَ والتخفيفِ من معاناةِ المحرومينَ مطلبٌ مشروع، وكم للحروبِ من ويلاتٍ! وكم للدمارِ الشاملِ من آثارٍ! وويحَ أمةٍ يموتُ من أطفالها - في قطرٍ واحد - أكثرُ من ستةِ آلاف وخمس مئة طفل شهريًا نتيجةَ الجوعِ والمرض، ثم هي لا تدري، أو تلوذُ بالصمتِ المخزي!

أيصدِّقُ العقلُ أن سبعين بالمائة من شعبِ العراقِ المسلمِ ليسَ بإمكانهم شراءُ الغذاءِ الضروريِّ، وقد اضطروا إلى بيعِ أثاثهم حتى أبوابِ المنزلِ ونحوها لتأمينِ الحاجةِ الضروريةِ من الغذاء، وفي أحد تقاريرِ الأممِ المتحدةِ تقريرٌ يقول: إن أكثرَ من ٢٩% من أطفالِ العراقِ الأبرياءِ حتى السنةِ الخامسةِ من عمرهم يعانونَ من سوءِ التغذية، وإن ٧٠% من النساءِ الحواملِ يعانينَ من فقرِ الدمِ الشديد، وإن النقصَ في الغذاءِ قد أدى إلى إحداثِ أضرارٍ جسيمةٍ وعقليةٍ لا يمكنُ إصلاحُها في جيلٍ كاملٍ من أطفالِ العراق -إلا أن يشاء الله[1].

أين أغنياءُ المسلمينَ عن مآسي إخوانِهم؟ وأين المفكرونَ؟ وأين أصحابُ

---

(١) عن منظمة اليونيسيف سبتمبر ١٩٩٩م.

الغيرةِ والشهامةِ؟ وهل يشك أحدٌ أن شعبَ العراقِ المسلمَ غيرُ نظامِ صدام المجرمِ، وأنَّ حزبَ البعثِ لا يعيشُ نفسَ المعاناةِ الحصاريةِ التي يعيشها بقيةُ شعبِ العراق؟

لقد سجلَ التاريخُ في أزمانِ عزتنا أن لأهلِ الذمةِ في ديارِ المسلمينَ نصيبًا من بيتِ مالِ المسلمينَ، أما اليومَ فيموتُ المسلمونَ جوعًا أو دمارًا بأنواعِ السلاحِ، والمسلمونَ ينظرون!! وربما وُجِدَ من أغنياءِ المسلمينَ من لا يدري أين يصرفُ زكاتَه.. وربما صرفها على غيرِ المضطرينَ لها لمن يتكررُ سؤالهم واعتادوا طرقَ أبوابِ الأغنياءِ في رمضانَ، فهل يا تُرى رمضانُ هذا العام فرصةٌ أكبرُ لتلمسِ المحتاجينِ أكثرَ وإيصالها لهم بطرقٍ آمنةٍ مطمئنة.

إخوةَ الإيمان: وعلى صعيدٍ آخرَ فما عرفَ المسلمونَ عبرَ تاريخِهم المُشرقِ أن شهرَ رمضانَ فرصةٌ للاسترخاء، وهذا رسولُ الهدى ﷺ يقودُ بالمسلمينَ يومَ الفرقانِ، ويُسجلُ التاريخُ نصرَ بدرٍ في شهرِ الصيامِ، ثم يكون الفتحُ الأعظمُ لمكةَ في شهرِ رمضانَ، ويُسجل التاريخُ مرةً أخرى أن دخولَ الناس في دينِ اللهِ أفواجًا كان على أثرِ الجهادِ والفتحِ في شهرِ الصيام.

وهكذا استمرّ المسلمونَ عبرَ حِقبِ التاريخِ يعظمونَ شهرَ الصيام، ويبتهلونَ إلى خالقِهم فيه بالنصرِ، وقد كان.

ودعونا نُطِلُّ من أحد زوايا تاريخِنا المشرقِ في رمضانَ لنرى كيفَ انتصرَ جندُ اللهِ على النصارى، وكان هذا النصرُ في رمضانَ، وكان ذلكَ بدايةَ فتحِ المسلمينَ للأندلس، فقد قادَ البطلُ المسلمُ طارقُ بنُ زياد معركةَ وادي لكة (شذونة) في الثامنِ والعشرين من رمضانَ عام ثنتينِ وتسعين للهجرةِ النبويةِ بقوةٍ لا تكافئُ قوةَ الأسبانِ لا عددًا ولا عُدّة، فلغةُ الأرقامِ تقولُ: إنّ عددَ جيشِ المسلمينَ -بعد المددِ- بلغَ اثني عشرَ ألفًا، وكان عددُ النصارى الإسبان -بقيادة-

(لُذريق) أربعينَ ألفًا فكيفَ إذا عُلمَ أن أرضَ المعركةِ غريبةٌ على المسلمين والأسبانُ أعلمُ بمسالكها، وهم أقربُ من المسلمين إلى مصادرِ التموين، وقد كانَ جيشُ العدوّ من التنظيمِ والكثرةِ والاستعدادِ بحيث كانوا لا يَشكونَ في هزيمةِ المسلمينَ وسحقِهم، بل بلغَ كبرياؤهم وغرورُهم أن استصحبوا معهم عددًا من الدوابّ لا تحملُ إلا الحبالَ ليُربطَ بها أسارى المسلمينَ ودارت رحى معركةٍ ضروسٍ، صدقَ فيها المسلمونَ مع ربِّهم وأبلوا بلاءً حسنًا في جهادِ عدوّهم ولم يَهِنوا أو يحزنوا، وقد سقط ربعُ جيشهم إذ استُشهدَ من المسلمين في هذه المعركةِ ثلاثةُ آلافٍ، بل صبروا حتى كان النصرُ حليفَهُم، وتمكنوا من قتلِ مَلكِ الأسبان، بل وأسروا آلافًا من النصارى في نفسِ الحبالِ التي أعدُّوها للمسلمين، وما النصرُ إلا من عندِ الله.

إنها صفحةٌ مشرقةٌ من تاريخِنا يَسرّنا نصرُها وآثارُها، ويؤلمُنا ألّا يبقى لها في واقعنا المعاصرِ إلا الذكرى، ويكادُ المسلمُ منا يتوارى خجلًا من واقع أمتهِ التي لا ينقصُها العددُ ولا العتاد، ولكن ينقصُها الإيمانُ واليقينُ، ويَعزُّ في جنباتها القادةُ الصالحونَ أمثالُ أولئكَ الفاتحينَ الذين كانوا يُعبرونَ عن ثقتِهم بنصرِ ربِّهم، وحاجتهم إلى التقوى ويقولُ أحدهم: «لو كانت السماواتُ والأرضُ رَتْقًا لجعلَ اللهُ للمتقينَ منها مخرجًا»[1].

تلك مقولةُ عبدِ الرحمن الغافقيِّ رحمه الله.. أحدُ قادةِ المسلمينَ وشهدائهم في مسيرةِ الجهادِ والفتحِ الإسلاميِّ.

أما طارقُ بنُ زياد فكان يقولُ أمامَ المجاهدين:

ولسنا نبالي كيف سالتْ نفوسُنا إذا نحنُ أدْرَكْنا الذي كان أَجدرا[2]

(١) ابن الأثير «الكامل» ٥/ ١٧٤.

(٢) نفح الطيب، المقري التلمساني ١/ ٣٦٥.

عبادَ الله: فرقٌ بين منطقِ اليقينِ والتوكّلِ على الله، والتطلعِ إلى النعيمِ والجنانِ وبين من يتطلعونَ إلى مساعدةِ النصارى على اليهودِ.. أو ينشدونَ العونَ من منظماتٍ لا تألو في المسلمين إلًّا ولا ذمةً.. وأنّى لأمةٍ تعيشُ حالةَ الفرقةِ والشتات، ولم تنتصر بعدُ على أنفسها، أن تنتصرَ على عدوِّها.. وعسى أن يكونَ في شهرِ الصيامِ مصدرُ طاقةٍ روحيةٍ يعوضها شيئًا مما فاتها، ويورثُها التقوى وهو أعزّ مفقودٍ لها، والوحدةُ واجتماعُ الكلمة، وهو الضمانُ لعدم تنازعِها وفشلِها وذهابِ ريحِها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].



(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين نصرَ دينَه، وأعزّ جندَه، وهزمَ الأحزابَ وحده، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، من توكلَ عليه وفَّقهُ وهَداه، ومن اتقاهُ كفاه وجعلَ له المخرجَ والنجاةَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه علّمَ الأمةَ مفهومَ الصيامِ الحقِّ، وحذَّرها من خوارمِ الصيامِ فقال: «**مَنْ لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ به، فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَه وشرابَهُ**»[(١)].

اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ النبيينَ والمرسلينَ.

إخوةَ الإسلام: أيها الصائمونَ، إن مجردَ الإمساكِ عن الطعامِ والشرابِ ليس مقصودَ الإسلامِ من وراءِ الصيام، بل لعلّ ذلك أهونُ الصيام، كما قالَ أحدُ السلفِ: أهونُ الصيامِ تركُ الطعامِ والشرابِ. بل المقصودُ الأعظمُ من الصيامِ تربيةَ النفسِ على الطاعةِ للهِ، وتزكيتُها بالصبر، واستعلاؤُها على الشهواتِ، وكما يُحفظ البطنُ ويُمنعُ من دخولِ المباحاتِ المُفطرةِ حالَ الصيام، فمن باب أولى أن تمنعَ العينُ عن النظرِ في الحرام، والأذنُ عن سماعِ المحرمِ، واللسانُ عن قولِ الزورِ والآثام.

قال جابرٌ ﷺ: إذا صمتَ فليصمْ سمعُك وبصرُكَ ولسانُكَ عن الكذبِ والمحارم، ودَعْ أذى الجارِ، وليكن عليكَ وقارٌ وسكينةٌ يومَ صومِك، ولا تجعل يومَ صومِكَ وفطرِكَ سواء[(٢)].

إن مفهومَ الصيامِ الحقِّ حين اختلّ عند نفرٍ من المسلمينَ شاعت الغيبةُ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول ا لزور، والعمل به في الصوم، برقم (١٩٠٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) لطائف المعارف، لابن رجب.

والنميمةُ عند الصائمين، وهي عند المفطرينَ من بابِ أولى، ولم يعد بعضُ المسلمينَ يتحرجُ من سماعِ الغناء وهو صائم، أو يقضي وقتًا ثمينًا أمامَ مشاهدَ هابطةٍ، لو لم يكن فيها إلا إضاعةُ الوقتِ دونُ فائدةٍ لكانَ ذلك كافيًا في الردعِ عنها، فكيفَ إذا اشتملت على صورٍ هابطةٍ وأفكارٍ رديئة، ودعوةٍ للرذيلةِ! وكيف إذا حالت دون حضورِ الصلاةِ مع جماعةِ المسلمينَ في الصلواتِ المفروضةِ.. أو أَلْهَتْ عن المكوثِ في المساجدِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار؟ وهل يسوغُ لمسلمٍ يُقدرُ شهرَ رمضان ويعرفُ قدسيةَ الصيامِ أن يظلّ عاكفًا على زُبالاتِ القنواتِ الفضائية، والصائمونَ في ذكرٍ وتلاوة وتهجدٍ واستغفارٍ ودعاءٍ بالأسحار.

يا مسلمُ يا عبدَ الله، إن فرطتَ فيما مضى في الاستفادةِ من شهرِ الصيام، فحنانيكَ العودةَ في هذه الأيام، ودونكَ دعوةَ الجبارِ جلَّ جلالُه لك بالتوبةِ فأجبِ النداءَ، واحمد الله أن سلَّمك حتى تشهدَ رمضانَ، واعلم أنك مخاطبٌ بقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١). أفلا ترغبُ الفلاحَ؟ أفلا تجيبُ من خلقكَ فسوَّاكَ فعدَلَكَ؟ أتكذِّبُ بالدِّين؟ أم تظلّ هازلًا ساخرًا متبعًا للشهواتِ حتى في الأيام والليالي الفاضلات؟ أين أنت من ساعةِ ندمٍ لا تنفعُ صاحبَها وأنت تقرأُ في كتاب ربِّك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٢).

إنكَ تُعذبُ نفسَك بالمعصيةِ، ولن يطمئنّ قلبُكَ إلا بالطاعةِ والإنابةِ، ومسكينٌ أنتَ إنْ عذبتَ نفسَك في الدُّنيا ثم قُدتَها إلى البوارِ في الآخرةِ، فلا أنت في الدنيا اطمأننتَ.. ولا في الآخرةِ نجوتَ.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.
(٢) سورة المؤمنون: الآيتين: ٩٩، ١٠٠.

قال العارفون: «القلبُ لا يصلحُ ولا يُفلحُ ولا يتلذذُ، ولا يُسرُّ، ولا يطيبُ ولا يسكنُ ولا يطمئنّ، إلا بعبادةِ ربِّه وحبِّه والإنابةِ إليه»[١]. وقالَ خالقُك وخالقُ العارفينَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا﴾[٢].

بادر في التوبةِ يرعاكَ اللهُ.. فليسَ عيبًا إن زلَّت بك القدمُ فيما مضى إن أنت تداركتَ نفسَك فيما بقي، ولكن الحماقةَ والجهلَ والعنادَ والاستكبارَ أن تسمعَ داعيَ الله يدعوكَ ثم تظل مستكبرًا وكأنه لا يعنيك.

إن من أحكمِ آياتِ الله قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٣].

وإياك أن تضعَ في حسابِكَ اليومَ ما تستحي من ذكره غدًا، وإياك أن تظنّ أن أحدًا سيشفعُ لك بحسنةٍ واحدةٍ مهما كانت شدةُ حاجتك إلى الله.. وأقربُ الناس إليك يتخلى عنك بل يفرّ منك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٤].

يا أخا الإيمان ولئن تقاصرت همتُكَ في كلّ حينٍ فإياك أن تفوّتَ فرصًا تضاعفُ فيها الحسنات، وتعظمُ فيها الأجور، ويغفرُ الله الذنوب.. أجل أفق من رقدتِك.. وقل لنفسك أنتِ في رمضان.. وكفّي يا نفسُ المخادعةُ والتقصيرُ والهوان.

يا عبدَ الله أنت خلقٌ من خلقِ الله ولا يسوغ لك الغفلةُ في أزمانِ اليقظة، ولا يليقُ بك التفريطُ في مواسمِ الكسبِ والتجارة.. وأي تجارةٍ أعظمُ من التجارةِ مع الله؟

---

(١) ابن تيمية، عن التوبة، محمد الحمد.
(٢) سورة الشمس، الآيتين: ٩، ١٠.
(٣) سورة الزلزلة، الآيتين: ٧، ٨.
(٤) سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٧.

لقد دعاك ربُّك فاستجب له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(١).

واعلم أن من كمالِ عقلكَ ورشدكَ أن تستجيبَ لنداءِ الخير، وأن مواردَ الخشيةِ لم تنضب عندك، وإنْ أعرضتَ فهي علامةُ الشقوةِ، واختر لنفسك ما تشاءُ، وكم يقرعُ سمعك قولهُ تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾(٢).

نعم أنت في بدايةِ الشهرِ، وغدًا سيُقال: انتصفَ الشهرُ، وعن قريبٍ سيُقالُ: هلّ هلالُ شوال.. فماذا قدَّمتَ وماذا أخرت.. ومسكينٌ أنت إن دخلَ رمضانُ وخرجَ ولم تغفر ذنوبُكَ ويَزدَدْ رصيدك، وتعلُ درجاتِك في الجنان.. اتقِ الله في نفسك، وتعرض لنفحاتِ المولى، ولا تكن الشقيّ بين السعداء، ولا المحرومَ في وسطِ الأغنياء.

يا صائمُ أنفق ينفقُ اللهُ عليك ويخلفْ عليك وهو خيرُ الرازقين، وصِل ما أمر اللهُ به أن يوصل يصلكَ اللهُ ويبارك لك في عمرك.

يا معاشرَ المتسحرين أين أنتم من الاستغفارِ بالأسحارِ وهو سِيما المتقين.. وكم تفوتونَ فرصةَ الدعاءِ وللدعاءِ في وقتِ الأسحارِ شأن، فهناك يتنزلُ الجبارُ ويقول: هل من سائلٍ فأعطيه، هل من مستغفرٍ فأغفرَ له.

أما حين يحينُ الإفطار فكم تضيع من فرصةٍ حين تنشغلُ عن الدعاءِ، والدعاءُ مسموعٌ وللصائمِ دعوةٌ عند فطره لا ترد.. فأين المستحضرونَ لها بين الفرصتينِ الذهبيتينِ في الأسحارِ وعندَ الإفطار.. وأين الملِحونَ في الدعاءِ واللهُ غنيٌّ كريم، أمرَ بالدعاءِ ووعدَ بالعطاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الأعلى، الآيات: ١٠-١٢.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.

يا صائمونَ ترنّموا بالقرآن وازدادوا من تلاوةِ كلامِ الرحمن، وغدًا يُقال لقارئ القرآن: اقرأ وارقَ ورتل؛ فإن منزلكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤها.

يا مسلمونَ صلّوا بالليلِ والناسُ نيام، وأطعموا الطعام، وأفشوا السلام تدخلوا الجنةَ بسلام.

يا عبادَ الله إن ثمنَ الحسانِ الحورِ غالٍ فاطلبوها بعلوّ الهمةِ وقدّموا لها المهورَ الصالحات، وإن الجنانَ تُزينُ هذه الليالي والأيام، فسارعوا إلى بناءِ القصورِ العالياتِ بجليل الطاعاتِ وكريمِ الإحسانِ، فغدًا يُقالُ للعاملين: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1].

وهنيئًا لكم معاشرَ الصوّامِ بِبابِ الرَّيانِ لا يدخلُ منه أحدٌ الجنة سواكم.



(١) سورة النحل، الآية: ٣٢.

معالم في قضيتنا الكبرى(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمدَ لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإيمان مهما تحدثَ الناسُ عن اليهود، ووصفوا طباعَهم ونفسياتِهم فلن يبلغوا مبلغ القرآنِ في ذلك، وكفى أن يستيقنَ المسلمُ شدةَ عداوتِهم وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾(٢)، وأن يعلم نوعيةَ سعيهِم في الأرضِ من قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾(٣)، إنهم ملعونونَ على لسانِ أنبيائهم بما عصوا وكانوا يعتدون. وقساةُ القلوبِ بشهادةِ الذي خلقهم وهوَ العليمُ الخبير: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾(٤) وهم أسرعُ الناسِ للإثم والعدوانِ بشهادةِ القرآنِ على أكثرهم ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٥).

والحديثُ هنا ليسَ وصفًا لليهودِ أو استجماعًا للنصوصِ التي تكشفُ طبائعهم

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٠/ ٧/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٢.

ومواقفهم وخبثهم، فذلك له حديثٌ خاص - وإنما يتركزُ حديثُ اليومِ عن قضيتنا الكبرى مع اليهود، بمعالمها وأبعادِها وطبيعةِ الصراع فيها لاسيما ونحنُ نسمعُ ونرى -هذه الأيام- أحداثًا داميةً واعتداءً صارخًا على المسلمين، ومحاولاتٍ تتكرر للعبثِ بمقدساتهم واستفزازًا أهوجَ لمشاعرِهم، وما الحوادِثُ التي يدورُ رحاها الآن في فلسطينَ والتي راحَ ضحيتها عددٌ من القتلى ومئاتٌ من الجرحى، إلا حلقةً في هذا المسلسلِ الإجرامي الحقودِ، وحتى ندركَ حجمَ القضيةِ ونعلمَ طبيعةَ المعركةِ مع اليهود نوردُ سؤالًا ثم نجيبُ عليه أو على بعضهِ.. والسؤالُ يقول: ما هي أبرزُ المعالمِ في قضيتنا الكبرى مع اليهود؟

١- ليست قضيتُنا مع اليهودِ قضيةَ أرضٍ مجردةٍ، يمكن أن نتقاسمَ فيها النفوذَ، وأن نتعايشَ بسلام.. كلا، فالقضيةُ قضيةُ مقدساتٍ إسلامية، وحقوقٍ مغتصبةٍ، قضيةُ حقٍّ يمثلُه الإسلامُ والمسلمونَ تُطمسُ هويتُه ويُشرَّدُ أبناؤه، وباطلٍ تمثِّلُه اليهوديةُ المحرَّفةُ، وينتصرُ له اليهودُ المغضوبُ عليهم والنصارى الضالُّون - قضيتُنا لها بُعدُها العَقَديُّ ولها امتدادها التاريخيُّ.

٢- وليست قضيةُ فلسطين بمقدَّساتها وتاريخِها قضيةَ العربِ وحدَهم، كما يريدُ الغربُ ومن سارَ في رِكابِهم أن يُشيعوه - بل هي قضيةُ كلِّ مسلمٍ على وجهِ البسيطةِ يؤمنُ بالدِّينِ الحقِّ ويستشعرُ عداوةَ اليهودِ والنصارى للمسلمين، وينتمي لهذه المقدساتِ.

٣- والقضيةُ -كذلك- ليست حقًّا خاصًّا لمسلمي اليوم يتصرفونَ فيها كيفما شاءوا، ويتنازلونَ إذا اتفقوا، كلا بل هي ميراثٌ وأمانةٌ، ميراثٌ عن الآباءِ وأمانةٌ لا بد من تسليمها للأبناء، فقد فتحَها أسلافُنا بدمائهم، وحرّروها بصدقِ عقيدتهم وجهادهم، ولا يحقّ لنا أن نهدرَ هذه الجهودَ حين غابَ المحررون، كما لا يسوغُ لنا أن نحجرَ على مسلمي الغد فنكبِّلَهُم بمعاهداتِ سلامٍ هزيلة،

ونبيعَ حقَّنا وحقَّهم بأبخسِ الأثمان.

٤- ما هي اللغةُ التي تفهمُها إسرائيلُ ويحتاجُها العربُ والمسلمون؟ إنها لغةُ القوةِ، وبهذه القوةِ استسلمَ اليهودُ عبرَ التاريخ، وإذا تجاوزنا تاريخَهَم قبلَ الإسلامِ، واستوقَفَنا تاريخُهم في المدينةِ مع محمدٍ ﷺ والمسلمينَ معه - رأينا كيف كان غدرُهم ونقضُهم للعهود، ورأينا محمدًا ﷺ يتعاملُ معهم بالحصارِ والجلاءِ، بل ويُقدّمُ طوائفَ منهم لتحصدَ رؤوسُهم ويُساقونَ إلى الموتِ وهم ينظرون، وكيف لا يكون ذلك وقد نقضوا العهودَ، وألّبُوا الأعداءَ، ودَلّوا المشركينَ على عوراتِ المسلمينَ في أُحد، ثم كانت غزوةُ الخندقِ ومجيءُ الأحزابِ بتخطيطِهم مع مشركي قريش، وآخرُ طائفةٍ منهم تماسكت على العهدِ خوفًا من المسلمينِ، حتى إذا لاحتْ لها الفرصةُ غدرتْ بنو قريظةَ في أشدّ الظروفِ وأحلكِها على المسلمينَ، تلك التي قال اللهُ عنها: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1].

ذلك نموذجٌ لغَدرِ اليهودِ في زمنِ النبوةِ، وذلك أسلوبٌ نبويٌّ للتعاملِ معهم، وهديُ المرسلينَ صالحٌ للاعتبارِ والاقتداءِ في كلّ زمانٍ ومكان.

٥- ما مفهومُ إسرائيلَ للسلام؟ وما هدفُها من إشاعةِ مفاهيم السلام؟

إننا نخادعُ أنفسَنا حين نعتقدُ أن إسرائيلَ جادةٌ في تحقيقِ السلامِ، والواقعُ يشهدُ بإفلاسِ المسرحياتِ الهزيلةِ للسلام، ومن كامب ديفيد بمراحله المختلفةِ وأدوارِهِ المكشوفةِ، إلى مدريدَ، أو غيرها من محطاتِ السلامِ استَسمنَ المخدوعونَ بالسلام وَرَمًا، فإذا الجبلُ يلدُ فأرًا، وإذا الانتقامُ يعقبُ السلام

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتين: ١٠، ١١.

ومِدَادُه لم تجفَّ بعدُ فتتحدَّثُ الدبابةُ المجنزرةُ باسمِ السلامِ الذي تريده (يهودُ) وينطقُ الرشاشُ، وتحوم الطائراتُ المروحيةُ، وتُرمى القنابلُ المطاطيةُ وغيرُها، بشكل عشوائيٍّ لتصيبَ الأطفالَ والنساءَ والشيوخَ.. وتكونُ هذه وتلك لغةَ السلامِ المعبرةِ في ذهنِ إخوانِ القردةِ والخنازيرِ، وَمَن صنعَ مسرحيةَ السلامِ.

عبادَ الله: إذًا موقفُ إسرائيلَ من السلامِ ليس على ظاهرِه، بل دافعُها للسلام إظهارُ نفسِها - للعالم - بصورةِ الإيجابيةِ المحبةِ للسلام، وذلك لتستقطبَ الاستثماراتِ وتفتحَ الأسواقَ الخارجيةَ، وذلك لتعزيز اقتصادِها، أو هي باختصار كما يقول أحدُ اليهودِ (نعوم تشومسكي) (يهودي مشهور) وهو شاهدٌ من أهلِها: «ليست سوى حملةِ علاقاتٍ عامةٍ لترويجِ إسرائيل»[1].

٦- بين أطفالِ الحجارةِ وترسانةِ الأسلحةِ النووية:

وهنا وقفةُ إشادةٍ وتقديرٍ لأطفالِ الحجارةِ الفلسطينيينَ الذين أرعبوا اليهودَ، لكنّ السؤالَ المهمَّ: هل بلغت أمةُ المليارِ مسلم حدًّا من الضعفِ حتى أنابت عنها في قتالِ الأعداءِ أطفالًا لا يملكونَ إلا الحجارةَ، يقاتلون بها يهودَ، ويُرهبونَ بها مَن وراءَ اليهودِ؟

وفي المقابلِ فإن أمةً مدجَّجةً بالقوة وتُعدُّ ترسانةً للسلاحِ النووي، وغيره يُرهبُها أطفالٌ عُزَّلٌ من السلاحِ ليست خليقةً بالبقاءِ، ولا قادرةً على الصمودِ والتحدي حين يتوفرُ المجاهدونَ الصادقونَ، عجّلَ اللهُ وجودَهم.

٧- الغربُ ومنظماتُ الجهادِ والأصوليةِ - ومن هنا يُعلمُ سِرُّ تخوُّفِ الغربِ واليهودِ من تنظيماتِ الجهادِ وصيحاتِ المجاهدينَ، وما يسمونهم بالأصوليةِ، ومحاولاتهم تشويهَ صورتِهم ووصفَ المجاهدينَ بالإرهابيين، ذلك لأنهم

---

(١) عبد الوهاب الفايز، مقال في جريدة الرياض ٧/ ٧/ ١٤٢١هـ.

يدركونَ أن هؤلاءِ عدُوُّهم الحقيقي، وهؤلاءِ هم خطرُهم المستقبلي، يصرحونَ بذلك في كتبهم ولا يكتمونه، ويقول الرئيسُ الأمريكي (نيكسون) في كتابه «١٩٩٩ نصر بلا حرب» يقول: «إن صراعَ العربِ ضدَّ اليهود يتطورُ إلى نزاعٍ بين الأصوليينَ الإسلاميينَ من جانبٍ، وإسرائيلَ والدولِ العربيةِ المعتدلةِ من جانبٍ آخر»[1]. ومن جانبٍ آخرَ يعلنونَ بكلّ صراحةٍ ويقولونَ في ملتقياتِهم العامة: على روسيا وأمريكا أن تعقدَ تعاونًا لضربِ الأصوليةِ الإسلاميةِ، ويقولونَ كذلك: «علينا نحنُ الأمريكان والسوفييت تناسي خلافاتِنا والتحالفُ معًا لضربِ الإسلام». فهل يا تُرى يستفيقُ المغفلونَ الذين يرددونَ ما تردِّدُه الدوائرُ اليهوديةُ والنصرانيةُ في الغربِ والشرقِ عن إخوانهم المسلمين، وهل ندعمُ الجهادَ الحقَّ - وهو ذروةُ سنامِ الإسلام - ليكونَ الفيصلَ بيننا وبين أعدائنا، وهو أقصرُ الطرقِ وأنفعُها لاستردادِ حقوقِنَا وتحريرِ مقدساتِنا.. وفي خبرِ الذي لا ينطقُ عن الهوى: «**وما تركَ قومٌ الجهادَ في سبيلِ الله إلّا ذلّوا**». لا بُدّ من تحقيقِ الولاءِ للمؤمنينَ والبراءةِ منَ المشركينَ وفي كتابنا العزيز: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[2].

يا للخيبةِ والعارِ حينَ يُسارعُ الممثلونَ للفلسطينيينَ لاستجداءِ الآخرينَ في صفقاتِ السلامِ الهزيل، وهم المُعتدى عليهم، في الوقتِ الذي يرفضُ فيه زعماءُ إسرائيلَ حضورَ هذه الملتقياتِ، وهم المجرمونَ المعتدونَ؟!

❁ ❁ ❁

(١) ص٢٨٤.

(٢) سورة المائدة، الآيتين: ٥٠، ٥١.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله جعلَ العزةَ للهِ ولرسولهِ وللمؤمنين، والذلةَ للكافرين والمنافقين، أحمدُه تعالى وأشكرُه وأثني عليه الخيرَ كلَّه، وأصلي وأسلم على خِيرةِ خلقهِ.

أيّها المسلمون:

٨- وبين الحماسِ الشعبي والتراخي السياسيِّ يبرزُ مَعلَمٌ من معالمِ الموقفِ في قضيتِنا الكبرى، فالمتأملُ في الأحداثِ الجاريةِ مع اليهودِ في فلسطينَ يلحظُ حماسًا وعاطفةً إسلاميةً تَتّقِدُ في قلوبِ الشعوبِ العربيةِ والإسلامية، ليسَ فقط في حدود فلسطينَ، بل وخارجها، منددةً باليهود، ومن أطفالِ الحجارةِ إلى المنظماتِ الجهاديةِ، إلى المظاهراتِ الطلابيةِ، وفي أرضِ الكنانةِ (مصر) وغيرها نموذجٌ لهذا الحماسِ الإسلامي تُجاه المقدساتِ، وتُجاه الدماءِ الإسلامية، وفي مقابلِ ذلك هناكَ فتورٌ وتراخٍ في الموقفِ السياسي ممن يملكونَ القرارَ، ولا يزالونَ يحملونَ حقائبَهُم للمفاوضاتِ الخاسرةِ، وعلى الرغمِ من النكساتِ المريعةِ، والصَّلفِ اليهوديِّ المثيرِ، ولا تزالُ الشعوبُ العربيةُ والمسلمةُ تتطلعُ إلى قرارٍ جماعيٍّ وموقفٍ بطوليٍّ يضعُ حدًّا لعنفِ اليهودِ، ويُنهي مرحلةَ الذُّلِّ والاستسلام.

٩- المَعْلَمُ التاسعُ: الإعلامُ والقضية.. ونلحظُ كذلك ضعفًا في إعلامنا العربيِّ والإسلامي لخدمةِ قضيةِ فلسطينَ الكبرى، وللإعلامِ دورُه في إذكاءِ حماسِ الشعوب، بل وفي الضغطِ لاتخاذِ مواقفَ جادةٍ مع بني صهيونَ.. وماذا يصنعُ الإعلامُ الغربيُّ واليهوديُّ لو أن طفلًا يهوديًّا قتلَه المسلمون.. فكيفَ بمجموعةٍ من الأطفالِ والرجالِ والنساءِ يُقتلون.. وكيف والعبثُ بالمقدساتِ والاستفزازِ في الزياراتِ دَيْدَنُ اليهود.. والمأساةُ هي التغفيلُ من قِبَل الإعلام -

إلا مجردَ عواطفَ تخرجُ عند الحدَثِ ثم لا تلبثُ أن تخبو وكأنّ شيئًا لم يكن، أما الإعلامُ الكافرُ فمعروفٌ بتحيُّزه وخدمته لقضايا فكرِهِ والدفاعِ عن أبناء جنسِه وملَّتِه، وهو غيرُ ملومٍ في خدمةِ قضايا المسلمينَ، ولكن الملومَ إعلامُ العربِ والمسلمين، على أن أمرَ القضيةِ الكبرى ليس مسئوليةَ الإعلاميين وحدَهم، بل ورجالِ الفكرِ وأساتذةِ الجامعات، وذلك بإثراءِ القضيةِ بحديثهم وبحوثهم ومقالاتِهم وكتبهم.. فأين هؤلاءِ جميعًا من قضيتِهم؟ وبكل نزاهةٍ وتجردٍ وصدقٍ وإخلاص.

١٠- الهيئاتُ والمنظماتُ الإسلاميةُ والقضيةُ.. سؤالٌ يطرحُ نفسَه: كم في العالمِ العربي والإسلامي من هيئةٍ ومنظمةٍ إسلاميةٍ؟! وأين دورُها؟ وما أثرُ هذا الدورِ في خدمةِ القضية؟ هل يُقارنُ أثرُها وجرأتُها بالمنظماتِ والهيئاتِ الغربية؟ أم أصيبت بنوع من الإحباطِ لكثرةِ رزايا المسلمينَ، سواءٌ كان هذا أو غيرُه من الأسبابِ فلا يُبرر صمتَها في بيانِ الموقفِ الإسلامي بعيدًا عن أيِّ مؤثراتٍ أخرى.. ولا يعفيها من المسئوليةِ إن جاءَ صوتُها متأخرًا وهزيلًا..

وأيُّ هيئةٍ أو منظمةٍ إسلاميةٍ لا يعنيها شأنُ المقدساتِ، ولا تستنكرُ نزيفَ الدماءِ المسلمةِ، ولا تنددُ بظلمِ الطغاةِ والمجرمينَ.. فماذا تُقرُّ وماذا تستنكرُ؟

وللحقّ، يُقالُ: إن ثمةَ هيئاتٍ ومنظماتٍ إسلاميةٍ تستنكرُ، لكن الحديثَ عن الأعمِّ والأغلبِ، وهو دونَ المستوى المطلوبِ في حجمه وفاعليته!

١١- بين خسارتين: لا شك أن سقوطَ عدد من القتلى والجرحى في أرضِ فلسطينَ خسارةٌ على الفلسطينيينَ والمسلمينَ، ولاشكَّ أن إرهابَ الآمنينَ من المسلمينَ في الأراضي المحتلةُ يُسيءُ للفلسطينيين وعمومِ المسلمين.. ولكن الخسارةَ أعظمُ لو سارَ قطارُ السلامِ واستثمرَه اليهودُ والنصارى لصالحهم ضدَّ المسلمين، فتمَّ التطبيعُ وصدّرت إسرائيلُ أفكارَها وعقائدَها وروّجتْ

للمخدِّرات، وانتشر الفسادُ الخلُقي، وراجَ سوقُ البغايا.

إن حُمقَ اليهودِ واستفزازَهم أشعلَ فتيلَ العداوةِ ضدَّهم، وذكّرَ المسلمينَ بأهدافِهم ومخططاتِهم، واستيقنَ من لم يستيقن من المسلمينَ بفشلِ عملياتِ السلامِ وضرورةِ الاستعدادِ للمواجهة مع اليهودِ مستقبلًا، وهذه وتلك إيجابياتٌ للأحداث ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا﴾[1].

١٢- تحسبُهم جميعًا وقلوبُهم شتى: تلك حقيقةٌ قرآنية تكشفُ عن تنازعِ اليهودِ واختلافِهم -فيما بينهم- وهم كذلك في القديمِ والحديثِ، وينبغي أن يدركَ المسلمونَ هذا الخللَ عند يهودَ، ويستفيدوا منه لصالحِ قضيتِهم، ولئن ظهرَ للناسِ اليومَ أن اليهودَ متفقونَ ومتماسكونَ في فلسطينَ، فليسَ الأمرُ كذلك، بل تشيرُ الدراساتُ إلى عددٍ من المشاكلِ التي تُقلقُ مضاجعَهم، فهم أحزابٌ متناحرون، وصل الأمرُ إلى قتلِ المتطرفِ منهم للمعتدلِ -في نظرهم- وإن كانوا في نظرنا كلُّهم متطرفونَ، والهجرةُ المعاكسةُ، والخروجُ من فلسطينَ لدى بعض اليهودِ بسببِ عدمِ توفرِ الأمنِ لليهودِ يقلقُ الإسرائيليين، كما يُقلقهم عدمُ استجابة السكانِ اليهودِ لدعوة تكثير النسل، لاسيما وإنهم اكتشفوا أنه مقابلَ كلِّ شهيدٍ فلسطينيٍّ يولدُ عشراتٌ من الفلسطينيينَ، وهكذا الطبقيةُ المقيتةُ تزعجُ اليهود؛ ولو أنّ المسلمينَ صَدقوا في جهادِهم لاكتشفوا كثيرًا من طباعِهم ومظاهر الضعفِ فيهم.

أيّها المسلمونَ: أكتفي بذكرِ هذه المعالمِ الاثنتي عشرةَ -في هذه الخطبةِ- وثمة معالمُ ووقفاتٌ أخرى في قضيتنا الكبرى أستكمِلُها في خطبةٍ لاحقةٍ بإذن اللهِ..

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

وفي نهايةِ حديثِ اليوم أقفُ ويقفُ غيري متسائلًا: وماذا ستتمخَّضُ عنه هذه المشاعرُ العربيةُ والإسلاميةُ الغاضبةُ تُجاهَ ما يصنعه اليهودُ اليومَ في أرضِ المقدسات؟

ولئن قيل: إنها ستنتهي عند حدودِ الشجبِ والاستنكارِ، كما حدثَ في مجزرةِ الخليلِ وملحمةِ صبرا وشاتيلا وسواهما من أحداثٍ داميةٍ ارتكبها اليهودُ -وهي مسطورةٌ في تاريخِهم الأسودِ- فهناك من يقولُ: إنها وإن كانت كذلك في المنظورِ القريبِ فهي على المدى البعيد ستشكلُ هذه المآسي أرضيةً تُنبتُ العزةَ والكرامةَ لدى الشعوبِ العربيةِ والمسلمةِ، وستكونُ هذه سلاحًا يُقاتلُ به اليهود، وسينشأُ في هذه المحاضنِ الصعبةِ أطفالٌ يرضعونَ كُرهَ اليهودِ ومن شايَعَهم مع ثَدْي أمهاتِهم، وسيكونونَ رجالَ المستقبلِ يقاتلونَ وهم صادقون، ويصبرونَ حتى ينتصرون.

لكنها مأساةٌ بحقّ مسلمي اليومَ حين يلوذونَ بالصمتِ وهم يرونَ الحقدَ اليهوديَّ يتزايدُ، والدعمَ الغربيَّ لدولةِ الصهاينةِ يتفاقمُ، والهيئاتُ والمنظماتُ الدوليةُ تتفرجُ، بل ربما تتلذذُ بمشاهدةِ المسرحياتِ وهي تُنفَّذُ، وهم خلفَ الستار.

أجل لا يسوغُ لأمّةٍ ولدت أطفالًا يقاومونَ بالحجارةِ أن تظلَّ تتفرجُ على هؤلاءِ الأطفالِ وهم يقضونَ نَحبَهم - كما يتفرجُ غيرُهم - دون أن يَنصروا مظلومًا أو يردعوا ظالمًا، وماذا سيكونُ موقفُ الحكوماتِ الإسلاميةِ التي تورطت بعلاقاتٍ واتفاقاتٍ اقتصاديةٍ أو ثقافيةٍ أو عسكريةٍ أو نحوها مع إسرائيلَ، وهي تفعلُ اليومَ ما تفعلُ بأبناءِ فلسطينَ ومقدساتِ المسلمينَ وإخوانِهم المسلمين؟

إنها مأساةٌ حين تتفرجُ أبناءُ المللِ الأخرى على ما يحصل لأبناءِ المسلمينَ

ولسانُ حالِهم يقول: أين أهلُ هؤلاءِ؟ أين أبناءُ مِلَّتهم؟ أليسَ دينهم يقول لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]. أليس نبيهم يقول لهم: «**انصر أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا**». فأين حقوق الأخوة؟ وأين وسائلُ النصرة؟!

اللهم كن للمسلمينَ في فلسطينَ عونًا ونصيرًا، اللهم ارحم ضعفَهم، وقوّ عزائمَهم، واقبلَ شهداءَهم، اللهمّ فرِّج كربَهم، واخذل من خذَلَهم، وانصر من نصرَهم، اللهم طهِّر مقدساتِ المسلمينَ من عبثِ اليهودِ الغاشمينَ، اللهم إنهم بَغَوا فاخْذلْهُم، وتكبَّروا فأذِلَّهُم وأهِنْهُم، اللهم عليكَ باليهودِ والنصارى ومَن سايَرَهُم من المنافقين.. اللهم احصِهِم عَدَدًا، واقتُلهُم بَدَدًا، ولا تُبق على الأرضِ منهم أحدًا، اللهمَّ اجمع كلمةَ المسلمينَ على الهُدى، وألْزِمهُم كلمةَ التقوى وأبدِل ضعفَهم قوةً وعزًّا، اللهم آمِنّا في أوطاننا، وأصلح ولاةَ أمرِنا.



---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

مُعوّقون من نوعٍ آخر(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله أعطى كلَّ شيءٍ خلْقَه ثم هدى، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديرًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، عزيزٌ عليه ما عَنِتْنَا، حريصٌ علينا، وهو بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ.

اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وارضَ اللهمّ عن الصحابةِ أجمعينَ، والتابعينَ ومن تبعُهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٣).

يا أخا الإيمانِ: تخيّل نفسَكَ زائرًا لواحدٍ من معاهدِ الأملِ أو دارٍ للمعاقينَ.. فألفيتَ نفسَكَ بين مجموعةٍ من البشر يعيشونَ في عالمٍ يختلف -بعضَ الشيءِ- عن عالمِ الآخرينَ، فأحدُهم فاقدٌ للسمعِ أو البصرِ أو لهما جميعًا، وآخرُ مشلولُ اليدينِ أو الرجلينِ أو كليهِما، ومجموعةٌ ثالثةٌ مصابةٌ بأمراضٍ مُزمنةٍ، إنْ في الجسمِ أو في العقلِ أو بهما معًا.

إن من هؤلاءِ وأولئكَ من يستخدمونَ لغةً للتفاهمِ تختلفُ عن لغتِنا، ومنهم من يمشون على الأرضِ بطريقةٍ غيرِ طريقةِ مشينا، ومنهم من يُفكر بغيرِ العقليةِ التي

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٣/ ٢/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

نُفكرُ فيها. . وسبحانَ من أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هدى. . وسبحانَ من أودعَ نِعمًا عند قومٍ ونزعَها من آخرين. . ليبلُوا هؤلاءِ وهؤلاءِ أيّهم أحسنُ عملًا.

ومن عجائب خلقِ اللهِ أنكَ ربما أبصرتَ مُعاقًا يعملُ وينتجُ أكثرَ مما يعملُ وينتجُ الصحيحُ المعافى!

وهنا نتحدثُ ونلفتُ النظرَ إلى مُعاقين، ولكن من نوع آخرَ، ولكن قبل ذلك أقول: إن المُعاقَ بفقدِ حاسةٍ أو عضوٍ. . فذاكَ قدرٌ كونيٌّ، وحسبُ هذا المعاقِ أن يصبرَ ويحتسبَ وألا تقعدَ به هذه الإعاقةُ عن المشاركةِ في مسرحِ الحياةِ. . وكم من معاقٍ حفظَ القرآنَ، وكم من معاقٍ يُمارسُ الدعوةَ إلى الله، وكم من معاقٍ يُتقنُ من المهاراتِ والأعمالِ ما لا يقدرُ عليه الأسوياءُ!

كم من مُعاقٍ يملكُ هِمةً عاليةً ولم تقعدْ به إعاقتُه عن ممارستِها، وربما حرّكَ بهمَّتهِ وفاعليَّتهِ هِممَ الآخرينَ من الأسوياء!

وكم يشهدُ تاريخُنا الإسلاميُّ في القديمِ والحديثِ على وجودِ عددٍ من النُّبلاءِ الأفذاذِ، وإن فقدوا شيئًا من جَوارِحهم أو لم تكتمل لهم قواهُم، ومع ذلك أثْرُوا وساهموا مساهماتٍ جليلةٍ، إنْ في الجهادِ أو العلمِ أو مجالاتٍ أخرى، صحيحٌ أن اللهَ قال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1]، ولكن هؤلاءِ لم يَعذروا أنفسَهم، فحملَ الأعمى الرايةَ في سبيلِ اللهِ، وقال ابنُ أمِّ مكتوم رضي الله عنه: «ادفعوا إليّ اللواءَ، فإني أعمى لا أستطيعُ أنَ أفِرَّ وأقيموني بين الصفين»[2].

وأصَرَّ عمرو بنُ الجموح رضي الله عنه وهو الشيخُ الكبيرُ والأعرجُ المعذورُ. . إلا أن

---

(١) سورة النور، الآية: ٦١.

(٢) ابن سعد في «الطبقات»، الذهبي في «السير» ١/ ٣٦٠.

يشاركَ في الجهادِ، وأن يطأ بعرجتِه الجنةَ، فدخلَ المعركةَ وكان من بين شهداءِ المسلمينَ في أُحُد.

وجعفرٌ الطيارُ لم تقعدْ به الإعاقةُ عن مواصلةِ القيادةِ للمسلمينَ في مؤتة.. حتى إذا سَقطَ في أرضِ المعركةِ شهيدًا على إثرِ قطْعِ يديهِ ثم بَتْرِ جسمه.. أعاضَه اللهُ عن تلك اليدينِ بجناحين يطيرُ بهما في الجنة.. إنها الهمةُ حتى الموتِ، فهل قعدتِ الإعاقةُ بهؤلاءِ عن مشاركةِ المسلمينَ في الجهادِ والدعوةِ.. وإذا كانت تلك نماذجَ العطاءِ لمن عُذروا أو من نُسميهم نحن بالمعاقين، فلا تسأل عن عطاءاتِ وتضحياتِ غيرهمِ.. وهل نُعيدُ النظرَ في مصطلحِ الإعاقةِ؟ ومن هم المعاقون؟

إذًا من هم المعاقونَ من نوعٍ آخرَ؟ إنهم أولئكَ الذينَ أنعم اللهُ عليهم بعطايا ونِعَمٍ، لكنهم لم يستثمروها، إنهم معطّلونَ لقواهم أو صارفونَ لهذه الطاقاتِ في غير محلِّها، إنهم الكُسالى والمحرومون، والعاجزونَ وأهلُ الأماني.

١- إنك حين تُبصرُ شابًّا يمتلئُ حيويةً ونشاطًا، وتكتملُ حواسُّه، ولم يُصَبْ بشيءٍ في عقلِه.. لكنه كَلٌّ على المجتمع، لا يَستفيدُ ولا يُفيدُ، لا يتعلمُ ولا يعملُ، ليس سويًّا في سلوكِه، وأنّى لهُ أن يشاركَ في إصلاحِ الآخرين.. إنه ليس في عملٍ للدنيا.. ولا عبادةٍ للآخرة، لم يستفد منه والداه وأهلُه.. وأنّى للمجتمعِ أن يستفيدَ منه!!

شابٌّ تلك بعضُ صفاتِه.. أيطلقُ عليه سويٌّ أم معاق؟ إنه في نظري معاق.. ولكن إعاقتَه من نوعٍ آخر!

٢- وحين ترى كهلًا بلغَ من العُمُر عِتيًّا لكنه لا يحفظُ من القرآنِ إلا نَزرًا.. وقد لا يُحسنُ بعضُهم قراءةَ الفاتحةِ إلا تكسيرًا.. لا عجزًا ولكن تكاسلًا.. هذا الكهلُ في عمرِه المديدِ ليست له هِمّةٌ للمعالي، ولا يُعرفُ عنه أيُّ مشاركةٍ

في عملِ خيرٍ أو دعوةٍ، وربما عاشَ دهرَه ولم يُظل نفسَه ومن يَعولُ ببيتٍ يملكُه.. ليس فقرًا ولكن ضَعف هِمّةٍ وسوء تدبيرٍ.. ماذا يقالُ عنِ مثلِ هذا؟

أين هذا من كهلٍ يتحركُ محمولًا، ومشلولةٌ بعضُ أعضائه.. ومع ذلك يُخيفُ الأعداءَ ويَنْكأُ بهم.. سلاحُه قلبٌ قوي، ولسانٌ عَقول، وهِمّةٌ عالية، وصبرٌ على تَبعاتِ الإعاقة؟

أهو في عداد المعاقين أم الأسوياء؟!

٣- وماذا يُقال عن امرأةٍ سَويةٍ، لكنَّ همَّتَها مصروفةٌ للموضةِ والإسرافِ في الزينة.. تعيشُ عددٌ من النساءِ الكافراتِ لهدفٍ تخدمُه، وهذه المسكينةُ تنتهي أهدافُهَا في حدودِ المَطعمِ والملبسِ، فهي فائقةٌ في أنواعِ الطبخاتِ، ومتابعةٌ للجديدِ في الملبوسات والموديلاتِ.

إنها مكتملةُ الحواسِّ - لكنها لم تستثمِرْها في العبوديةِ الحقّةِ، فقد تؤخِّرُ الصلاةَ عن وقتِها، وقد تنامُ مِلْءَ جفونِها سحابةَ النهار وشطرًا من الليل، وأسوأُ من ذلك حين تستخدم شيئًا مما أنعمَ اللهُ به عليها في معصيةِ اللهِ.. وأسوأُ منه حين تفتنُ الآخرين أو الأُخريات بسوءِ فِعالِها ورديءِ أخلاقِها؟

أين هذه من امرأةٍ بلغت بها الشيخوخةُ حدًّا تتكئُ على عصاها حين تريد القيام لصلاتِها.. ومع ذلك فهي حافظةٌ للقرآن، ولهَا منه وِرْدٌ في الصباحِ والمساء، محافظةٌ على السُّننِ والأذكار.. ولها نصيبُها من قيامِ الليلِ والصيامِ، تَشعرُ بآلامِ المسلمينَ والمسلماتِ؛ ولذا تراها ترفعُ يدَيها بالدعاءِ لهم حين لا تملكُ شيئًا آخرَ تُساعدُهم به.. وهي تتفطرُ ألمًا وحسرةً حين ترى طائفةً من الفتياتِ يُضيعنَ زهرةَ شبابِهنّ في أمورٍ لا قيمةَ لها.. وكأن لسانَ حالِها يقول: يا ليتني كنتُ شابةً مِثلَكُنّ لَتَرَيَنَّ ما أصنع!

٤- معاشرَ الشباب: وكم نُسرُّ حين نرى شابًّا أو شابةً ملتزمين، ولكن كم نتألَمُ حينَ نرى الالتزامَ بصورةٍ مشوهةٍ لما أمر به الإسلامُ من أخلاقٍ وآدابٍ وعلمٍ وعملٍ وذوقٍ وجمال.. إن الالتزامَ الحقَّ ليس مظاهرَ فارغةً من مضمونها، ولا مجردَ انتماءٍ أو ادِّعاءٍ.. وكم يُسوءُكَ حينَ ترى ملتزمًا سلبيًّا لا يعيش همومَ أُمَّتِه.. ولا يفكِّر في المساهمةِ في إصلاح مجتمعه، وقد ترى حوله ثُلةً من الشبابِ المنحرفِ فلا يُحدثُ نفسَه بنُصْحِهم، وربما كان في طريقه إلى المسجدِ مجموعةٌ من شبابِ الأرصفةِ أو مجموعةٌ من العمالةِ منهمكينَ في العمل وقت الصلاة، فلا تراه يُذكّرُ هؤلاء وأولئك.. وكم يسوءُكَ كذلك أن تسمعَ عن هذا الشابِّ الملتزمِ أنه شُعلةٌ من النشاط والخدمةِ مع زملائِه فإذا كان في البيتِ كان مثالًا للكسلِ والخمول.. إنْ دعاه والداه لعملٍ أو قضاءِ حاجةٍ تبرَّمَ وتضايقَ، وإن قامَ بها قامَ مُجامِلًا كسولًا، وهو مع إخوتِه وأخواتِه نموذجٌ لسوءِ الخُلقِ، فهذا ينهرُه وذاك يضربه والكلّ يفرحُ بخروجه من البيتِ ويتضايقُ حين يسمعُ بمجيئه.. وأنّى لهذا الشابّ أن يقدمَ الدعوةَ لأهل بيتِه، ولو حاولَ وهو بهذه المثابةِ من الخلقِ، فأنّى لمن حوله أن يستجيبَ له.. هو في خارج المنزلِ كثيرُ الحديثِ عن أهميةِ التبكير للصلاة، ولكنه إذا نامَ في البيتِ كان شغلَ أهلِهِ في الإيقاظ.. وربَّما قضى الصلاةَ كثيرًا في المنزل، هو اجتماعيٌّ منطلقٌ مع زملائه، لكنه مع شبابِ أسرتِه وعشيرتِه نموذجٌ للانطوائيةِ والسلبيةِ.

فهل مثلُ هذا سَوِيٌّ أم معوَّق؟

وللحقِّ فإنّ عددًا من الشبابِ والشاباتِ الملتزمينَ والملتزماتِ يربأونَ بأنفسِهم عن هذه الازدواجية في الأخلاقِ والمعاملةِ وفيهم نماذجٌ للذوقِ الرفيعِ والخُلُق الكريم، ولكنَّ الحديثَ هنا موجهٌ إلى فئةٍ من المعوَّقينَ لكنْ من نوعٍ آخر!

إنه حديث عن فئةٍ محسوبةٍ على الشبابِ الأخيارِ، لكنّ حياتَه وبرنامَجه

وكلامَه وخُلُقَه على خلاف ذلك، فهو عِبءٌ على الدعوةِ وخللٌ من الداخلِ، إنه معوّقٌ لنفسِه وعائقٌ لإخوانه.

٥- عبادَ الله: وثَمّةَ نوعٌ آخرُ من معوَّقين، لكن من نوعٍ آخر - إنه العالِمُ أو طالبُ العلمِ الذي يحفظُ كمًّا من النصوص، ويستظهرُ عددًا من الأدلةِ الشرعية، ويعرفُ - أكثرَ من غيره - في الأحكامِ والآدابِ والأخلاق.. ولكن لا يرفعُ بالعلمِ رأسًا، فهو في ذاتِ نفسِه مُقصّرٌ أكثرَ من تقصير العوامِّ والجهلة.. ففي المسجدِ تراه في مؤخِّرةِ الصفوفِ وربما قضى الصلاةَ كثيرًا، وربما اطَّلَعْتَ في بيته على عددٍ من المنكراتِ لا يرضاها من هو دُونَه في العلمِ والفقه، وإذا سألتَ عن نوع تعاملِه مع الآخرين، قيلَ لك ما يسوء من الغلظةِ والفظاظةِ والطمعِ والشَّرَه، وهو مانعٌ لزكاةِ العلمِ، فلا تراه في حلقةٍ يُعلم، ولا في مسجدٍ يعظ، ولا في أسرةٍ يُذكِّر ويدعو - إنه الحرمانُ والإعاقة.. ومن النَّصفِ أن يُقال: إن عددًا ممن يحملونَ العلم ليس هذا شأنَهم.. ولكن الحديثَ تنبيهٌ عن فئةٍ معاقةٍ وما بها في الحقيقةِ من إعاقة.. ومحرومةٍ وهي تَمتلكُ ما تتجاوزُ به الحرمان - والذكرى تنفعُ المؤمنين، والنصحُ للهِ ولرسوله ولكتابه ولأئمةِ المسلمينَ وعامَّتِهم، واللهُ الهادي والموفقُ إلى سواءِ السبيل..

اللهم انفعنا وانفع بنا.



الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربّ العالمين، أفاءَ على عبادِه من النعمِ ما يستوجبُ الشكرَ والعملَ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، فاوتَ في الهِمَمِ بين عباده، فهذا نشيطٌ وذاك كسول، وهذا مُعطى وآخرُ محروم، وربُّك حكيمٌ عليم، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، كان نموذجًا للعملِ الدءوب، والجِدِّ والاجتهاد.. وقد أوصى أمتَه بذلك كلِّه، والسعيدُ من سارَ على نهجِه واقتفى أثرَه.. اللهمّ صلِّ وسلم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

أيّها المسلمونَ:

٦- وفي عالَمِ واقعنا بِما رأيتَ أو سمعتَ عن إنسانٍ يملكُ القناطيرَ المقنطرةَ من الذهبِ والفضة، وأرصدتُه الضخمةُ تتوزعُ على عددٍ من البنوكِ والمؤسساتِ والشركات المصرفية - لكنه قَتورٌ مُمسك، تكادُ تُشفقُ عليه إذا رأيتَ حالَه، وربما ظنَّه من لا يعرفُه في عدادِ الفقراءِ والمحتاجين، لا أثرَ لنعمةِ اللهِ عليه في ذاتِه، وربما عاشَ أهلُه ومن يعولُ حالةً من الكَفافِ والتقشفِ والحِرمانِ، مما أحوجَ الآخرينَ للتصدقِ عليهم، ولربما ذهبَ أبناؤه يستسلفونَ الآخرينَ لزواجهم أو لقضاءِ حوائجهِم الأخرى.. وكم مسَّت الحاجةُ نفرًا من عشيرتهِ وأقربائه، فلم يفكروا بطلبِ العونِ منه، ومدَّ لهم آخرونَ يدَ المعونةِ وإن لم تربطهم بهم نسبٌ ولا قرابةٌ - وأنّى لهذا الصِّنفِ المُمْسكِ أن يتحسسَ حاجاتِ الفقراءِ من خارجِ أُسرتهِ! وأنّى لهذا المحرومِ أن يُقدمَ العونَ والمساعدةَ لفقراءِ المسلمينَ هنا أو هناك!

ما فائدةُ هذه الأرصدةِ؟ وأينَ حقُّ اللهِ في هذه القناطيرِ المقنطرةِ؟ أين سرورُه بما جمعَ؟ وأين بهجةُ أهلِه وأولادهِ وعشيرتهِ بما فتحَ اللهُ عليه؟ أين شعورُه بآلامِ

الفقراءِ والمُعوزينَ؟ أين كَفْكفتُه لدموعِ الأيامى واليتامى والأراملِ والمحتاجين؟

لا شيءَ من ذلك، بل نصيبُه الكدحُ والهمُّ، واللومُ والذمُّ، ذاكَ في الدنيا.. وفي الآخرةِ أشدُّ وأنكى إذا لم يؤدِّ حقّ اللهِ فيه.. هذا إن كان الجمعُ حلالًا.. فإنْ خالطَه شيءٌ من الحرام فتلك ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، ومن لم يجعل اللهُ له نورًا فما له من نور، إنه نوعٌ من الإعاقةِ والحرمانِ شعرَ بها هذا المسكينُ، أم لم يشعر.

عبادَ الله: كم تتفاوتُ الهِممُ، وكم تتباينُ السلوكياتُ، وإذا كانتِ الأعمارُ واحدةً فالأعمالُ متفاوتةٌ، وإذا وُجدَ من يملكُ ولا يعملُ، فيوجد كذلك من لا يَملكُ، ومع ذلك يُفكر بالعمل، ولربَّما لم يجدْ ما يعمل سوى تقديمِ النيةِ الطيبةِ لو وَجَدَ.

ودونكم هذا الهديَ النبويَّ في أصنافِ أهلِ الدنيا فتأمَّلوه، واعرضوا أنفسَكم عليه، وبه تقسيمٌ لهمم أصحابِ الأموالِ والمُعدَمينَ، يقول ﷺ في سياقِ حَثِّه على الصدقة: «**إنما الدُّنيا لأربعةِ نَفَرٍ: عبدٍ رزقَه اللهُ مالًا وعلمًا، فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رحمَه، ويعلم للهِ فيه حقًّا، فهذا بأفضلِ المنازلِ، وعبدٍ رزَقَه اللهُ تعالى علمًا ولم يرزُقْه مالًا، فهو صادقُ النيةِ، يقول: لو أن لي مالًا لعلمتُ بعملِ فلانٍ، فهو بنيَّتِه فأجرُهما سواءٌ، وعبدٍ رزَقَه اللهُ مالًا ولم يرزقْهُ علمًا، يخبطُ في مالِه بغير علمٍ لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصلُ فيه رحِمَه، ولا يعملُ لله فيه حقًّا، فهذا بأخبثِ المنازلِ، وعبدٍ لم يرزُقْه اللهُ مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا لعلمتُ فيه بعملِ فلانٍ، فهو بنيَّتِه فوِزْرُهما سواء**»[1].

(١) رواه أحمد والترمذي، وسنده صحيح «صحيح الجامع الصغير» ٣/ ٦١ح ٣٠٢١.

عبادَ الله:

٧- وأختمُ الحديثَ بنوع سابعٍ مهمٍّ من المعاقِينَ من نوعٍ آخرَ: إنها إعاقةُ الفكرِ والقلم، والشلليةُ في نوعِ العطاء.

فكم تُعجبُ بصاحبِ قلمٍ سيّال، واطّلاع واسع، ولكن تُصدمُ حين تقرأُ نوعَ مساهمتِهِ، وتعجبُ حين تراه يَقْصُرُ اهتماماتِهِ على أمورٍ معيَّنةٍ، وتنحسرُ مجالاتُ الكتابةِ عندَه في أمورٍ أقلَّ ما يُقالُ فيها: إنها من الأمورِ المختلفِ فيها، وكثرةُ التركيز عليها مَدْعاةٌ للبلبلةِ وتفريقِ الكلمة، والأمرُ أدْهى حين يُصاحِبها شيءٌ من الغرورِ والتعالُمِ أو التهكُّمِ والسُّخريةِ.

إن القضايا الحيةَ والإيجابيةَ في تاريخنا المعاصرِ كثيرةٌ ومتنوعةٌ، فما بالُ هؤلاء يتجاهلونها ويُصرِّونَ على نكأ الجراحِ وجلدِ الذات؟!

إن الكاتبَ المسلمَ الذي لا ينتصرُ لحقٍّ أو يَدفعُ باطلًا معوقٌ في كتابتِه، والمثقّفُ المسلمُ الذي لا يُسخِّرُ ثقافتَه في سبيلِ الجهادِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ والدعوةِ للدينِ الحقِّ، ومقارعةِ الباطلِ، وفضحِ المبطِلينَ، في ثقافتِه خللٌ، وفي فكرِه تعويقٌ وشلَلٌ، والمجترُّونَ للثقافةِ المستوردةِ والمتحدِّثونَ عن رموزها أكثرُ من حديثِهم عن الثقافةِ الإسلاميةِ ورموزِها عندهم نوعٌ من التعويق.

كم هم المسلمونَ المظلومونَ اليومَ، وكَمْ من تعاليمِ الإسلامِ وأحكامِ القرآنِ والسنةِ تشَوّه اليوم، والساكتُ عن النطقِ بالحقِّ ونصرةِ المظلومينَ شيطانٌ أخرسُ.. وكم هم الظالمونَ المعتَدون والساكتُ عن فضحِ هؤلاء أو المُجاري لهم والمتحدِّثُ نيابةً عنهم شيطانٌ ناطقٌ.. إنه ليسَ هدفُ المسلم أن يكتبَ ويشتهرَ، بل كيف يكتبُ؟ وعن ماذا يكتب، والرقيبُ خبير وعتيد ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

أيها المسلمون: لنُعِد النَّظرَ إذًا في مفهومِ الإعاقةِ على ضوءِ مفهوم «**ليسَ الغِنى عن كثرةِ العَرَض، ولكن الغِنى غنى النفس**»، وعلى ضوءِ مفهوم: «**الكَيِّسُ من دانَ نفسَه وعملَ لما بعد الموتِ، والعاجزُ من أتبعَ نفسَه هواها وتمنّى على اللهِ الأماني**».

ودعونا نقول: إن المُعوَّقَ حقًّا هو القادرُ الكسولُ، والغَنيّ المحرومُ، هو صاحبُ الطاقةِ، والقاتلُ لها، هو الذي لا يثقُ بنفسِه، أو لا يهتم بقدراتِه، فتموتُ الطاقاتُ والإبداعاتُ عنده بمحضِ إرادتِه، هو الذي يُبصرُ ثغرةً في المجتمعِ ويجدُ من نفسِه القدرةَ على تغطيتها فلا يفعل، هو الذي يستطيع أن ينفعَ بكلمةٍ أو موقفٍ فلا يُقدمُ عليها.

نحن أمةُ خيرٍ، شعارُها: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ونحن أمة عهدُ الله لها ووصيةُ خالقِها لها: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[1].

والخلاصةُ:

إن الحديثَ عن الإعاقةِ بهذا المفهوم موجَّهٌ لنا جميعًا، الصغيرِ والكبيرِ، الشابِّ والكَهل، الغنيِّ والفقيرِ، الذكرِ والأنثى، الملتزمِ وغيرِ الملتزمِ، والهدفُ التعرف على ما لدينا من جوانبِ الإعاقةِ فنعالجِهُا، وجوانبِ القصورِ فنسدِّدُها قدرَ ما نستطيعُ.

والحَذَر من التسويفِ والأماني، فالعمرُ قصيرٌ، وسهامُ المنايا كثيرةٌ ومتعددةٌ، والمسارعةُ للخيراتِ دعوةٌ ربانيّةٌ، ومن الخطأ أن نحسَّ في الإعاقةِ من خارجِ

(١) سورة العصر، الآيات: ١-٣.

ذواتنا، ونترحَّم على المعاقين من غيرِنا، وقد يكون فينا إعاقةٌ أو أكثرُ ونحنُ لا ندري، فلنفتشِ عن أنفسِنا، ولننظر في أيِّ نوع من الإعاقةِ لدينا فنعالجُه، قبل أن يستفحلَ الخطرُ، وليست البليّةُ أن يكون فينا أمراض ونحن ساعون لعلاجها ولكن البليّة أن يستشري المرض فينا ونحن لا نحسُّ به أصلًا، فضلًا عن معالجته.. إنه خطابٌ لكلِّ أحدٍ منا، ودعوةٌ للمساهمة في الخير، وكل بحسَبهِ.

إن للسمع تعويقًا، وتعويقُه بالصدودِ عن سماعِ هُدى اللهِ، وللبصرِ تعويقًا، وإعاقتُه حَجْبُه عن التأملِ في فسيحِ ملكوتِ اللهِ، وللقلمِ إعاقتُه، وإعاقته بحجبهِ عن الكتابةِ في نصرةِ الدينِ وخدمةِ قضايا المسلمين.. وهكذا.

اللهمَّ صلِّ على محمدٍ، اللهم انصر دينكَ واجعلنا من أنصاره يا ربَّ العالمين.



العشر الأواخر - قيام الليل، الاعتكاف(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمدَ لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أيُّها المسلمونَ: ما أسرعَ الأيامَ تمضيّ! فقد كُنّا بالأمسِ نُهنئُ أنفسَنا بدخولِ شهرِ الصيام، واليومَ يحقُّ لنا أن نهنئَ بعضًا بقربِ حلولِ العشرِ الأواخرِ من رمضان.. ولئن تحدثنا - فيما مضى - عن معنى التهنئة ولوازِمِهَا - فحريٌّ بنا اليوم أن نستذكرَ قيمةَ البُشرى بإدراكِ العشرِ الأواخرِ من رمضانَ.

أجل، لقد صامَ معنا نفرٌ من إخوانِنا المسلمينَ أولَ الشهرِ، وهم اليومَ يرقدون تحت الثَّرى مرتهنونَ بأعمالِهم.. وفي غيبِ اللهِ، كذلك ستخِرمُ المنايا أقوامًا سيشهدون العشرَ ولن يستكملوها - فهل يا تُرى تُحرّكُ هذه النوازلُ والفواجِعُ هِمَمَنا، وتغذوا سيرَنا للآخرة.. لاسيما ونحن في موسمٍ عظيمٍ من مواسِمِها، والمغبونُ حقًّا من فرّطَ فيها، وموتى الأحياء أعظمُ مصابًا من أصحابِ القبور.. أولئك الذين تدخلُ المواسمُ وتخرجُ وهم في غفلةٍ معرضون.

عبادَ الله: بُشراكم بالعشرِ الأواخرِ من رمضان، وهنيئًا لمن عقدَ العزمَ على إحياءِ لياليها بالقيامِ والذكرِ والدعاءِ والتلاوةِ والاستغفار.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٩/٩/١٤٢١هـ.

ولقد كان المصطفى ﷺ يخصُّ هذه العشرَ، ويجتهدُ فيها أكثرَ من غيرِها، وفي «صحيح» مسلم من حديثِ عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ «كان يجتهدُ في العشرِ الأواخرِ ما لا يجتهدُ في غيرها». وكان عليه الصلاةُ والسلام يوقظُ أهلَه، ويحيي ليلَه، ويَشُدُّ مِئزَره، ولكم في رسولِ الله أسوةٌ حسنةٌ.

عبادَ الله: وإذا كانت أعمارُ أمتِنا محدودةً مقارنةً بالأممِ الأخرى، فقد جعلَ اللهُ لنا في مثلِ هذه الأزمانِ الفاضلةِ ما يعوِّضُ به عن قصرِ أعمارِنا، ومن وفَّقه الله لقيام ليلةِ القدرِ كان كمن عملَ ما يزيدُ عن ثلاثٍ وثمانينَ عامًا، ألا وإن المفرطينَ في هذه الليلة لم يستفيدوا من هذه الفُرصةِ الممنوحةِ لأمةِ محمدٍ ﷺ.

ألا ويحَ الكسالى ولا نامت أعينُ المفرِّطين؟

إخوةَ الإيمان: وطالما فرَّطنا في قيام الليل - وهو دأبُ الصالحينَ قبلَنا - وفيما أوحي إلى نبيِّنا ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[1].

وجاء في أوصاف المتقين: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[2].

وفي وصفِ الذين يؤمنون بآياتِ الله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[3].

عبادَ الله: أين المشمِّرونَ هذه الليالي يدعونَ ربَّهم خوفًا وطمعًا، والفرقُ كبيرٌ بين من تتجافى جنوبُهم عن المضاجعِ.. وبين منَ يحيونَ الليلَ في سهرٍ صاخب.. أو في سُبات نومٍ عميق، لا تحرّكُ هِمّتَهم المواسمُ - ولا يسمعون لداعي الخير.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.
(٢) سورة الذاريات، الآيتين: ١٧، ١٨.
(٣) سورة السجدة، الآية: ١٦.

وكم هو عظيمٌ أن تألفَ النفسُ قيامَ الليلِ في هذه العشرِ الفاضلةِ، فيكونَ ذلك دَيْدَنًا للنفسِ في سائرِ العام.

وكم هو شرفٌ للنفسِ وعِزٌّ لها قيامُ الليل، وفي الحديثِ الحسن: «**جاء جبريلُ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا محمدُ، عِشْ ما شئتَ فإنك ميِّتٌ، واعملْ ما شئتَ فإنكَ مجزيٌّ بهِ، وأحبِبْ من شئتَ فإنكَ مفارقُه، واعلم أن شرفَ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعزّهُ استغناؤه عن الناس**»[1].

إنها وصايا جامعةٌ نزلَ بها الروحُ الأمينُ على قلبِ محمدٍ خاتمِ المرسَلين - وهي للأمةِ عامّةً شموعٌ مضيئةٌ.. فأين يا تُرى من يبحثونَ عن شرفِ النفسِ وعِزِّها؟ أين رُهبانُ الليلِ وسهامُهم لا تكاد تخطئ؟

وعن بعضِ السلف: قيامُ الليل يُهوِّن طولَ القيامِ يومَ القيامةِ، ولله درُّ أقوامٍ تعالتْ هِمَمُهم، حتى كادت السنةُ كلُّها أن تكونَ كالعشرِ الأواخرِ عند غيرهم.. تسامتْ نفوسُهم على حُطامِ الدنيا، وحطّوا رحالَهم في الآخرةِ - وهم بعدُ في الدنيا - وحادِيهم يقول - واصفًا لحالهم ومستصرخًا لغيرهم-:

إذا ما الليلُ أظلمَ كابَدُوه ... فيُسفِرُ عنهم وهُم رُكوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهم فقاموا ... وأهلُ الأمنِ في الدُّنيا هجوعُ
لهم تحتَ الظلامِ وهُمْ سجودٌ ... أنينٌ منه تنفرجُ الضلوعُ[2]

أيها الصائمون: إن من عجبٍ أن يبادرَ المحسنونَ، ويتراخى المفرِّطون! أَوَليس أهلُ التفريط -من أمثالنا- أولى بقيامِ الليلِ لسؤالِ المغفرةِ والتكفيرِ عن السيئة على إثرِ السيئةِ؟!

---

(١) الأحاديث الصحيحة (٨٣١)، صحيح الجامع الصغير (٧٣).

(٢) أحمد بن صالح الطويان - الدرر الحسان في أحاديث رمضان ٢١٣.

فما بالُنا تأخّرنا وتقدمَ غيرُنا؟!

وهؤلاء المتقدمونَ أهلُ علمٍ وصلاحٍ وجهادٍ ودعوةْ وطاعاتٍ يثقلُ بها الميزانُ، ومع ذلك لازموا قيامَ الليل؛ ليضيفوا الحسناتِ إلى الحسناتِ، ولتكتملَ الهممُ في جنحِ الظلامِ حيث لا يَرى إلا الذي يراكَ حين تقوم وتقلُّبك في الساجدين.. ولا يَسمعُ إلا الذي يعلمُ السرَّ وأخفى.. ودونكم نماذجَ من هِمَمِهم عسى أن توقظَ قلبًا غافلًا، أو تهدي فؤادًا شاردًا - ومنِ اهتدى فإنما يهتدي لنفسِه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها.

في «صحيح البخاري» و«مسندِ الإمام أحمد» عن أبي عثمانَ النهديِّ رحمه الله قال: «تضيَّفت أبا هريرةَ رضي الله عنه سبعةَ أيام - أي نزلتُ ضيفًا عليه - فكان هو وزوجتُه وخادِمُه يتقسمونَ الليلَ أثلاثًا، الزوجةُ ثلثًا، وخادمُه ثلثًا، وأبو هريرة ثُلثًا».

وفي «تذكرة الحفّاظ» أن سليمانَ التيميَّ كان عندَه زوجتان، كانوا يتقسمونَ الليلَ أثلاثًا[1].

ومع اجتهادِ القومِ كانوا يتلذذونَ بهذه العبادةِ، وينافسونَ بها أهلَ الدنيا، ويقول أحدُهم: واللهِ لولا قيامُ الليل ما أحببتُ الدنيا، واللهِ إن أهلَ الليلِ في ليلِهم ألذُّ من أهلِ اللَّهوِ في لهوِهم، وإنه لتمرُّ بالقلب ساعاتٌ يرقصُ فيها طربًا بذكرِ اللهِ، فأقول: إن كان أهلُ الجنةِ في مثلِ ما أنا فيه من النعيمِ إنهم لفي نعيمٍ عظيم[2].

نعم إخوةَ الإيمان: قد يستَغربُ هذا المنطقَ المفتونونَ بالدنيا، الغافلون عن الآخرة.. ولكن الفرصةَ أمامَهم ليجرِّبوا وسيجدون ما وجدَه غيرُهم.

---

(١) الطويان، السابق (٢٩٤). (٢) السابق (٢٩٥).

إنَّ في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ فرصةً للتعويضِ والتعويدِ، فرصةً لتعويضِ ما فاتَ، وتعويد النفسِ في مستقبلِ الأيامِ، وكيف يفرِّطُ عاقلٌ في عشرِ ليالي يدركُ بها المحتسبون المؤمنون ليلةَ القدر، وليلةُ القدرِ خيرٌ من ألفِ شهر.

يا عبدَ الله: مهما كان تفريطُك على نفسِك فيما مضى، فإياك أن تُتْبع الغفلةَ بغفلةٍ أخرى - بل قُم مع القائمين، واركعْ مع الراكعين.. عسى أن تدركَكَ نفحةٌ من نفحاتِ المولى فتسعدَ ولا تشقى.. والرجلُ مع من أحبَّ.

كم لك من حاجةٍ تتمنى قضاءها.. وكم عندَك من همومٍ تودُّ لو فُرِجتْ عنك أثقالُها.. كم عندك من خطايا ترغبُ الخلاصَ منها.. وكم أمامَك من عقباتٍ وأنتَ أحوجُ إلى تذليلِها والتقوِّي على صعودها.. ألا فبادرْ إلى فرصِ الخيرِ.. وخذ بنفسِك بالعزيمةِ، إني لك ناصحٌ، وعليك مشفقٌ، وما أنا وأنتَ إلا خلقٌ من خلقِ اللهِ، أحوجُ ما نكونُ إلى رحمتهِ، وأفقرُ ما نكونُ إليه، ولا يُعجزه أن يستبدلَنا بخير منا: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[1].

اليومُ يومُ المهلةِ، وغدًا حسابُ يوم القيامةِ، ومن عَلِمَ فليعمل، وفرقٌ بين الذين يعلمون والذين لا يعلمونَ، وصدق الله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

اللهم انفعنا بهدي القرآنِ وسنةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام - أقولُ ما تسمعون.

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة فاطر، الآيات: ١٥-١٧. (٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، فاوتَ بين عبادِه في الهِمَمِ؛ فمنهم ظالمٌ لنفسِه، ومنهم مقتصدٌ، ومنهم سابقٌ للخيرات بإذن الله ذلكَ هو الفوزُ العظيم.

وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، يجازي على الحسناتِ والسيئاتِ، ويُضاعفُ أجرَ الحسناتِ إلى عشرِ أمثالِها أو أزيدَ، وفضلُ الله يؤتيهِ من يشاءُ، والله ذو الفضلِ العظيم.

وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، كان أجودَ ما يكونُ في رمضانَ.. وفي العشرِ الأواخرِ له اجتهادٌ يفوقُ كلَّ اجتهاد، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلينَ.

أيها المسلمونَ: العملُ الصالحُ هو الرصيدُ الحقُّ لمن يرجو يومَ الحسابِ، وإذا كانتِ المسارعةُ للخيراتِ مطلوبةً على الدوامِ، فهي أحرى وأولى بالأزمانِ الفاضلةِ.. والحاجةُ إليها أشدُّ في أزمانِ الفتنِ، ولذا ندبَ الرسولُ ﷺ إليها بقوله: «**بادروا بالأعمالِ فِتنًا كقطعِ الليلِ المظلم، يصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا**»[(١)].

يا عبدَ الله.. أجلُك محدودٌ، ولا تدري متى تكون النُّقلةُ، فارحل حين ترحلُ بخيرِ زاد، ألا وإن ضعفَ الإيمان والتكاسلَ عن عملِ الصالحاتِ سببٌ لضعفِ المقاومةِ عن المصائبِ والفتن، قال ﷺ: «**ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا يبالي المرءُ بما أخذَ المالَ؛ أمِن الحلالِ، أم من الحرامِ**»[(٢)].

وقل مثلَ هذا التجاوزِ فيما عدا المال من المحرماتِ الأخرى؛ إذ صحَّ عن

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

النبيِّ ﷺ قولُه: «**لا يأتي زمانٌ إلا والذي بعدَه شرٌّ منه حتى تَلقوا ربَّكُم**» رواه البخاري.

وقد صح عند ابنِ ماجه عنه ﷺ أنه قال: «**لم يبق من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنة**»(١).

أيها المسلمون: وبإزاءِ هذه النصوصِ وأمثالِها من الكتابِ والسُّنةِ، يجدرُ بالمسلمِ الناصح لنفسِه أن يزكّي نفسَه بالصالحاتِ، وأن يسارعَ جُهدَه لاغتنامِ الأيامِ والليالي الفاضلاتِ.

يا مسكينُ أسرَجَ الناسُ خيولَهُم وأنت بعدُ متباطئٌ كسلان، يا مغرورُ إلى متى الغرورُ والله يقولُ: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(٢).

يا عبدَ الله: هبّت رياحُ الجنةِ فاغتنِمْها قبلَ فواتِ الأوانِ!

يا مذنبُ كادت روائحُ الذنوبِ أن تزكمَ الأنوفَ، فهلَّا استبدلتَها بحسناتٍ لتفوحَ منك روائحُ المسكِ تُعطِّرُ الوجودَ ومَن في الوجود.

يا مسرفُ على نفسهِ بالذنوبِ، لا تقنَطْ من رحمةِ اللهِ.. وأنِبْ إليه وأسلِم نَفسَك طائعةً له.

ويحكَ أما سمعتَ اللهَ يقولُ لك: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ

---

(١) برقم (٤٠٣٥)، انظر عبد المحسن المحسن، رياض الجنات (١٥٣).

(٢) سورة فاطر، الآية: ٥.

أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

أيها المسلمونَ: وثمةَ سُنةٌ نبويةٌ كادت أن تُهجرَ عند نفرٍ من المسلمين، وعلى الرغمِ من توفرِ إمكاناتِ الناسِ لها، وعدمِ وجودِ موانعَ تحولُ بينها - إنها سُنةُ الاعتكافِ في المساجد، وما فيها من انقطاعٍ عن الخلقِ واتصالٍ بالخالق - في هذه العشرِ الأواخرِ أو بعضِها.

أجل؛ لقد زهد بهذه السنةِ طائفةٌ من الأخيارِ الذين يحرصون على سننٍ أخرى.. وغيرُهم في الزهدِ بها من بابِ أولى، ويرحمُ اللهُ الإمامَ الزهريَّ وهو القائل: عجبًا للمسلمين، تركوا الاعتكافَ مع أن النبيَّ ﷺ ما تركَه منذُ قِدَمَ المدينةَ حتى قبضَه اللهُ.

وإنك لتعجبُ حين تسمعُ عن اعتكافِ المئين في المسجدِ الواحدِ في مناطقَ في العالم الإسلامي، قد لا يجدُ المعتكفُ منهم ما يسدُّ حاجتَه، وترى في المقابلِ زُهدًا بهذه السنة في أقطارٍ أخرى، يملكُ الناسُ فيها القناطيرَ من الذهبِ والفضةِ.. ومع ذلك فقد يجدُ صعوبةً في تفريغِ نفسهِ والانقطاع عن تجارِته ولو لبضعةِ أيام.

إن أحدنا لا يجدُ صعوبةً في تركِ أهلِه أسبوعًا أو عشرةَ أيام أو نحوها في سبيل الذهاب إلى رحلةٍ برية، أو سفرٍ للنزهة خارجَ المملكةِ، لكنه قد يجد

---

(١) سورة الزمر، الآيات: ٥٣-٦١.

صعوبةً في تركِهم للاعتكافِ، وبعضُنا يمكنه أن يتعللَ بخشيةِ ضياعِ أولادهِ خلال اعتكافه.. ولستُ أدري أضاعت أبناءُ المسلمين الذين كانوا يرابطونَ في الثغورِ الشهورَ الطويلةَ، إنها حججٌ وتعلُّلاتٌ ضعيفة.

على أن العائقَ عند بعض الناسِ عن الاعتكاف قد لا يكونُ بالضرورةِ الحرصَ على الدنيا، ولكن عدَمُ توفرِ المسجدِ الذي يمكن أن يعتكفَ به، أو ما يجده من صعوبةٍ في توفيرِ المطعمِ له، وهنا يَسهلُ الأمرُ؛ إذ يمكن توفير غرفة أو أكثر لا سيما في الجوامع، ويمكن كذلك أن يتولى محسنون أو هيئاتٌ خيرية توفيرَ المطعمِ للمعتكفين، وعلى أئمةِ المساجدِ أن يعنوا بهذه الأمورِ ويُعلنوا تسهيلَها للراغبين في الاعتكاف.. ومما يُذكر للمستودَع الخيري ببُريدةَ عنايتهُ في العام الماضي بالمعتكفين في مساجدِ بُرَيدةَ، وتقديمُه هديةً لكل معتكف، وعلمتُ هذا العام أن لديهم مبادرةً أخرى وذلك بتوفير مطبخينِ كبيرين، وسيُطبخُ فيها اثنا عشرَ كيسًا من الأرز، ومائةُ ذبيحةٍ أو مائةُ كرتونٍ منَ الدجاجِ، وذلك لخدمةِ المعتكفينَ في أيٍّ من مساجد بريدة، وعندهم استعداد للزيادة إذا اقتضى الحالُ، ويمكنهم كذلك إيصالُ الطعامِ إلى المساجدِ الراغبةِ في ذلك، هذا فضلًا عن استعدادِهم لتأمين الفرشِ اللازمة للمعتكفينَ في المساجدِ المحتاجةِ لذلك.

إنها بوادر خير تنبت في أرض الخير، وحين يُشكر المعنيون بها، فعلينا أن نستثمرهَا، وكم يُثلجُ صدورَنا حين نسمعُ عن أعدادٍ من الشباب تأوي إلى المعتكفِ، لتعكُفَ على تلاوةِ وحفظ أو مراجعة المحفوظِ من كتابِ اللهِ.. وذلك مؤشرٌ على أن الأمةَ بخير ما دامَ ذلك حالُ بعضِ شبابها ورجالِ مستقبلها.. وعسى أن يلتحقَ بركبِهم شبابٌ آخرون غارقونَ في لهوِهِم.. قد لا يذهبونَ إلى المساجدِ أصلًا إلا في رمضانَ.. وقلوبُ العبادِ بين إصبعين من أصابعِ الرحمن يقلّبُها كيفَ يشاء.

وهنا - وحولَ الاعتكاف - اقتراحٌ للجهاتِ الرسميةِ المشرفةِ على المساجدِ أو الجمعياتِ الخيريةِ - أو بالتعاونِ بينهم - ويقضي الاقتراحُ بدراسةِ الاعتكاف على أرض الواقعِ.. وتُعنى الدراسةُ - إضافةً إلى فضلِ الاعتكافِ وأحكامِه بشكلٍ مختصَر - ببيانِ أعدادِ المعتكفين ونوعيَّتهم وسنِّهم وعملهم، ودواعي الإقبال على الاعتكاف وآثارِه على المعتكِف، وأسبابُ الإحجامِ ومعوِّقاتِ الاعتكاف، وكيف يُرَغّبُ في الاعتكاف، وكيف تُعالجُ معوِّقاتُه - إلى ذلك من أمورٍ قد ينفعُ الله برصدِها للحاضرِ والمستقبل.

معاشرَ المسلمين: نحن أمةُ الخير.. واللهُ نَدَبَنا جميعًا إلى التعاون على البرِّ والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

فلنسعى لتحقيق هذا التعاون الخيِّر في كلِّ زمان، ولنحرصْ على تحقيقه في مثل هذه الأيام.. عسىَ ربُّنا أن يرحمَنا ويجعلَ العاقبةَ لنا والسعادةَ والفلاحَ في الدنيا والآخرةِ.



(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

وقفات ما بعد الحج والوعي المروري[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمدَ لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإسلام: عاشَ المسلمون في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها في الأيامِ والأسابيعِ الماضيةِ أيامًا مشهودةً ومناسباتٍ سعيدةً، كتبَ اللهُ لهم فيها ما كتبَ من الأجرِ والمَغْنَم، أغاظوا عدوَّهم من الجنّ وأعداءَهم من الإنسِ، وطابت نفوسُهم، وزادَ إيمانُهم، وزكَتْ قلوبُهم.

أجل، لقد قضوا عشرَ ذي الحجةِ بما فيها من فضائلَ ومغانمَ وهِباتٍ، ثم عاشوا يومَ عرفاتٍ، إذ وقفَ الحُجّاجُ على صعيدِ عرفاتٍ يبتهلونَ إلى ربِّهم بالدُّعاءِ، وربُّهم كريم يقول لهم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[٢].

وما رُؤيَ الشيطانُ أحقرَ ولا أصغرَ ولا أذلَّ منه في ذلك اليوم، إلا ما كان من يومِ بدر.

أما المقيمونَ فصامَ الكثيرُ منهم هذا اليومَ، وهم موقنونَ بمغفرةِ الذُّنوبِ ومحْوِ السيئاتِ، والهادي البشيرُ يبشّرهم بذلك ويقول: «**صيامُ يومِ عرفةَ أَحتَسِبُ**

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة، الموافق ٢٢/ ١٢/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

على اللهِ أنْ يُكفِّرَ السنةَ الماضيةَ والقابلةَ».

ثم عاشَ المسلمون يومَ الحجّ الأكبرِ وعيدَ الأضحى، وهو أفضلُ أيام العام.. وبه تردّدَ الحُجّاجُ بين المشاعِرِ؛ فطائفةٌ ترمي الجِمَارَ، وطائفةٌ يَطَّوّفونَ بالبيتِ العتيق، وطائفةٌ يُحلّقونَ أو ينحرونَ هَدْيَهُم، ومع شَعَث الحُجاجِ في يوم العيد إلا أنهم يتقرّبونَ إلى الله بجليل الأعمالِ.

أما المقيمونَ فعاشوا فرحةَ العيد، وتقرَّبوا إلى بارئهم بنحرِ الأضاحي، والتقتْ جموعُ المسلمينَ في مُصلَّيات الأعياد، ومَنظرُهم ووحدتُهم تُرهبُ الأعداءَ، ومناسبتُهم واجتماعُهم لا مثيلَ له في المِلَلِ والأمم الأخرى.

واستمرّ فضلُ الله على الحُجاجِ وغيرِ الحُجاج في أيام التشريقِ؛ إذ هي أيامُ أكلِ وشُربٍ وذكرٍ لله.. يَنعمُ بها الموسرونَ والأغنياءُ، ويُواسى به المحتاجونَ والفقراءُ.

ألا فهنيئًا للمسلمينَ بهذه المناسباتِ السعيدةِ والأيامِ الفاضلةِ.. والبُشْرى تُزفُّ لمن تقرّبَ إلى اللهِ وزادَ في عملِ الصالحاتِ من الحُجاجِ أو غيرِ الحُجاج، وهل أعظمُ من الجنةِ منزلًا؟! وليس للحجّ المبرور جزاءٌ إلا الجنّة.. وكفى بمغفرةِ الذُّنوبِ فضلًا ونعمةً.. ومن حجّ فلم يرفُثْ ولم يفسُقْ رجع كيومِ ولدَتْه أُمُّهُ.

ولا يُحرمُ غيرُ الحُجاجِ من فضلِ الله لا سيّما مَن تقرّب إلى اللهِ بعملِ الصالحاتِ في العشر.. وأتمّ ذلك بصيام عرفةَ، وتقرّبَ إلى اللهِ بالأُضحية.

عبادَ الله: وحين يهنأُ العاملونَ المُوَفّقونَ يُعزّى المُفرِّطونَ ويندمُ الكُسالى والمضيِّعونَ للفُرص.. ولكن الجميع يذكَّرون - بعد هذه المناسبات - بعدة أمور، منها:

١- استدامةُ الطاعةِ والحفاظُ على الأرصدةِ المُكتسبةِ، فمن عادت صحائفُه بيضاءَ، فحريٌّ به ألا يُلوّثَها بالمعاصي، ومن علائمِ قَبولِ الحسنةِ عملُ الحسنةِ بعدها.

٢- الندمُ توبةٌ.. فمن فرّط فليُظهر الندمَ على ما مضى، وليعقدِ العزمَ على انتهاز الفرصِ القادمةِ، والباكونَ على خطاياهم والمستغفرونَ لذنوبهم حَرِيّونَ بالمغفرةِ والرِّفعةَ ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

٣- وعبوديةُ الشّكرِ لله سببٌ للزيادةِ من فضلِ الله ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2]، فمن وفّقه اللهُ للطاعةِ فليشكُرِ اللهَ على فضلِه وتوفيقِه.. فكم من مُريدٍ للخيرِ لم يُصِبه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[3].

٤- وحين يتجاوزُ الإنسانُ ما أَلِفَهُ ويَخرجُ المرءُ عن محيطِه - ولو قليلًا - تبدو له نِعَمٌ كان يتمتعُ بها ويتفيّئُ ظِلالَها، وكأنها صعبةُ المنال... أجل إن الحاجَّ - أحيانًا - يَعِزّ عليه المكانُ الذي يستظلّ به، ولو لبضعِ ساعاتٍ من النهار، أو ينامُ فيه ولو لبضعِ ساعاتٍ من الليل، وهو في سائرِ أحواله يسكنُ القصورَ الفارِهةَ لسنواتٍ عديدةٍ، أفلا يدعوه ذلك لِشُكْرِ أَنْعُمِ اللهِ عليه؟ وهكذا سائرُ النّعمِ التي يتمتعُ بها المسلمُ في حال إقامتِه، وقد تَضِنّ عليه أو بعضُها في حال سفرِهِ.. كلُّ هذه مُذكِّرةٌ له بأنعُمِ اللهِ عليه وداعيةٌ له لمزيدِ الذكرِ والشّكرِ لله.

٥- وبابُ التوبةِ مفتوحٌ للإنسان على الدوام.. ولكن التوبةَ تطيبُ حين تكونُ على إثرِ مغفرةِ الذّنوبِ ومحوِ السيئاتِ السابقةِ.. وفي الحجّ أو صيامِ عرفةَ من

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٠. (٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٦.

الأجرِ ما يُكفِّرُ اللهُ به السيئاتِ ويمحو الخطيئاتِ.. أفلا يدعونا ذلك إلى الاستعانةِ باللهِ على عَقْدِ العزمِ على التوبةِ، فإن التوبةَ وظيفةُ العمر، وبدايةُ العبدِ ونهايتُهُ، وأولُ منازلِ العبودية، وأوسطُها، وآخرُها[1].

٦- وفي الحجّ يعلو مقامُ التوحيد لله وترتفعُ أسهُمُه.. ألا ترى الحاجَّ يبدأ به مُلبيًا لله وحده، نافيًا للشُّركاءِ معه، معترفًا لله وحدَه بأنعُمِه (لبيك اللهمّ لبيكَّ، لبيك لا شريكَ لك لبيك، إن الحمدَ والنعمةَ لك والمُلك). وهكذا حين يطوف بالبيتِ معظّمًا لله، متذكّرًا أساسَ التوحيد الذي بُني البيت له: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾[2]. وهكذا حين يسعى بين الصفا والمروةِ يستيقنُ أن الغوثَ وكشفَ الكُروبِ لا يقدرُ عليه إلا اللهُ، فهو الذي رحم أُمَّ إسماعيل، وأنبعَ لها ماءَ زمزمَ حين بلغ بها الكربُ نهايتَه، وهكذا في سائرِ المواقفِ والأحوالِ، فلا كاشفَ للكروبِ ولا مُغيثَ إلا اللهُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[3]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[4].

أجل؛ لقد طهّر الخليلُ عليه السلام البيتَ الحرامَ من الأصنام، وجاء ابنُه من بعدِه محمدٌ ﷺ ليُجدِّدَ تطهيرَ البيتِ، فقد حطّمَ -حين فتحَ مكةَ- ستين وثلاثمائة صنمًا كانت تحيطُ بالكعبة.

وحين يكون تحطيمُ الأصنامِ سنةً نبويةً، فَمن حطّم الأصنامَ مِنْ بعدُ، سواء في مكةَ أو في غيرِها، فهو سائرٌ على سُننِ المرسلين، وهو واجدٌ العونَ والمددَ من ربّ العالمين.

---

(١) محمد الحمد «التوبة» ص (٣).
(٢) سورة الحج، الآية: ٢٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٧.
(٤) سورة النمل، الآية: ٦٢.

إنك لتعجبُ في هذه الأزمانِ حين تثورُ ثائرةُ الكفرِ لأصنامٍ تُحطَّم.. ويأخذك العَجبُ أكثر حين يدافعُ عن الأصنامِ المحطّمةِ أناسٌ من المسلمينَ.

وحين تُحطَّمُ الأصنامُ التي تُعبدُ من دونِ الله بأيدي المسلمين، يكون الاعتراضُ بالحِفاظ على التُّراثِ أو رموزِ الحضارةِ بزعمِهم، ولكن شيئًا من ذلك لا يكون حين يُعبثُ بمقدّساتِ المسلمينَ أو تُهدمُ المساجدُ بأيدي الكافرين.

٧- عبادَ الله: وهذه الطاعاتُ التي تقرّبتم بها إلى خالقِكم، لا يكن آخرُ عهدِكم بها الانتهاءَ منها، بل ألِحُّوا على اللهِ بالدعاءِ لقبولها، فليسَ المهمُّ الأداءَ، وإنما الأهمُّ القبولُ، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. اسألوا ربّكم أن يتجاوزَ عن التقصير، ويعفو عن الخَللِ ثم تذكّروها حين تتذكرونها فرحينَ بأدائها، مُثنينَ على الله إذ وفّقَ وأعانَ عليها، فتلك فرحةٌ مشروعةٌ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

وفرقٌ بين من يَذْكرِ الطاعةَ التي عملَها مستكثرًا إياها على اللهِ، مانًّا بها على ربِّه.. فذاك لا يليقُ بالعبدِ، وربما أحبطَ العملَ. وبين من يتذكرُ الطاعةَ ليزيدَ من شكره لربِّه - وليسألَه القبولَ على عملِه، وهكذا ينبغي أن نتذكرِ الطاعاتِ لا لنِمُنّ على الله بها، أو نغترّ بأعمالنا.. بل للفرحِ بفضلِ الله وتوفيقِه.. ولسؤاله القبولَ والمزيدَ من فضله. تلك مشاعرٌ قد تغيبُ أو يحصلُ بها الخلطُ في المفاهيم، والموفقُ من وفَّقه اللهُ.

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2].

❁ ❁ ❁

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.
(٢) سورة الإنسان، الآيتين: ٢، ٣.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لمن يستحقُّ الحمدَ والثناءَ، والشكرُ لله على كلِّ حالٍ، وقد وعدَ بالمزيدِ لمن شكر، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائرِ المرسلينَ.

إخوةَ الإيمان: ونحمدُ الله على سلامةِ الحُجاجِ، ونسألُ اللهَ إذ سلّمهم وأعانَهُم على قضاء نُسكِهم، أن يتقبلَ منهم، أما من أصيبَ من الحُجاجِ أو توفاه اللهُ، فنسألُ الله له المغفرةَ والرضوانَ، ولأهله الصبرَ والاحتسابَ.

عبادَ الله: وإذا كان الأمنُ للحجاجِ مطلبًا ضروريًا، وأنَّى لخائفٍ أن يؤدِّي مناسكَ الحجِّ ومشاعرَه، وتلك نعمةٌ امتنّ اللهُ بها على الناسِ قديمًا وحديثًا، وذكَّرهم بهذه النعمة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[(١)].

إذا كان الأمنُ للحُجاجِ مطلبًا ضروريًا.. فالأمنُ كذلك مطلبٌ لغير الحُجاج، بل هو مطلبٌ يتجاوزُ هذه الحياةَ إلى الحياة الآخرةِ حين يفزعُ الناسُ يومَ الفزعِ الأكبرِ، ولا مأمنَ لهم إلا رحمةُ الله وعملُ الصالحاتِ التي بها يؤمنون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٢)]. ألا فتذكّروا هذا الفزعَ الأكبرَ، وقدِّموا لأنفُسِكم أسبابَ الأمنِ.

ثم اعلموا -رحمكمُ اللهُ- أنّ الأمنَ في الدُّنيا مطلبٌ، والبحثَ عن السلامةِ وسيلةٌ للعبادة، وحين تُنظَّمُ حملاتُ التوعيةِ لأيِّ نوعٍ من أنواعِ الأمن، فينبغي أن

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧. (٢) سورة الأحقاف، الآيتين: ١٣، ١٤.

يكونَ للمسلمِ دورٌ فاعلٌ وإسهامٌ واعٍ في إنجاحِها؛ لأنَّ مردودَها في النهايةِ للجميع.

أجل، إنّ حَصْدَ الأرواحِ وإتلافَ الممتلكاتِ، وانتشارَ الإصاباتِ والإعاقاتِ.. كلُّها تنجُمُ حين يغيبُ الوعيُ المروريُّ بأنظمةِ السّيرِ وآدابِ الطريقِ، ويخطئُ من يظنُّ أنّ هذه الأنظمةَ المروريةَ قوانينُ وضعيةٌ.. وبالتالي فلا حرَجَ في تجاوزِها، ولا خيرَ في عدمِ الالتزامِ بها.. وهنا وقفةُ تصحيح يَقفها العلامةُ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ وهو يفرّقُ بين أنواعِ الأنظمةِ الوضعيةِ فيقول: «اعلم أنه يجب التفصيلُ بين النظامِ الوضعيِّ الذي يقتضي ذلك، وإيضاحُ ذلك أن النظامَ قسمان: إداريٌّ وشرعيٌّ، أما الإداريُّ الذي يُراد به ضبطُ الأمور وإتقانُها على وجهٍ غيرِ مخالفٍ للشرع، فهذا لا مانع فيه، ولا مُخالفَ فيه من الصحابةِ فَمَن بعدَهم، وقد عملَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من ذلك أشياءَ كثيرةً ما كانت في زمنِ النبيِّ ﷺ». ثم ذكرَ الشنقيطيُّ رَحِمَهُ اللهُ أمثلةً لهذه الأنظمةِ، ثم ختم بقوله: «فهذا النوعُ من الأنظمةِ الوضعيةِ لا بأسَ بهِ، ولا يخرجُ عن قواعدِ الشّرعِ من مُراعاةِ المصالحِ العامةِ»[1].

وثمّةَ فتاوى لسماحةِ الشيخ ابنِ بازٍ رَحِمَهُ اللهُ وسماحةِ الشيخ ابنِ عثيمينَ -يرحمه الله- تؤكدُ الالتزامَ بالأنظمةِ الداعيةِ للسلامة، وتُحذّرُ من المخالفاتِ التي تؤدي إلى إزهاقِ الأرواحِ والممتلكاتِ.

أيها المسلمونَ: وثمةَ نوعٌ من التهوّرِ تمارسُه فئةٌ من الشبابِ، وعلى جهاتِ الأمنِ أن تتعاملَ مع أصحابِه بكلّ جدّيةٍ وحزمٍ، وعلى الآباءِ والأولياءِ ألا يشفعوا لأصحابِ هذه الممارساتِ الخاطئة المهلِكة، فهل سمعتم عن قطعةِ

---

(١) أضواء البيان: ٣/ ٢٦٠.

الموتِ؟ إنها مراهنةُ المراهقينَ على اجتيازِ الشوارع المتقاطعةِ حتى وإن كانت الإشارةُ حمراءَ تمنعُ السيرَ، فهؤلاء يأتون بأقصى سرعةٍ مجتازينَ للشارعِ مهما كانت الخسائرُ، وكم وقعتْ نتيجةَ هذه الحركاتِ الصبيانيةِ من خسائرَ وحوادثَ مروّعةٍ، وحقُّ هؤلاء أن يُمنَعوا من القيادةِ، وأن تُصادرَ سياراتُهم إلى الأبد ليكونوا عبرةً لغيرهم.

وعلى صعيدٍ آخرَ، وفي تحليلٍ أصدرته قواتُ أمنِ الطُّرقِ جاءَ فيه: تَجاوزُ السّرعةِ النظامية، وعدمُ الاهتمامِ بسلامةِ الإطاراتِ على رأس أسبابِ الحوادثِ في المملكةِ، وقد جاءتْ محصّلةُ الحوادثِ لعام ١٤٢٠ هـ تحمل الإحصاءات التاليةَ:

(٥١٧٩) حادثًا مروريًّا، منها (١٨٠٠) حادثِ انقلاب، (١٧٧٥) حادثِ تصادم، وأشارَ التقريرُ إلى أن عددَ المصابينَ بهذه الحوادث (٢٦٤٢) سعوديًّا، وغيرَ سعوديّ (١٧٢١)، وعددُ الوفيات لعام ١٤٢٠هـ بلغت (٥٣٦)[1].

وفي إحصائيةٍ لمنطقة القصيم لعام ١٤٢٠هـ بلغ عددُ المصابين (١١٦٦)، وعددُ الوفيات (١٧٦).

إن هذه الإحصاءاتِ وغيرَها تدعو للتأمّلِ واليقظةِ، والتعاونِ فيما من شأنه وجودُ (جيلٍ مروريّ واعٍ)، فتلك مسئوليتُنا جميعًا.. ولكنّ جهاتِ الأمنِ عليها كِفْلٌ كبيرٌ من المسئولية، فلا بد أن تنتهي إلى قراراتٍ حاسمةٍ ومتابعاتٍ جادّةٍ تضعُ حدًّا للمتهورينَ، وتأخذُ بيدٍ من حديد على كلّ من يعبثُ بالأمنِ أو يتسامحُ في أرواحِ أو ممتلكاتِ الآخرين، وفي كلّ عامٍ نسمعُ عن ملتقىً أو أسبوعٍ للمرورِ - ولكننا نتطلّعُ إلى حلولٍ جذريةٍ وخططٍ واعيةٍ للسلامة، وأنماطٍ

---

(١) جريدة الرياض، تصريح مدير أمن الطرق.

حضارية، يمكن أن يشتركَ في صياغتها إلى جانبِ رجالِ الأمن أساتذةُ الجامعاتِ والمفكّرونَ وأصحابُ الرأي.



ألا ويح الملعونين! ومَن همْ؟[١]

الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ غافرِ الذنب وقابلِ التوبِ شديدِ العقابِ ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلى اللهَ وحدَه لا شريكَ له، أمرَ بالعدلِ والإحسانِ وحُسنِ العبادةِ له، ونهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغي يَعظكم لعلكم تذكَّرون، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، كان أحسنَ الناسِ خَلْقًا وأكملَهم خُلُقًا، وبعثَه ربُّه ليتمِّمَ مكارمَ الأخلاق.. اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وارضَ اللهم عن الصحابةِ أجمعين والتابعينَ ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[٣].

عبادَ الله: إن الناسَ كلَّ الناسِ تنشرحُ صدورُهم للثناءِ، وجُبلت قلوبُ المؤمنين على حبِّ الخيرِ وإشاعةِ المعروفِ، هم محبُّونَ لطيبِ الكلامِ، وإشاعةِ السُّرور، وتحقيقِ البهجةِ وتوفيرِ السعادةِ.. وكلُّهم يُبغضُ الفُحشَ والبذاءَة، ويكرَهُ الذمَّ والسبَّ، ويتضايقُ من اللعنِ والشتمِ والطعنِ.

لكن ما رأيُكم فيمن يجلبُ لنفسِه أسبابَ الأذى، ويُعرّضُ نفسَه للعنِ والطردِ

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٦/ ١/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتين: ٧٠، ٧١.

والإبعادِ، لا من قبلِ الناسِ، بل من قبلِ اللهِ ورسولهِ ﷺ؟!

إنه ليس مُكرَهٌ على اللعنِ، لكنه جاهلٌ أو عاجز.. واللعنةُ عليه ليست إلى الأبد، بل بإمكانِه التخلصُ منها.. لكن مع الصدقِ وقوةِ العزيمةِ، والمسارعةِ بالتوبةِ.

أيها المسلمونَ: سأقفُ وإياكم على طائفةٍ من الخصال والأخلاقِ والممارساتِ، لُعن أصحابُها في كتابِ الله، أو ما صحّ من سنةِ رسول الله ﷺ، ألا ويحَ الملعونينَ من اللهِ أو على لسانِ رسولِه ﷺ، والله يقول: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾(١).

ويقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾(٢).

وحين أسوقُ هذه الخلالَ والممارساتِ، فإنما أسوقُها لأحذِّركم ونفسي من الوقوع في شيءٍ منها، ومن جَهِلَ وعلِمَ فعليه العملُ، ومن علِم بها وضعُفت همَّتُه عن الحذرِ منها فليتّقِ اللهَ، وليخلِّص نفسَه من أسباب الطردِ عن رحمة اللهِ مادامَ على قيدِ الحياة.

فيا تُرى من هم الملعونون؟ وما هي الصفاتُ والأعمالُ الموجبةُ للعن؟

وسأكتفي بذكرِ خمسَ عشرةَ خصلةً منها أو تزيد:

١- **يا أخي المسلم**: احذرِ الظلمَ بكافةِ صورِه وأشكالِه، وللقريبِ أو للبعيد، في المالِ أو العرضِ أو سائرِ الحقوق والواجباتِ، فإن الظلمَ ظُلماتٌ يومَ القيامةِ، والظالمونَ ملعونونَ في كتاب اللهِ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣)، ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤)، وأخبر سبحانه عن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٢.
(٢) سورة محمد، الآية: ٢٣.
(٣) سورة هود، الآية: ١٨.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٤.

نفسه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

٢- واحذر الكذبَ فهو يهدي إلى الفجور، والفجورُ يهدي إلى النار، والكاذبونَ ملعونونَ كذلك في كتاب الله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٢]، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٣].

وكم يتساهلُ نفرٌ من المسلمينَ بالكذبِ، إنْ في البيعِ أو الشراء، أو في القضاءِ أو الاقتضاءِ، في ادِّعاء الحقوقِ أو إنكارِ الواجباتِ، كذبٌ بين الرجال، ومثلُه أو أعظمُ بين النساءِ، وهكذا يسري بين الشبابِ والأطفالِ.. ولا يزَالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكتبَ عند الله كذَّابًا.. فاحذروا الكذبَ كلَّه أبيضَه وأسودَهُ، قليله، وكثيرهُ، واتقوا اللعن في كتابِ اللهِ.

٣- معاشرَ المسلمين: واحذروا قطيعةَ الأرحامِ، فقد جاءَ الوعيدُ بقطعها في القرآن مقرونًا باللعنِ، ومعه الصمَمُ والعَمى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[٤].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: في الآيةِ نهيٌ عن الإفسادِ في الأرضِ عمومًا، وعن قطعِ الأرحامِ خصوصًا[٥].

وروى الإمامُ أحمدُ بسندِه إلى النبيِّ ﷺ ما يكشفُ عن عقوبة قطيعةِ الرحمِ، فقال عليه الصلاة والسلام: **«ما من ذنبٍ أحرَى أن يُعجِّل اللهُ عقوبتَه في الدُّنيا، مع ما يدَّخرُ لصاحبِه في الآخرة من البغي وقطيعةِ الرَّحِمِ»**[٦].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦١.
(٣) سورة النور، الآية: ٧.
(٤) سورة محمد، الآيتين: ٢٢، ٢٣.
(٥) تفسير الآية السابقة ٧/ ٣٠٠.
(٦) رواه الترمذي وأبو داود وغيرهم وصححه الألباني «صحيح الجامع» ٥/ ١٦٣.

وساقَ ابنُ كثير في «تفسيره» حديثًا عن لعنةِ قطيعةِ الرحِمِ، حيث قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا ظهر القولُ، وخُزِنَ العملُ، وائتلفتِ الألسنةُ وتباغضتِ القلوبُ، وقطعَ كلُّ ذي رحمٍ رحِمه، فعند ذلك لعنَهمُ الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم**»[١].

يا قاطعَ الرحمِ توقَّفْ وتذكَّر.. أما لكَ في القرآن مُزدَجَرٌ، أما لكَ في الوعدِ والوعيدِ من محمدٍ ﷺ مُعتبر؟ واحذر أن تكونَ ممن يقرأُ القرآنَ، ولكن كأنما بك عن الحقِّ صَمَم، وعن قبولِ الخيرِ عمى؟!

٤- أيها المؤمنونَ: وممَّن لعنهم اللهُ وجاء الخبرُ بلعنِهم من الملائكةِ والرسلِ: شاربُ الخمرِ وعاصِرُها، وساقيها، وبائعُها ومبتاعُها، وبقيةُ من جاء لعنُهم في الحديث الذي رواه أحمدُ والحاكمُ والطبراني وغيرُهم بسندٍ صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أتاني جبريلُ فقال: يا محمدُ، إنَّ اللهَ ﷻ لعنَ الخمرَ وعاصِرَها ومُعتصِرَها وشارِبَها وحامِلَها والمحمولةَ إليه، وبائعِها ومبتاعَها وساقيَها ومستقيَها**»[٢].

والخمرُ كلُّ ما خامرَ العقلَ وغطَّاه.. سواءً كان شُربًا أو أكلًا لمخدراتٍ أو نحوِها.. فاحذر أخي المسلم من الفضيحةِ في الدنيا واللعن والطردِ عن رحمة اللهِ في الآخرةِ.

٥- إخوةَ الإسلام: والراشي والمرتشي ملعونانِ بلعنةِ الله ولعنة رسوله ﷺ، فقد صحّ في الخبر أن رسولَ الله ﷺ قال: «**لعنَ اللهُ الراشي والمرتشي في الحُكمِ**»[٣].

---

(١) التفسير ٧/ ٣٠٣.

(٢) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني (٨٣٩).

(٣) رواه أحمد والترمذي وغيرهما «السلسلة الصحيحة ٢٦٢٠».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لعنَ رسولُ الله ﷺ الراشي والمرتشي»[١].

والرشوةُ أكلٌ لأموال الناسِ بالباطل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

ألا فاحذروا معاشرَ المسلمين من الرشوةِ مهما كانت مسمياتُها، وسواءً كان آخذُها تاجرًا أو موظفًا، ذكرًا أو أنثى، كبيرًا أو صغيرًا. فستسألونَ عن أموالكم من أين اكسبتموها وفيما أنفقتموها.

٦- معاشرَ الرجالِ: واحذروا التشبهَ بالنساءِ، واحذرن معاشرَ النساءِ التشبُّهَ بالرجال، فكلٌّ أولئك تلاحقهمُ اللعنةُ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: **«لعن الله المتشبهاتِ من النساءِ بالرجال، والمتشبهينَ من الرجالِ بالنساء»**[٣].

وفي الحديث الآخر: **«لعنَ اللهُ الرجلَ يلبسُ لبسةَ المرأة، والمرأةَ تلبسُ لبسةَ الرجل»**. وفي رواية: لعن رسولُ الله[٤]، وفي «صحيح» البخاريِّ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: «لعنَ النبيُّ ﷺ المخنثينَ من الرجالِ والمترجلاتِ من النساءِ وقال: أخرجوهم من بيوتكم»[٥]. ألا ويحَ المتشبهينَ والمخنثينَ والمترجلاتِ؟

٧- وتلاحقُ اللعنةُ كذلك النساءَ المغيّرات لخلقِ اللهِ، وذلك بالنمصِ والوشمِ

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه. «السلسلة الصحيحة ٢٦٢٠».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه بسند صحيح. وفي البخاري نحوه (ح٥٨٨٥) والترمذي (٢٧٨٥)، وابن ماجه (١٩٠٤) وغيرهم (انظر: صوت المنبر: د. صالح الونيان ٢/ ٢٦١).

(٤) رواه أبو داود في اللباس (ح٤٠٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٧١).

(٥) حديث: (٥٨٨٦).

والتفلُّج .. قال ﷺ: «**لعنَ اللهُ الواشماتِ والمستوشماتِ والنامصاتِ والمتنمصاتِ، والمُتفلجاتِ للحُسنِ، المغيراتِ خلقَ الله**»(١).

وكم تخطئُ المرأةُ وهي تتابعُ الموضةَ وإن كانت محرَّمةً.. وكم تبتعدُ المرأةُ عن هدي الإسلام، وتقعُ في لعنةِ الله حين تُغيرُ خلقَ الله بنفسِها، أو تذهبُ إلى محلاتِ التجميلِ لتفعلَ بها ما تشاء.. وهنا لفتةٌ وتذكيرٌ وتحذيرٌ لمحلاتِ تجميلِ النساءِ.. حين تتساهلُ في ما حرَّم اللهُ، وقد تغري المرأةَ أو تغررَ بها. واللعنةُ شاملةٌ للنامصةِ والمتنمصةِ والواشمةِ والمستوشمةِ كما في الحديث السابق: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾(٢).



(١) رواه البخاري ومسلم (ح٥٩٣١، ٥٩٣٩.. ومسلم ح(١٢٠) وغيرهم).

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٩.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ يُحبُّ التوابينَ ويحبُّ المتطهرينَ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، حببَ إلى عبادِه المؤمنينَ الإيمانَ وزيَّنهُ في قلوبِهم، وكرّه إليهمُ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه هدى الأمةَ لأحسنِ الأخلاقِ والأعمالِ، ونهاهم عن المنكراتِ والمكروهاتِ من الأخلاقِ والأعمالِ.

اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

إخوةَ الإسلام:

٨- وما ظنكم بكبيرةٍ من كبائرِ الذنوبِ حرّمها الإسلامُ، بل وأعلنَ اللهُ الحربَ على مرتكبيها، وأصحابُها ضِمن من لُعنوا على لسانِ رسول الله ﷺ؟! إنهم أكلةُ الرّبا وموكلوه وكتبتُه وشاهدوه، ففي «صحيح» مسلم وغيرِه: «لعنَ رسولُ الله ﷺ آكلَ الرّبا وموكِلَه وكاتبَه وشَاهدَيْه، وقال: هم سواء»[(١)].

تُرى كم يَشقى بهذه اللعنةِ أفرادٌ في مجتمعِنا - ممن سوّل لهم الشيطانُ وأملى لهم التكثّرَ بالرّبا.. وهل علمَ هؤلاءَ أن الربا وإن كثُر فعاقبتُه إلى قلّ.. بل هو محقٌ للمالِ وبركتهِ بشهادةِ العليم الخبير: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا﴾[(٢)].

وإذا كانت تلك شهادةَ القرآن، فشهادةُ الواقع كذلك برهانٌ على هذا المحقِ، وكم يتحدثُ الناسُ عن أفرادٍ تحولوا بين عشيَّةٍ وضُحاه من دائنينَ إلى مدينين، ومن أغنياءَ إلى فقراءِ، وحتى لو لم يحصلْ لهم شيءٌ من ذلك في الدنيا، فيكفيهم خزيًا وعارًا وندامةً وخُسرانًا، أنهم لا يقومون من قبورهم يومَ القيامة:

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٧)، والترمذي (١٢٠٦)، وأبو داود (٣٣٣٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[١]، بابُ التوبةِ مفتوحٌ للمُرابين.. ولكنّ الخلودَ في النار جزاءُ العائدين: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ألا فخلّصوا أنفسَكم من اللعنةِ يا من تُرابون، وقُوا أنفسَكم الخلودَ في النار يا من تجمعونَ ما لا تأكلون، ولا تجنوا على أنفسِكم وعلى أولادكم بأكلِ السُّحتِ وأنتم تعلمون، ولا تُبارزوا ربَّكم بالمحاربةِ وأنتم المساكين!

٩- عبادَ الله: وثمةَ خِصالٌ لُعن أصحابُها، تجمع مَن سبَّ والدَيه، أو ذبحَ لغيرِ الله، أو غيَّرَ تخومَ الأرضِ.. فعنها وغيرِها قال ﷺ: «**ملعونٌ من سبَّ أباه، ملعونٌ من سبّ أُمَّه، ملعونٌ من ذبحَ لغيرِ اللهِ، ملعونٌ من غيّر تخومَ الأرضِ، ملعونٌ من كَمِهَ أعمى عن الطريق** (أي أضلَّه)**، ملعونٌ من وقعَ على بهيمةٍ، ملعونٌ من عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوطٍ**»[٢].

ألا فاحذروا هذه الخِلالَ كلَّها وترفَّعوا بأنفسكم عن مقارفتها.

١٠- وترويعُ المسلمِ موجبٌ للعنةِ، وفي «صحيح» مسلم في كتاب البر والصلة بابُ النهي عن الإشارةِ بالسلاح إلى مسلم، ساق الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «**من أشار إلى أخيهِ بحديدةٍ، فإنَّ الملائكةَ تلعَنُه، وإن كان أخاه لأبيه وأمّه**»[٣].

وكم يتساهلُ بعضُنا بهذا الأمر، والأمرُ خطير. وكم بدأ بمزاحٍ ثم يتحولُ إلى كارثةٍ وأتراحٍ، فالزموا أمرَ الإسلام، ولا تُروِّعوا آمنًا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

(٢) رواه أحمد بسند صحيح. انظر: صحيح الجامع ح(٥٧٦٧).

(٣) مسلم برقم (٢٠٢٠) و(٢٦١٦).

١١- إخوةَ الإسلام: وإياكم والتحايلَ على ما حرَّم اللهُ، فهو وإن خَفيَ على البشرِ فلا يخفى على خالقِ البشرِ، والمُحلِّلُ لامرأةٍ بانت من زوجها والمُحلَّلُ له كلُّهم ملعونون بحديث رسول الله ﷺ حيث قال: «**لعنَ اللهُ المُحلِّلَ والمُحلَّلَ له**»(١).

إن هذا المُحلِّلَ تيسٌ مُستعار. وهو والمحلَّلُ له استحلُّوا ما حرَّمَ اللهُ بالحيلة، وهتكِ المروءة، وقلةِ الحمية، وضعفِ الرقابة للهِ؟

١٢- معاشرَ النساءِ وحين لا تستجيبُ إحداكنُ لأوامر الزوجِ ولا تُطيعُه بالمعروف، فيبيتُ غضبانَ عليها، فإن اللعنةَ تصيبُها فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا دعا الرجلُ امرأتَهُ إلى فراشِه فأبتْ، فباتَ غضبانَ عليها لعنتها الملائكةُ حتى تُصبحَ**».

١٣- معاشرَ الرجالِ: وإياكم وإتيان النساءِ في أدبارهنَّ، فذلك مع استقذارهِ وهو يُفوِّتُ على المرأة حقَّها من الزوجِ، ويخالفُ الهدفَ من الزواج وهو الإعفافُ وابتغاءُ الولد، قال ﷺ: «**ملعونٌ من أتى امرأةً من دبرها**»(٢).

١٤- أيها المسلمون: وممن لُعنوا في كتاب اللهِ الذينَ يؤذون الله ورسولَه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(٣).

١٥- والذين يكتمونَ ما أنزلَ الله من البينات والهدى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٦٢)، وابن ماجه (١٩٠٣) د. صالح الونيان، «صوت المنبر» ٢/١٢٥٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١].

عبادَ الله: ليس هذا حصرًا للملعونين في كتابِ الله وسنةِ رسولِه ﷺ، وإنما هو بيانٌ لشيءٍ منها، وقد عقدَ ابنُ القيمِ رحمه الله في كتابه «الداء والدواء» فصلًا في ذنوبٍ تُدخلُ العبدَ تحت لعنةِ رسولِ الله ﷺ، ومن لعنه الله، فزَادت عنده على ثلاثينَ نوعًا، منها ما سبقت الإشارةُ إليه، ومنها من ضارّ مسلمًا أو مكرَ به، ومن آوى محدثًا، ومن انتَسبَ إلى غير أبيه، ومن سبَّ الصحابةَ، ومن أفسدَ امرأةً على زوجها، ومن جعلَ سبيلَ الكافرينَ أهدى من سبيل المؤمنينَ. إلى غير ذلك. ومن شاء المزيدَ فليرجع إليه[٢].

أيها المسلمُ والمسلمة: ادرءوا عن أنفسِكم وأهليكم وأولادِكم أسبابَ لعنِ اللهِ أو لعن رسولِهِ ﷺ إننا نأنفُ من اللعنِ في لغةِ التخاطبِ بيننا، فكيف نرضى باللعنِ من خالِقنا أو نبيِّنا؟ وإذا تطاولَ علينا لاعنٌ بغير حقٍّ دافعْنَا وانتصَرْنا لأنفسِنا. أفلا ندفعُ نزغاتِ الشيطانِ، ونتعالى على أسبابِ اللعن من خالقنا؟ ويومَ أن تسمعوا مثلَ هذه الأخلاقِ السيئةِ والممارساتِ الخاطئةِ المؤديّةِ للعنِ، فلا تظنوا أن المخاطبَ غيرُكم، بل اتهموا أنفسَكم، وجاهدوا أهواءكم، وأصلحوا ذاتَ بينكم، وتناصحوا بالمعروفِ، وتناهَوْا عن المنكر، ولا يأنفْ والدٌ من نصيحةِ ولدِه، ولا يترددُ ابنٌ في نصح أبيه، ولا زوجٌ ولا زوجةٌ في مصارحةِ بعضِهم بعضًا، والمؤمنونَ أخوةٌ وهم نصحةٌ فيما بينهم، والمصيبةُ حين تفشو المنكراتُ ولا مُنكِرٌ، وتحيقُ اللعنةُ أو اللعناتُ في مجتمعِ المسلمينَ ولا

---

(١) سورة البقرة، الآيتين: ١٥٩، ١٦٠.

(٢) الداء والدواء، ط المدني ص(٨٣ - ٨٥).

مُنذر أو مُدَّكرٌ، وإذا رأيتَ ثمّ رأيتَ الضيقَ والكَدَرَ، والهمومَ والقلقَ تُحيطُ بفئةٍ من الناسِ فاعلم أنها المعاصي والبعدُ عن هدي المرسلين، ثم تذكّر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[1].

اللهم إنا نعوذُ بكَ من تحولِ عافيتك، وفُجاءة نقمتِك، وجميعِ سخطكَ.



(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

القاتِلُ البطيءُ[1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، أحلَّ لنا الطيباتِ ونهانا عن الإسرافِ فيها، وحرّمَ علينا الخبائثَ والإسرافَ فيها من بابِ أولى.

وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، تركَ الأمةَ على محجَّةٍ بيضاءَ، وما توفّاه ربُّه إلا والحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، أما المتشابهاتُ فالسعيدُ من اتقاها واستبرأ لدينهِ وعِرْضِه، ومن ضعُفت همَّتُه ووقعَ في الشُّبهاتِ، فإن ذلك طريقٌ للوقوعِ في المحرماتِ كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه.. اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وارضَ اللهم عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[3].

إخوةَ الإسلام: ما هذا الداءُ الذي وقعَ في شراكِه فئامٌ من المسلمينَ، وتسلَّلت آثارُه من الكبارِ لتصلَ إلى الصغار، وعمَّت البلوى به، فتضررَ غيرُ المتعاطينَ له حين يُصرُّ المُبتلونَ به على تناوله في مجمع الناس وملتقياتِهم العامةِ - وفي حال سفرِهم أو إقامتِهم، إن هذا الداءَ يبدأ عبثًا أو تقليدًا.. ثم لا يلبثُ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٤/٦/١٤٢١هـ.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

أن يتحولَ إلى عادةٍ متأصِّلةٍ يُخيِّلُ للمُبتلى به أنه لا يستطيع الفكاكَ عنه وليس الأمرُ كذلك، إنه وباءٌ يسري في الأمةِ ليخرِمَ مروءَتها وشهامةَ أبنائِها، ويَشيع فيها نوعًا من التبعيةِ والتقليدِ للآخرينَ، وتُشكلُ مدفوعاتُه ضربةً في اقتصادِها، وهو مرضٌ يسري في جسمِ المدخنِ، فلا يكادُ يَمُرّ بعضوٍ إلا أفسدَه، وربما أقعدَه المرضُ، أو كانت الوفاةُ نهايتَه وسببَه؟

أجل؛ لقد قالوا عن التدخين: إنه القاتلُ البطيءُ، وقالوا: إنه بوابةُ الأمراضِ، وقالوا: إن تسعينَ في المائة من وفياتِ الموتِ المفاجئ من المدخنينَ يرجع إلى جلطة الشُّريان، واحتشاءِ عَضَلةِ القلب؟ وقال أحدُ الأطباءِ: «لقد مضى على معالجتي للسرطانِ خمسٌ وعشرونَ عامًا، فلم يأتني مصابٌ بسرطانِ الحنجرةِ إلا مدخِّنٌ»[١].

وجاءَ في تقريرٍ لأحدِ مراكزِ البحوثِ الأمريكية: إن التدخينَ يؤدي إلى أعلى نسبةِ وفياتٍ في العالم بالمقارنةِ للحروبِ والمجاعاتِ[٢].

وهل تعلم أن خمسةً وتسعين بالمائة من مرضى شرايينِ الساقينِ هم من المدخنين[٣].

ومن رأي الطبِّ إلى حكمِ الشرعِ.. يقول سماحةُ الشيخ ابن بازٍ رحمه الله: والدخانُ بأنواعه كلِّها ليس من الطيباتِ، بل هو من الخبائث، لا يجوزُ شربُه ولا بيعُه ولا التجارةُ فيه كالخمر، والواجبُ على هؤلاء البِدَارُ بالتوبة إلى اللهِ، والندمُ على ما مضى، والعزمُ على ألا يعودَ، ومن تابَ صادقًا تابَ اللهُ عليه[٤].

---

(١) السيجارةُ في قفص الاتهام، دار ابن خزيمة (١٣٢).

(٢) النشرة السابقة ص٤. (٣) النشرة السابقة.

(٤) فتاوى شرعية في حكم بيع الدخان وتعاطيه، اللجنة الخيرية بجدة.

إن من المؤسفِ -حقًّا- أن يُحاصَرَ التدخينُ، وتقلّ نِسبُ المدخنينَ في البلادِ التي تصنع (التبغَ) وتصدِّره نتيجةَ حملاتِ التحذيرِ والمكافحةِ، ووضعِ الغراماتِ على الشركاتِ المنتجةِ.

أما بلادُ المسلمين فتظلُّ سوقًا للتصدير، تُزادُ فيها نِسبُ (النيكوتين) وترتفعُ معدلاتُ المدخنين؟

وهنا وقفةٌ للتأمُّل، وحقائقُ لا بد أن نَعِيَها، وندركَ الدرسَ من خلالها، ومن هذه الحقائق: أكتفي بقضيتين:

١- تعهدتْ شركاتُ التبغِ الأمريكية بدفع غرامةٍ مقدارُها ثمانٌ وستون وثلاثُمائة بليون دولار، وذلك لتسديدِ الدعاوى القضائيةِ الموجهةِ ضدَّها، وعلاجِ المتضررينَ من التدخين.

٢- وتدفعُ شركاتُ التبغ - كذلك - بليوني دولار سنويًّا لتمويلِ برامجَ مكافحةِ التدخين داخلَ أمريكا، والسعي لتخفيضِ نسبةِ التدخين بين المراهقين بنسبةِ ١٠% خلالَ عشرِ سنوات، وإذا لم يتحقَّقْ ذلك تدفعُ غرامةً أخرى تصلُ إلى بليوني دولار سنويًّا.

فهل يُصنعُ مثلُ ذلك أو قريبٌ منه في بلادِ المسلمينَ مع هذه الشركاتِ المنتجةِ والمصدِّرةِ؟ وما الأثرُ الذي خلَّفتْه هذه الإجراءاتُ وجودًا أو عدمًا؟

والجوابُ: في لغةِ الأرقام التي تقول:

إن الحربَ التي تشُنها دولُ أمريكا وأوربا على التدخين أدّى إلى انخفاضِ نسبةِ المدخنين، فقد انخفضت مبيعاتُ التدخين في أمريكا ما بين عام تسعينَ وخمسٍ وتسعينَ وتسع مائةٍ وألف للميلاد (١٩٩٠ - ١٩٩٥) بنسبة ٥,٤%، وأمريكا اللاتينية بنسبة ١١,٢%، وفي أوربا الغربية بنسبة ٧,١%، بينما يختلفُ

المؤشرُ في دول آسيا، إذ زادت مبيعاتُ التدخين بنسبة ٨,٨%، وجاءت أعلى نسبةِ زيادةٍ في العالم في الشرق الأوسط حيث بلغت ٧,١٧%؟![1].

إنها حقائقٌ مرةٌ، وأرقامٌ مذهلةٌ، خلاصتُها تعويضُ البلادِ الإسلامية لخسائرِ شركاتِ التبغ في الدولِ الغربية، وهنا يلحّ سؤالٌ: أَلَدى شعوبِ هذه الدولِ الكافرةِ موانعُ محذرةٌ عن التدخين أكثرُ مما لدى أبناءِ وشعوبِ المسلمين؟ أم بلغ أولئك القومُ حدًّا من الوعي ومستوى من التفكيرِ لم يبلُغْه المسلمونَ بعد؟

إن لدى المسلمَ من الموانعِ عن التدخين، ونصوصِ الترغيبِ والترهيبِ، ومفاهيمِ الثوابِ والعقابِ - بما يتجاوزُ الدنيا إلى الآخرة - ما لا يوجدُ مثلُه عند الأممِ الكافرةِ، ولكن الفرقَ في مستوى الوعي، والقدرةِ على ضبطِ النفسِ، وعلوِّ الهِمَّةِ، وتحكيمِ العقلِ.

نعم إن المدخنَ لا يجهلُ أثرَ التدخين، ولا ينكرُ أضرارَه، بل لعله أقدرُ من غيره على التعبيرِ عن هذه الأضرار، لكنه محتاجٌ إلى قرارٍ حازمٍ، وإرادةٍ قويةٍ تضعُ حدًّا للتسويف، وتنهي الصراعَ بين العاطفةِ ممثلةً في الشهوةِ الآسرة، وبين نداءِ الفطرةِ والعقلِ والدِّين التي تنظم الشهوةَ وتضعُ جسورًا فاصلةً بين الحلالِ والحرام، وتميزُ الضَّارَّ من النافع؟ كم تُنظَّمُ من حملاتٍ توعويةٍ عن التدخين، وقد يكون المدخنونَ أقلّ الناسِ عنايةً بها واستماعًا لبرامجها.

وكم نرى أو نسمعُ من ملصقاتٍ عن أضرارِ التدخينِ وضرورة الإقلاعِ عنه.. والمؤسفُ حين يكون المدخنونَ أقلَّ من غيرِهم في الوقوفِ عليها والاستفادةِ منها.

على أن ذلك لا يلغي أهميةَ التوعيةِ، ولا يعني الإحباطَ من آثارِ الحملاتِ..

---

(١) رسالة من القلب عن التدخين، عن اللجنة الخيرية لتوعية الشباب وحمايتهم من أضرار التدخين، جدة.

فالحقُّ أن لهذه الحملاتِ أثرَها، وقد أقلعَ -بتوفيقِ الله أولًا، ثم بسببِ هذه الحملاتِ- عددٌ من المدخنينَ، وتركوا التدخين إلى غير رجعة.

ولكنا لا نزالُ نخاطبُ فئةً من المدخنين تتصورُ - وهي مخطئةٌ - أن الحملاتِ لا تعنيها، وأن لغةَ الخطابِ لم تلامسْ - بعدُ - شغافَ قلوبِهَا.

مهلًا أيّها المدخن، فأنت المستفيدُ إن أقلعتَ، وأنت الخاسرُ إن أصررتَ - وحسبكَ أن تقدرَ للناصحينَ نُصحَهم، ومن تمام عقلِكَ ومروءتك أن تَفتحَ قلبكَ لمن يُهدي إليك عيوبكَ، ويفتحُ لك نافذةَ الخلاصِ من داءٍ يُقلقك دينًا ودنيا.

أخي المدخن: إني لك ناصحٌ وعليك مشفقٌ، وكم تُسعدُني وتُسعدُ الناصحينَ غيري حين تُشعرُنا بالاستجابة، وتُعلنُ بينكَ وبين نفسِك أو على ملإٍ من أصحابِكَ مفارقةَ التدخينِ إلى غير رجعةٍ، فإن قلتَ: أعدُكم بالتفكيرِ وسوف أسعى جاهدًا للخلاص، فلا تنس سلاحَ الدعاءِ ولا يَطُل بك أمدُ التسويفِ، فالليالي حُبلى بكلِّ جديدٍ، وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غدًا وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، وكم تُسعدُ أنتَ ونسعدُ من ورائكَ حين تنتقلُ إلى جوارِ ربّك تائبًا من كلّ معصيةٍ طالما أصررتَ عليها، واحمدْ ربَّك أنك تنتسبُ إلى دينٍ يدعو إلى التوبةِ ويعظمُ أجرَها.. بل وتبدَّلُ فيه السيئاتُ حسناتٍ، ويفرحُ الربُّ ويتحققُ الفلاحُ.

وباسم الإسلامِ والإيمانِ نُذكِّرك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

اللهم انفعنا بهدي القرآنِ وسنةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام.. أقول ما تسمعون.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين نعمُه علينا لا تُعدُّ ولا تُحصى، ومن يشكر فإنما يشكرُ لنفسِه، ومن كفر فإن اللهَ غنيٌّ عن العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيدِ الأولين والآخِرين، أرشدَ - وهو الصادقُ الأمينُ - إلى نعمةِ الصحةِ والغبنِ فيها، فقال عنهما وعن الفراغ: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ؛ الصحةُ والفراغ**».

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائرِ النبيينَ والمرسلين.

عبادَ الله: وإذا كانت الصحةُ والفراغُ أمانةً، وسوف يُسألُ الإنسانُ ما صنعَ فيهما، فالمالُ والعمرُ أمانةٌ كذلك، وسوف يسألُ المرءُ عنهما: «**لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسألَ عن أربع: عن عُمُرِه فيما أفناهُ، وعن علمه ما فعلَ به، وعن مالِه من أين اكتسبَه وفيمَ أنفقَهُ، وعن جسمِه فيما أبلاهُ**»[1].

أخي المدخن: ما موقفُك من هذا الحديثِ والموقفُ عصيبٌ، والمحاسِبُ يحاسبُ على النقيرِ والقطميرِ، ولا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، ولو تقاصرت نَظرتُك عند حدودِ الدنيا -وما ذلك بمحمودٍ- لقيلَ لك: أليسَ المالُ صعبًا جمعُه. . أليستَ الصحةُ مطلبًا يُبحثُ عنه وتُصرفُ الأموالُ لتوفُّرِه. . فما بالُك أيها المدخنُ تحرقُ مالكَ بنفسِك، بل وتحرقُ معه أحشاءك؟ وأُراكَ تسيرُ في اتجاه معاكس للآخرين، فهم يبحثونَ عن الصحةِ وأنت بطوعِك واختيارِكَ تتشبثُ بما يُسيءُ إليها؟ ويحرصونَ على المالِ وأنت من المهلكينَ له والمبذرينَ في إنفاقه.

يا صاحبي: وقل لي بربك ماذا جنيتَ من التدخينِ؛ فيما مضى من عمركَ،

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٤١٧) وصححه الألباني.

فدينُك لم يسلم، ودنياك في خطر، وأنتَ في وحشةٍ مع جيرانِكَ وأصدقائك، والأمرُ أخطرُ حين يقعدُ بك التدخينُ عن شهودِ الصلاةِ مع جماعةِ المسلمين؛ لأنك تخشى أذاهم برائحةِ التدخينِ، أو تنقطعُ عن زيارةِ وصلةِ أقربائك لأنك تشعرُ بالغربة بينهم حين تكونُ نشازًا في التدخين..

ألم يمنعْك التدخينُ يومًا من الجلوسِ مع الأخيار، وإن كنتَ تُحبّ الأُنسَ بهم والاستماعَ إلى أحاديثهم، ولكن يمنعك الحياءُ من معاشرتهم؟

ألم يقعد بك التدخينُ عن كثيرٍ من معالي الأمورِ - أنت أهلٌ لها، وبك من مقوماتِ الخيرِ ما يرشِّحُك لها.. ولكنَّ عتابَك لنفسك في الإصرارِ على شربِ الدخانِ حال بينك وبين المساهمةِ فيها.

أيها المدخنُ: وأنت حينَ تتوارى عن الأعين وتتخفَّى عن الأنظارِ في شربِ الدخانِ، فذلك مؤشّرٌ لحيائك -والحياءُ لا يأتي إلا بخيرٍ- ومؤشرٌ لخيريةِ المجتمعِ إذ ينكرُ هذه المظاهِرَ السلوكيةَ المنحرفةَ، ولكن قُل لي بربّك: ألا يؤلِمُكَ هذا التخفي، ألا تشعر بنقصٍ وأنت تتستَّر؟ وفي سبيل ماذا تُعذّبُ نفسك بذُلِّ المعصية، وتُرهقُها بآلام الشعورِ بالذنبِ دونما فائدة؟

دعني أصارحك وأقولُ: إنك تظلمُ نفسَك وتخطئُ في حساباتك حين تظنّ أن شُربَ الدخانِ يُفرج همّك، أو ينسيكَ آلامَك، أو يسعدك في حياتك، أو يسليك في غربتِك، أو يشعرك بالفرحةِ في مجاملةِ أصدقائك المدخنين، أو تقولُ في نفسِك: إنني عشتُ عليه صغيرًا وشبتُ عليه كبيرًا ويصعبُ عليّ فراقُه.. أو غير ذلك من أسبابٍ وحججٍ يتعلقُ بها المدخنون؟

واسمح لي أيها المدخنُ أن أسأَلَك وأدعُ الإجابةَ لك، هل تُصنّفُ التدخينَ ضمنَ الطيباتِ أم الخبائثِ؟

وهل ترضى لأحدٍ أن يقول عنك أنك مشجعٌ على انتشارِ الخبائثِ؟

هل تسمّي اللهَ حينما تبدأ بشربِ الدخانِ وتحمدُه في حالِ انتهائك، كحالك حين تتناولُ الطيبَ من الطعامِ والشراب؟!

وهل هناك مأكولٌ أو مشروبٌ تطؤه بحذائك أو ترمي به في مكانٍ غير مشرف كما تصنعُ بالسيجارة؟

ألست تشعرُ بالذنبِ حين تحملُ الدخانَ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ؟

وهل تُفكِّرُ في شربه في أحدِ المساجدِ؟ وماذا تعني هذه المشاعرُ عندك؟ هل حقّقَ لك التدخينُ مكانةً اجتماعيةً أو مكسبًا ماديًّا؟ أو تفوّقًا صحيًّا؟

هل ترضى أن يتعاطاه أحدُ أبنائك أو إخوانِك أو أقاربِكَ؟

أخي المدخن: ودعني أذكِّرك بقيمةِ ما تُهلكُ من المال والوقتِ - لا أشكّ أنك حريصٌ على وقتك ومالِك، فقد قالوا: إن المدخنَ لمدة عشرينَ سنةً إذا كان يدخنُ أربعينَ سيجارةٍ يوميًا يتكلفُ أكثرَ من سبعةٍ وخمسينَ ألفًا، وإذا كانت السيجارةُ الواحدةُ تستغرقُ خمسَ دقائقَ، فإن أربعينَ سيجارةً تستغرقُ مائتي دقيقة، فهل ترضى أن تقضي أكثرَ من ثلاثِ ساعاتٍ يوميًّا في معصيةِ الله؟ والعمرُ محدودٌ، والوقتُ أمانةٌ ومسئوليةٌ..

وكم من جياع المسلمينَ وفقرائهم ومنكوبيهم يحتاجُ إلى هذا المال الذي تنفقه فيما يضرُّك ولا ينفعُك، وربما استفادت منه دولٌ أو شركاتٌ تُحاربُ بها المسلمينَ، فهل يرضيك هذا؟(١)

إخوةَ الإسلام: ومما يلفتُ النظرَ أن العالمَ كلَّه يتخوفُ من مرضِ الإيدز -وحقَّ لهم ذلك- ولكن منظمةَ الصحةِ العالمية تقررُ أن التدخينَ أخطرُ وباءٍ عرفته البشريةُ في تاريخها الطويل، وأن ضحاياه تفوقُ ضحايا الإيدز، فإذا كانت

---

(١) انظر: القاتل البطيء (التدخين) دار الوطن (٨٤).

ضحايا الإيدز في عشرِ سنواتٍ بلغت مليونين ونصف، فإن هذا الرقمَ يمثلُ ضحايا التدخينِ في سنةٍ واحدةٍ، ومع ذلك تجدُ العالم كلَّه مرعوبًا من الإيدز، بينما يواصلُ المدخنونَ التدخينَ، وإن فتكَ بهم أضعافًا مضاعفة؟[(١)]

عبادَ الله: وإذا تضافرت الأدلةُ الشرعيةُ على تحريمِ الدخان، واتفقَ الأطباءُ على أضرارِه، وتنادت الهيئاتُ والمنظماتُ للتحذيرِ منه، وأجمعَ العقلاءُ على هدره للصحةِ والمالِ والوقت، فأيُّ شيءٍ يدعو العاقلَ فضلًا عن المسلم للتشبُّثِ به؟! وهنا أسجلُ عددًا من الوصايا عساها تُعينُ على الخلاصِ منه:

١- أقدِمْ أيّها المسلمُ على تركه بإرادةٍ قوية، وتذكّر أنك لستَ أولَ من تركه ولن تكونَ الأخيرَ.

٢- ومما يُخففُ عنك من آلامِ الإلفِ والعادةِ أن تتركَه طاعةً لله ورسولِه، وليس لمجردِ التخوفِ من أضراره الدنيوية، وفي هذا يقولُ ابنُ القيم رحمه الله: «إنما يجدُ المشقةَ في تركِ المألوفاتِ والعوائدِ مَنْ تركَها لغير اللهِ، أما مَن تركها مخلصًا من قلبه للهِ، فإنه لا يجدُ في تركِها مشقةً إلا في أول وهلةٍ؛ ليُمتحنَ أصادقٌ هو في تركِها أم كاذب، فإن صبرَ على تركِ المشقةِ قليلًا استحالت لذة»[(٢)].

٣- ابتعد -قدر طاقتك- عن مجتمع المدخنين، وعوِّض ذلك بأصحاب خيِّرين.

٤- اشغل وقتَكَ بمشاريعَ خيرةٍ تنسيكَ التفكيرَ في التدخينِ حاضرًا، وتسعدُ بها مستقبلًا.

---

(١) فتاوى شرعية في بيع الدخان .. اللجنة الخيرية/ جدة.

(٢) لماذا ندخن؟ محمد بن إبراهيم الحمد، دار الوطن، ص٩.

٥- راجع عياداتِ مكافحةِ التدخينِ إن احتجتَ إلى ذلك، فلهم في ذلك جهدٌ مشكور.

٦- ولا غنى لك -أيها المقلعُ عن التدخينِ- عن الصبر، لاسيّما في الأيامِ الأولى، ولكن تذكر أن لذةَ الانتصارِ على النفس والهوى أعظمُ من لذةٍ كاذبةٍ عابرة.

٧- ومن مصلحةِ المدخنينَ وغير المدخنينَ أن يُمنعَ التدخينُ في الأماكنِ العامةِ، ويتابعَ منعُه في الدوائِر الحكومية، وفي وسائلِ النقلِ البريةِ والبحريةِ والجوية، فذاك يحدّ من انتشاره، وربما كان داعيًا للمدخنين للخلاصِ منه.

٨- وكم هو جميلٌ أن تُعنى مناهجُ التعليمِ -بمراحلِه المختلفةِ- بالتحذيرِ منه بعباراتٍ جيدةٍ ومعلوماتٍ دقيقةٍ وحديثة.

٩- وأن تُعنى وسائلُ الإعلام -بكافةِ قنواتِها- بوضعِ برامجَ مفيدةٍ وصيحاتٍ محذرةٍ.

١٠- وهمسةٌ للمدخنين وغير المدخنينَ، فمن بُليَ بشيء من المعاصي فليجاهد نفسه على الخلاصِ منها.

وإنني في هذا اليومِ العظيمِ والجمعِ المبارَكِ داعٍ فأمِّنوا: اللهم عافِ كلَّ مبتليً ووفِّقْه للتوبةِ النصوح، وأبدل سيئاته حسناتٍ يا خيرَ مسئولٍ، يا ذا الجلال والإكرامِ.. اللهم ارحم ضعفَنا، وأعِنّا على أنفسِنا الأمارةِ بالسوء، ووفِّقنا لطاعتِك، وجنِّبنا معاصيك، اللهم حبِّب إلينا الإيمانَ وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيان.



من ثمرات الأمن في الأوطان وأسبابه(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، منَّ علينا بنعمةِ الإيمان والأمنِ في الأوطان، والصحةِ والسلامةِ في الأبدان ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(٢).

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، كلَّ يومٍ هو في شأن، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلى الله عليه وعلى إخوانه من الأنبياءِ والمرسلين، ورضي الله عن أصحابه والتابعينَ، ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

فأما بعد:

فاتّقوا الله أيها الناس: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(٤).

هذه وصيةُ الله لكم فاعقِلوها، وهذه نعمةُ ربِّكم فاشكروها.

أيها المسلمونَ: وحين نلتفتُ إلى الماضي قليلًا نتذكرُ ما نحن فيه من نعمةٍ حديثًا، لقد كانت هذه البلادُ -كما يحدِّثُنا التاريخُ في فترةٍ من الزمن- مسرحًا للفتن والحروبِ والنَّهب والسَّلبِ، حتى مَنّ اللهُ على أهلها بظهور دعوةِ التوحيد

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٧/٦/١٤٢١هـ.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الطلاق، الآيتين: ٢، ٣.

(٤) سورة آل عمران، الآيتين: ١٠٢، ١٠٣.

على يد الشيخِ الإمامِ المجدِّد محمدِ بن عبدِ الوهابِ يرحمه الله، وبمؤازرةٍ كريمةٍ من الإمام محمدِ بن سعودٍ يرحمه الله، وحينها التقى العلماءُ والحكامُ على نصرةِ هذا الدين، والقضاءِ على مظاهرِ الشركِ والفسادِ، فقامَ سلطانُ الدينِ ظاهرًا قويًّا، أمنَ الناسُ على أموالِهم، وأهليهم وعبدوا ربَّهم على علم وبصيرةٍ.

ولكنَّ الشانئينَ والحاسدين لم تطبْ نفوسُهم بهذا، وأجلبَ الشيطانُ بخيلِه ورَجِلِه على جندِه وأتباعِه، وعادتِ الجزيرةُ -بعد حين من الدهرِ- مرة أخرى مسرحًا للسلبِ والنهب.. يعلو سلطانُ الحقِّ تارةً.. وترتفع أعلامُ الجاهليةِ تارةً أخرى، تُسفكُ الدماءُ، وتُستحلُّ المحارمُ، ولا يأمنُ المرءُ على نفسِه ومَن حولَه.

وفي ظل هذه الأجواء القلقة ينامُ المرءُ حين ينام وشبحُ اللصوصِ يمرُّ على خياله، ويستيقظُ حين يستيقظُ فرحًا مسرورًا إذ لم يكن شيء من عوَّادِ الدهرِ وفاجعاتِ الأحداثِ أصابَه.

يكسَبُ كلَّ يوم مرَّ وهو آمنٌ في سِرْبه، ولم يُخدش فيه حياؤه، أو تُسلبْ أموالُه، أو تُنهَ حياتُه، وما أطولَ ليلَ الخائفين! وما أشدَّ فرحَ غير الآمنين بضوءِ النهار يكشفُ لهم الحقيقة، ويخيفُ الغادرين، تُرى في هذه الأجواءِ أيطمئنُّ المسلمُ في عبادته لربِّه؟ وفي ظل هذه الظروف أتستقرُّ الحياةُ وينعمُ الأحياءُ؟ وأنّى للدعوة والخير أن تنتشرَ، وحِلَقُ العلم معطلةٌ، والعلماءُ كغيرهم لا يأمنونَ على أنفسِهم فضلًا أن يوفِّروا الأمنَ لمن يَحمل العلمَ عنهم.

إنها صورٌ ينبغي أن نتذكَّرَها، وإن لم يعش بعضُنا أحداثَها.. وإن كان يفصلُ بيننا وبينها عقودٌ من الزمن.

إخوةَ الإسلام: إن اغتباطَنا بما نحن فيه الآنَ من نعمةِ الأمنِ لا ينبغي أن ينسينا الماضي، بل إن من التحدُّث بنعمةِ الله أن نقارنَ بين الماضي والحاضر،

ونتذكرَ بها نعمةَ اللهِ علينا في الحاضر.

أجل، لقد بدأ شبحُ الظلام يتوارى شيئًا فشيئًا، وفي كل بقعةٍ يتوارى الظلامُ تشعُّ فيها أنوارُ المعرفةِ والأمنِ والاستقرار.. حتى عمَّ الخيرُ وانتشر الأمنُ، وساد العلمُ وانطوى بساطُ الجهلِ.. وكانت بلادُ الحرمين مأوى الأفئدةِ، وملاذَ الخائفين، وبها تتوفرُ فرصُ العيشِ للوافدين.. فلك الحمدُ ربَّنا، وجزا اللهُ كلَّ من أسهمَ في نشرِ الخير وتوطيدِ دعائمِ الأمن في بلادِنا.

عبادَ الله: إن الأمنَ في الأوطانِ نعمةٌ لا يقدِّرُها حقَّ قدرِها إلا من عرفَ أو عاشَ خلافَها، وقد يتصورُ المرءُ خطًا وهو يعيشُ حالةَ الأمن والاستقرار أنَّ الناسَ كلَّهم كذلك، وليس الأمر كذلك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[1].

وفي حالِ غفلةِ الإنسان قد ينسى أو يجهلُ ثمراتِ الأمن.. وللأمنِ ثمراتٌ كثيرةٌ، ومنها: تحقيقُ العبوديةِ لله، والقيامُ بشرائع الدينِ كما أمرَ اللهُ، وكما جاء بها رسولُ الله ﷺ، وهل يستطيعُ الخائفُ أن يعبدَ ربَّه كما أراد، والحق تبارك وتعالى يربطُ بين العبودية له، وبين الأمنِ وتوفُّرِ المَطعم، ويقول: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[2].

إن توفرَ الأمن، ورغَدَ العيشِ مقوماتٌ أساسيةٌ للعبادة، وما من عبادةٍ إلا وتحتاجُ إلى هذا وذاك.

وإن فقدانَ الأمن، وشظفَ العيشِ بلوى يمتحنُ اللهُ بها عبادَه، ولكن الصبرَ طريقُ الفرج ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧.
(٢) سورة قريش، الآيتين: ٣، ٤.

عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[(١)].

ومن ثمراتِ الأمنِ في الأوطان: رخاءُ العيشِ، واستقرارُ الحياة، فإذا كان الإيمانُ سببًا للأمنِ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[(٢)].

فبركاتُ السماءِ والأرضِ تُفتَحُ لأهل الإيمان: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٣)].

إن الأمنَ ضرورةٌ لاستقرارِ الحياةِ ورَغَدِ الأحياءِ فبالأمنِ تُؤمنُ السُّبلُ، وتُجلبُ الخيراتُ، ويأمنُ التجارُ على أنفسِهم وأموالِهم، وبالأمنِ يُقمعُ الفسادُ، ويؤخذُ على أيدي المفسدين، وتكسدُ تجارةُ اللصوصِ ويُذلُّ (الشّطار).

ومن ثمراتِ الأمنِ: انتشارُ العلمِ وكثرةُ العلماءِ، والعلمُ أساسُ الحضارةِ، وميزانٌ لتقدمِ الدولِ، وهو مع الإيمانِ مجالُ سباقِ الأمم.

أما العلماءُ فهم ورثةُ الأنبياءِ عليهم السلام بهم يفتحُ اللهُ قلوبًا غُلْفًا، وآذانًا صُمًّا، وأعينًا عُميًا. وأنّى للعلمِ أن ينتشرَ حين يُخافُ العلماءُ، وأنّى لأمةٍ أن تُسابقَ الزمنَ وأبناؤها خائفون على أنفسِهم، مشغولون بلقمةِ العيشِ لهم ولمن حولَهم؟ وحتى لو وُجِدَ علماءُ جُرَءاء، ينشرون العلم سرًّا في ظروفِ الخوفِ والقلق، فليس ذلك سبيلَ انتشارِ العلم، وإنما يهلكُ العلمُ إذا كان سِرًّا، وإنما سبيلُ نشرِه ونموِّ مؤسساتِه حين يتوفَّرُ الأمنُ، وتستَقرُّ الحياةُ، ويأمن الأحياءُ.

إخوةَ الإسلام: إن تحقيقَ الأمنِ مكسبٌ لنا جميعًا، وتوفيرُ الأمن مسئوليتُنا جميعًا، وعلى كلِّ واحدٍ منا كِفلٌ في تحقيق الأمنِ، وكلٌّ منّا مُطالبٌ أن يكون

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧. (٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

عينًا ساهرةً للكشفِ عن أوكارِ المفسدين، وتوفيرِ الأمن والأمانِ له ولإخوانِه المسلمين. . فمن رأى مُنكم منكرًا فليغيِّرْه بيدِه، وحين نغفلُ عن هذا الواجبِ، فستتعرّضُ جميعًا للشِّقْوةِ ونكدِ العيشِ في الدنيا، والمصيبةُ أعظم إذا امتدّت شقوةُ الدنيا بضنكِ الآخرة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].



(١) سورة النحل، الآية: ١١١.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربّ العالمين قدَّر بلاءَ الناسِ بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإليه المرجعُ والمصيرُ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، حكمَ بالأمنِ مع الإيمان، ويذيقُ القرى لباسَ الجوعِ والخوفِ بالكفرِ والفسوقِ والعصيان، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه وخيرتُه من خَلقِه، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين.

أيها المسلمونَ: وإذا علمنا شيئًا من ثمراتِ الأمنِ في الأوطان، فالسؤال المهم ما هي أسبابُ الأمنِ ومقوماتُه الأساسيةُ؟

إن أهمّ الأسبابِ للأمنِ: الإيمانُ بالله ومراقبتُه والشعورُ بأنه مطَّلعٌ على عبدِه في السرِّ والعَلنِ، فذلك الشعورُ يميتُ الجريمةَ قبل خروجِها، ويَهِنُ من عزيمةِ المجرمِ حالَ استحواذِ الشيطان عليه، وما أروعَ الطاقةَ حين تُصرفُ في الخير وعمل الصالحاتِ، حينها يتحول صاحبُها إلى إنسانٍ خيِّر يبني ولا يهدم، ويُؤمنُ ولا يُخافُ، وهذه النوعيةُ من البشرِ تستحقُّ الاستخلافَ في الأرض، ولها وعْدُ اللهِ بالأمن ورَغدِ العيش كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[1].

ومع الإيمانِ وعملِ الصالحاتِ، لا بد من تصحيح المعتقَدِ من الشركياتِ والخرافاتِ، فتلكَ ضمانةٌ كبرى لتوفُّر الأمن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2].

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

وقد فُسر (الظلمُ) في الآية (بالشركِ) ونهايةُ الآيةِ السابقةِ تؤكدُ هذا المعنى بوضوح: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

وعملُ الصالحات، ومن أهمها: الصلاةُ والزكاةُ مقوِّمٌ هامٌّ من مقوِّماتِ الأمن، فالصلاةُ تنهى عن الفحشاءِ والمنكرَ، وتوثيقٌ لصلةِ العبد بربِّه، والزكاةُ فيها مواساةٌ للفقراء وإغناءٌ للمحتاجين، وصلةٌ للخلق ببعضِهم وسبيلٌ لمحبَّتِهم وتعاطُفِهم فيما بينهم.

وكذا الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، ففيه نشرٌ للفضيلةِ وتحذيرٌ عن الرذيلة، وبه يؤخذُ على أيدي السفهاءِ، ويُمنعُ المجرمونَ من مزاولةِ الجريمة، وكلُّ ذلك يتضمَّنُه قولُه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾(١).

إخوةَ الإيمان: وتحكيمُ شريعةِ اللهِ في أرضِه، وإقامةُ الحدودِ التي شرعها سببٌ كبير ومقوِّمٌ من مقوماتِ الأمن، وإذا أفلستِ النظمُ البشريةُ والقوانينُ المستوردةُ -بعيدًا عن شرعِ اللهِ- في تأمين الأمنِ للناس، فإن في تحكيمِ شرعِ اللهِ ضمانةً كبرى للأمن يُصدِّقُ ذلك واقعُ الدولِ الكبرى التي بلغت من التقنية في متابعةِ الجريمةِ مبلغًا كبيرًا، ومع ذلك تنمو فيها معدلاتُ الجريمةِ ولا تنخفضُ، ويتكاثرُ المجرمونَ ولا يقلُّون..

وتنعمُ (بلادُ الحرمين) بفضل اللهِ، ثم تحكيمِ الشريعةِ وتطبيقِ الحدود، بأمنٍ لا مثيلَ له في واقعنا المعاصرِ.

---

(١) سورة الحج، الآيتين: ٤٠، ٤١.

أيها المسلمونَ: ومن أسبابِ الأمن شكرُ النعمِ، فالوعدُ حقٌّ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(١).

وكفرُ النعم سبيلٌ لفناءِ الدولِ وانتشارِ الجوعِ والخوفِ، وفي أمثلةِ القرآن عبرةٌ لمن اعتبرَ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(٢).

ومن مقوماتِ الأمن اجتماعُ الكلمةِ تحتَ مظلةِ التوحيدِ، فالاجتماعُ نعمةٌ، والخلافُ فرقةٌ وشتاتٌ، وما فتئ القرآنُ يُحذرُ من التنازعِ والخلافِ، ويذكرُ بمصير المتنازعينَ، ويكفي أن يتذكرَ المسلمُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٣).

ونهى رسولُ الله ﷺ عن كلِّ أسبابِ الخلافِ والتقاطعِ، وقال: «**لا تقاطعوا ولا تَدابروا ولا تَباغَضُوا ولا تَحاسدوا، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا كما أمركم الله**»(٤).

إخوةَ الإسلام: ولا بد -في سبيلِ توفيرِ الأمنِ- أن ندركَ الأمنَ بمفهومِه الشاملِ، فالحفاظُ على الأمنِ الفكريِّ والعَقَدي، وذلك بحمايةِ العقولِ من الأفكار الخبيثةِ، وحمايةِ العقيدةِ من التصوراتِ والمعتقداتِ الباطلةِ.. لا يقلّ أهميةً عن الأمنِ على الأنفسِ والممتلكاتِ المادية..

اللهم آمِنّا في أوطاننا، وأصلِحْ ووفِّقْ وُلاةَ أمرِنا، واجمعْ كلمةَ المسلمينَ على الحقِّ والهدى، إنك سميعُ الدعاءِ، هذا وصلُّوا وسلموا على نبيكم محمد.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ١١٢.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.
(٤) متفق عليه.

بين عُلوّ الهمّةِ والتوبة في رمضان(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: والمتأملُ في أيامِ الله عمومًا، وفي الأيام الفاضلةِ على الخصوص يرى أنها تمضي سِرَاعًا، وأيامُ اللهِ عمومًا، ومواسمُ الطاعاتِ لا تنتظرُ الكسالى أو تتوقفُ للنائمين، أو تُحابي المفرِّطين.

إن عجلةَ الزمنِ تدورُ، والليلُ والنهارُ يتعاقبان، والحفظةُ الكرامُ يكتبون، وغدًا يُكشَفُ المخبوءُ، ويتبينُ الفائزون من الظالمين والمقتصِدين.

تُرى كم نُضيِّعُ من الفرصِ في حياتِنا؟! وما نَصيبُ فُرصِ الآخرةِ في تفكيرِنا وأعمالِنا؟

وما نصيبُ شهرِ رمضانَ من الفُرص المُضاعةِ في واقعِنا؟ وحين تذهبُ باحثًا عن أسباب هذا التفريطِ والضياعِ، أو ذاك الجِدّ والمسارعةِ لاغتنام فُرصِ الزمانِ تجدُ أن لعُلوِّ الهمّةِ أو ضعفِها أثرًا بالغًا في حياة الإنسانِ، فمن الناس من يُشعرُ نفسَه بأن فيه الكفايةَ لعظائمِ الأمور، ويجعل هذه العظائمَ هِمّتَه، وهذا عظيمُ الهمّةِ كبيرُ النفس. ومنهم مَن فيه الكفايةُ لعظائم الأمورِ، ولكن يبخسُ نفسَه

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٢/ ٩/ ١٤٢١هـ.

فَيُضيِّعُ همَّه في سفاسفِ الأمور وصغائِرها، وهذا ما يُسمى بصغير الهِمّة أو صغيرِ النفْسِ.

ومن الناس من لا يكفي لعظائم الأمور ويُحسّ بأنه لا يستطيعها، وأنه لم يُخلَق لأمثالها، فيجعلُ هِمّتَه وسعيَه على قدر استعدادِه، وهذا الصنفُ بصيرٌ بنفسِه، متواضعٌ في سيرتِه. ورابع الأصناف من لا يكفي للعظائم، ولكنه يتظاهر بأنه قويّ عليها، مخلوقٌ لأَنْ يحملَ أثقالَها وهذا يُسمونَه (فخورًا) أو (مُتعظِّمًا)[١].

عبادَ الله: وإن شئتم أن تضعوا أيديَكم على الفَرْق بين عُلوِّ الهِمّةِ ودُنوِّها وتَرَوْا مواقعَكم فيها، فدونكم تعريفًا لكلٍّ منهما:

فعلوُّ الهِمّةِ هو استصغارُ ما دون النهايةِ من معالي الأمور، وطلبُ المراتب الساميةِ، واستحقارُ ما يَجودُ به الإنسانُ عند العطيةِ، والاستخفافُ بأوساطِ الأمور وطلبُ الغايات، والتهاونُ بما يملِكُه، وبَذْلُ ما يُمكنهُ لمن يسألُه من غيرِ امتنانٍ ولا اعتدادٍ به.

أما دنوُّ الهِمّة: فهو ضعفُ النفسِ عن طلب المراتِ العالية، وقصورُ الأملِ عن بلوغِ الغاياتِ، واستكثارُ اليسيرِ من الفضائل، واستعظامُ القليل من العطايا، والاعتدادُ به والرضا بأوساط الأمور وصغائِرِها[٢].

أيها المسلمون: فرق بين من تتعاظم هِمّتُه إلى التطّلع إلى جناتِ الفردوس، ثم هو في حياته يسعى إلى ذلك سعيًا حثيثًا، فإذا حلّت مواسمُ الخيراتِ استثمرها، وإذا أدرك فرصَ الطاعاتِ سابقَ إلى اغتنامها، وبين مَن هِمّتُه طِيبُ

---

(١) رسائل الإسلام، محمد الخضر حسين ٢/ ٨٧ عن كتاب «الهمة العالية» محمد الحمد ص١٨.

(٢) تهذيب الأخلاق للجاحظ ص (٢٨) و(٣٤) عن كتاب «الهمة العالية» للحمد (١٦) و(١٧).

المطعمِ وأثيرُ الفراش، والسَّمرُ هنا أو هناك لتقطيعِ الأوقاتِ، حتى ولو سمع الفُحشَ أو رأى المنكراتِ!

أيها الصائمونَ: وحين يظنُّ البطَّالون أنّ في كثرةِ النوم أو كثرة الأكل والشُّرب - لاسيَّما في رمضانَ - نوعًا من السعادةِ وطريقًا للأُنس والراحة، يراها أصحابُ الهِمَمِ مورثةً للبلادَةِ جالبةً لأمراض التُّخمةِ.. وهذا عمرُ بنُ الخطاب ﷺ يقول: «من كَثُرَ نومُه لم يجدْ في عُمرِه بركةً»(١).

وهذا شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ ﷺ يقول: «فالذينَ يقتصدون في المآكلِ نعيمُهم بها أكثرُ من المسرفين فيها، فإن أولئكَ إذا أدمنوها وأَلِفُوها لا يبقى لها عندهم كبيرُ لَذّةٍ، مع أنهم قد لا يصبرون عنها وتكثُر أمراضُهم بسببها»(٢).

إن شهرَ الصيام فرصةٌ تعلو فيها الهِمَمُ -أو هكذا ينبغي أن يكون- فما تزالُ الهِمّةُ العاليةُ بصاحبها تضربُه بسياط اللّوم والتأنيب، وتزجُره عن مواقفِ الذُّلِّ واكتسابِ الرذائل وحرمانِ الفضائل، حتى ترفعَه من أدنى دركاتِ الحضيض إلى أعلى مقاماتِ المجد والسُّؤدُد.

كيف لا: والصائم بنهارِه يستمتع بالصيام، وهو بليلهِ سعيدٌ بالقيام.. وكيف لا! والصائمُ يقضي شطرًا من وقتِه يُناجي ربَّه يستغفرُه ويستهديهِ ويسألُه المزيدَ من فضلِه، يتلو كتابَه فيخشعُ قلبُه، ويذكُره في نفسِه، فيزدادُ تعظيمًا ومحبةً له - ثم هو يتصدقُ ويَصِلُ، فتطيبُ نفسُه وينشرحُ صدرُه، ويدعو الآخرين للخير، فيجعلُ له الرّحمنُ بين خلقِه وُدًّا.

نعم، إن هذه المعاني والأعمالَ الخيرةَ تحتاج من النَّفْسِ إلى صبرٍ ومصابرةٍ،

---

(١) الأدب النبوي/ ٢١٢، الهمة العالية (٤٣).

(٢) جامع الرسائل، تحقيق محمد سالم ٢/ ٣٤٠، عن الهمة العالية للحمد (٤١) و(٤٣).

لكنها تَلذُّ في النهاية - لمن وَفّقه اللهُ - فالمكارمُ مَنُوطةٌ بالمكارِهِ، والسعادةُ لا يُعْبَر إليها إلا على جسرِ المشقة.. ولكنها في النهاية تَلَذُّ وتصفو على حدّ تعبير الشاعر:

تَـلَـذُّ لـه الـمـروءةُ وهـي تـؤذِي ومـن يَـعْـشَـقْ يَـلَـذُّ لـه الـغـرامُ

أيها الصائمون: تداركوا ما بقي من أيام رمضانَ، فالفرصُ الضائعةُ تُعوَّضُ، والفُرصُ الباقية يُعَضُّ عليها ولا يفرَّط في شيءٍ منها.

أيها المسلمون: وحين نصارحُ أنفُسَنا نقول: إن الهِممَ قد اعتراها حتى في شهرِ الصيام فتورٌ.. ولم يسلمِ الخَيِّرون -فضلًا عمّن سواهم- من هذا الفتور.. ودونكم نماذجَ لضَعفِ الهِمَم.. فمتى يحضرُ الصائمون لصلاة الجمعة؟! وكم عددُ الذين يَمكثون في المساجدِ بعد صلاةِ الفجرِ بالذِّكر والتلاوةِ؟ وأين الذين تمتلئُ بهمُ المساجدُ من بعد صلاة العصرِ إلى ما قبلَ الغروبِ.. هل زادتْ نوافِلُنا في رمضانَ؟ أم تعاظمت صدقاتُنا في شهر الإحسان؟ أين التبكيرُ للمساجد؟ إلى غير ذلك من أسئلة نجدُ في أنفسِنا حَرَجًا وضعفًا حين نريدُ الإجابةَ عنها.

عبادَ الله: إن من الفُرصِ في رمضانَ -بل وفي سائر العام- فرصةَ التوبةِ إلى اللهِ وهذه التوبةُ نُقصِّر في فَهمِها حين نظُنّها خاصةً بفئةٍ من المسلمين، بل هي عامةٌ، والدعوةُ فيها موجّهةُ للمؤمنين -فضلًا عن سواهم- وفي هذا يقول ربّنا تبارك وتعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

والإمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله عقد في كتابه «مدارج السالكين» فصلًا عن التوبةِ قال عنه: إنه من أنفع فصولِ الكتاب، والعبدُ أحوجُ شيءٍ إليه، وبه حصرَ اثني عشرَ

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

نوعًا من المحرَّماتِ، وقال: إن عليها مدارَ كلِّ ما حرَّم اللهُ، وإليها انتهاءُ العالمِ بأسرهم إلا أتباعَ الرُّسل، وهذه الاثنا عشر قد يكون في الرجلِ أكثرُها وأقلُّها، أو واحدةٌ منها، وقد يعلمُ ذلك وقد لا يعلمُ، والتوبةُ النصوحُ إنما تكون بالتخلُّص منها والتحصين من مواقَعتِها.. ثم قال: ولا يستحقُّ العبدُ اسمَ (التائبِ) حتى يتخلّصَ منها، وهي: أجناسُ المحرّماتِ في كتاب الله.. وتلك هي الكفرُ، والشِّركُ، والنفاقُ، والفسوقُ، والعصيانُ، والإثمُ والعدوانُ، والفحشاءُ، والمنكرُ، والبغيُ، والقولُ على الله بغيرِ علمٍ، وإتباعُ غيرِ سبيلِ المؤمنين[1].

أيها المسلمون: إن التوبةَ كما قيل: وظيفةُ العمرِ، وبدايةُ العبدِ ونهايتُه، وأولُ منازلِ العبوديةِ، وأوسطُها وآخِرُها، لا يستغني عنها مسلمٌ، بل ينبغي أن تتجدَّد في حياته، وكلَّما أحدثَ معصيةً وذنبًا، أحدَثَ على إثرها توبةً وندَمًا واستغفارًا وما منّا إلا مفرّطٌ في واجبٍ، أو متساهلٌ في الكفّ عن محرّمٍ، وكلُّ ذلك محتاجٌ إلى توبةٍ. وما أحرانا معاشرَ المسلمين بالتوبةِ في شهرِ التوبةِ، وفي زمنٍ تُصفَّد فيه الشياطينُ، وتُفتحُ أبوابُ الجِنان.

إن مراجعةَ النفسِ مطلبٌ على الدوام، ولكنها تتأكدُ في مثل شهرِ الصيام - فهل نراجعُ أنفسَنا ونتوبُ إلى خالقِنا؟ ونستجيبُ لنداء خالقِنا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[2].

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٤٤.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ غافرِ الذّنْبِ، وقابلِ التوبِ، شديدِ العقاب، ذي الطّوْلِ، وأشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له «يبسطُ يدَه بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهار، ويبسط يدَه بالنهار ليتوبَ مسيءُ الليلِ، حتّى تطلعَ الشمسُ من مغربها»(١).

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، أخبر وهو الصادقُ الأمينُ، أن الله أفرحُ بتوبةِ العبدِ من رجلٍ أضاع راحلَته وعليها متاعُه في أرضٍ فلاةٍ حتى أيسَ منها، فلما اشتدت حاجتُهُ إلى الشراب إذا بالراحلةِ عند رأسِه. اللهمّ صلِّ وسلّم عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين:

إخوةَ الإسلامِ: وللتوبةِ فضائلُ كثيرةٌ، جاءتَ في آياتِ الكتاب وفي سنةِ المصطفى ﷺ، والأمرُ بها يتكرّرُ على الأسماع، وقَلَّ من يستجيبُ.. ومن أخطائنا تأجيلُ التوبةِ، فقد يعلمُ المرءُ ذنبَه أو ذنوبَه، ولكنه يعيشُ على أملٍ خادعٍ لا يدري أيدركهُ أم تخرمه المنيةُ دونَه.

وحتى لو تمكّن من التوبةِ بعد حينٍ، فعليه ذنبُ التأخير.

قال ابنُ القيم رحمه الله: المبادرةُ إلى التوبة من الذنبِ فرضٌ على الفور، ولا يجوز تأخيرُها، فمتى أخّرَها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبةٌ أخرى، وهي توبةُ تأخيرِ التوبةِ.. وقَلَّ أن تخطرَ هذه ببالِ التائب(٢).

ويقول ابنُ الجوزيِّ رحمه الله -مخاطبًا الذين يؤخِّرون التوبةَ-: «يا بطّالُ، إلى كم تؤخّر التوبةَ، وما أنتَ في التأخير معذورٌ؟ إلى متى يُقال عنك: مفتونٌ مغرورٌ؟ يا مسكينُ قد انقضتِ أشهرُ الخير وأنت تَعدُّ الشهورَ، أتُرى مقبولٌ أنتَ

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٥٩).
(٢) مدارج السالكين ١/ ٢٨٣.

أم مطرودٌ؟ أترى مواصلٌ أنت أم مهجورٌ؟ أترى تركب النُّجُبَ غدًا، أم أنت على وجهك مجرورٌ؟ أَتُرى من أهلِ الجحيم أنتَ أم من أرباب القُصورِ»(١).

إخوة الإسلام: ومن الأخطاء في التوبة تركُ التوبةِ مخافةَ لمزِ الناس له، أو سقوطِ جاهِه ومنزلتِه وذهابِ شهرتِه، وكلُّ ذلك وهمٌّ خادع، وخطأ فادحٌ - فاللهُ أحقُّ أن يُخشى، وأجلُّ مَنْ يُطاعُ، وأعظمُ من يُعصى، ومن يتّقِ اللهَ يجعلْ له مخرجًا، واللهُ يُحبُّ التوابين، والتوبةُ سبيلٌ للقوةِ والنماءِ وكثرةِ الأموالِ والبنين ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٢).

ومن أخطائنا في التوبة: التراخي بها والتمادي في الذنوبِ اعتمادًا على سَعَةِ رحمةِ اللهِ، وهذا الصنفُ من الناسِ -كما قال العارفون- يتعلَّقُ بنصوصِ الرجاء ويتّكِلُ عليها، وإذا عُوتبَ على الخطايا والانهماكِ فيها سَرَدَ لك ما يحفظُه من سَعَةِ رحمةِ الله ومغفرتِه ونصوص الرجاء، وللجُهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائبُ وعجائبُ(٣).

ويضرب أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمه الله لهؤلاء مثلًا حين يقول: فهو كمن ينفقُ جميعَ مالِه ويتركُ نفسَه وعيالَه فقراءَ، منتظرًا من فضلِ اللهِ أن يرزقَه العثورَ على كنزٍ في أرضٍ خربة؟

ومَثَلُه كذلك مثلُ من يتوقعُ النهبَ من الظَّلَمة في بلدِه، وقد ترك أموالَه وذخائرَه في صحن دارِه مكشوفةً مع قدرتِه على دفنها، لكنه لم يفعل؛ بل قال: انتظرُ من فضل الله أن يُسلّط غفلةً أو عقوبةً على الظالم الناهبِ حتى لا يصلَ إلى

---

(١) بحر الدموع لابن الجوزي (٥٧). (٢) سورة نوح، الآيتين: ١٠-١٢.

(٣) الجواب الكافي، ابن القيم (٦٧ - ٦٨).

داري، وإن وصل فأنا أنتظرُ أن يموتَ على باب داري. . إلى أن يقول: فمنتظر هذا كلِّه ممكنٌ. . ولكن المنتظرَ في غاية الحماقةِ والجهل، إذ قد لا يمكن ولا يكون[١].

إخوةَ الإسلام: وفي واقعنا المعاصر قد ترى شابًا أو كهلًا اقتنع بخطأ طريقِه، وهو يتمنّى التغييرَ، ويُفكرُ بالتوبةِ، لكنه ينتظر المناسبةَ للتوبة، كأن يموتَ له قريبٌ، أو يُصابَ هو بحادثٍ فيتّعظَ، ويهزُّه الموقفُ ويتذكّر الآخرةَ، ولكن ماذا لو كان هو الميتَ فاتّعظ به غيرُه، أو كان هذا الحادثُ الذي ينتظره فعلًا، لكن صارت فيه نهايتُه. . إذن فالأمر جِدّ خطِير، والتأخيرُ قد يحمل المفاجأةَ، والأمرُ لا يحتمل المخاطرةَ، والحزمُ والجِدُّ أن تقرّرَ التوبةَ حالًا، وأن تسلكَ طريقَ الاستقامةِ الآن، فلا تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ.

عبادَ الله: وثمةَ شعورٌ خاطئٌ قد يغترُّ به بعضُ الناسِ، وقد يَمْنعُهم من تعجيل التوبةِ، وذلك حينما يقول أحدُهم: ما بالُنا نرى أقوامًا قد امتلأت فِجاجُ الأرضِ بمفاسدهم وظلمهِم وفجورهم؟! ومع ذلك نراهم وقد دُرَّت عليهم الأرزاقُ، وأُنسئت لهمُ الآجالُ، وهم بين الناس يعيشون في رَغَدٍ وأمانٍ، وهذا التصوُّر الخاطئُ فيه جهلٌ بسنن الله وآياتِه، فاللهُ يُمْهِلُ ولا يُهمِل، ولا يغترّ بإمهالِه إلا جاهلٌ، وهذا رسول الهدى ﷺ يُنذرُ ويحذِّر ويقول: «**إن اللهَ ليُملي للظالم حتى إذا أخذَه لم يُفْلِتْه**» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٢].

وفي الحديث الآخر قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا رأيتَ اللهَ ﷻ يعطي**

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٥٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٢، الحديث متفق عليه.

العبدَ من الدنيا على معاصيهِ ما يحبّ، فإنما هو استدراجٌ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وأنّى لهذا الظالم لنفسِه وللآخرين أن يفرَّ من عقوبة اللهِ، واللهُ يقول: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(٢).

وربما رأى العاصي سلامةَ بدنِه، فظن أن لا عقوبةَ، وغفلتُه عمّا عُوقبَ به وما ينتظرُه أقسى عقوبةً، بل ربما لو جالستَ هذا العاصي وسمعتَ إلى شيءٍ من همومه وضجرِه وضيقِه، لعلمت أن للمعصية ذُلًّا وضريبةً لا تكاد تُفارق العاصي وهو بعدُ في الدنيا، فكيف بالآخرة وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٣).

قال ابنُ الجوزيِّ رحمه الله: الواجبُ على العاقل أن يحذرَ مغبةَ المعاصي، فإنّ نارَها تحت الرّمادِ، وربما تأخّرت العقوبةُ، وربما جاءت مستعجلةً»(٤).

وقال بعضُ الحكماء: المعصيةُ بعد المعصيةِ عقابُ المعصيةِ، والحسنةُ بعد الحسنةِ ثوابُ الحسنةِ(٥).

إخوة الإسلام: أيها الصائمون، وختامًا أُذكِّر نفسي وإياكم وأقول: لئن ماتتِ الهِمَمُ أو ضعُفت في سائر العام فَحَريٌّ بها أن تحيى وتنشط في رمضان، ولئن تقاصرتِ النفوسُ عن المعالي وتخبّطت في دَرَك المعاصي في سائر الأيام،

---

(١) سورة الأنعام، الآيتين: ٤٤-٤٥. والحديث رواه أحمد وغيره ورجاله ثقات (الحمد: التوبة وظيفة العمر ص٥٣).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٤) صيد الخاطر ص٣٣٩.

(٥) المصدر السابق (١٠٤).

فأولى لها أن تسارعَ وتسابقَ إلى الخيراتِ في رمضانَ.. إن ليلَ المفرِّطين طويلٌ، وإن فجرَ المجتهدين مشرقٌ مبين.. وإذا كان تعدادُ السنينِ والشهورِ والأيامِ والساعاتِ واحدًا، فالفرقُ كبيرٌ في محصِّلتها واستثمارِها بين فئةٍ من الناس وأخرى.

وفرقٌ كذلك بين من يموتُ حين يموتُ والكائناتُ تُحسُّ بفقدِه، والخلقُ تتألَّم لفراقِه، وبين من قال الله عنهم ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾[1]. واختر لنفسك أيها العاقلُ ما تشاءُ.. سدّدَ اللهُ خطاكَ على طريق الخيرِ، ورزقنا جميعًا هِمّةً عاليةً وتوبةً نصوحًا.



(١) سورة الدخان، الآية: ٢٩.

حراسة الفضيلة(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: المجتمعُ الفاضلُ هو الذي يحرسُ الفضيلةَ، ويُحاصر الرذيلةَ، والنبلاءُ والفضلاءُ -من الرجال والنساء- هم الذين يُنصِّبون أنفسَهم دعاةً للفضيلةِ، ويقاومون أسبابَ التَّفَسُّخ والتهتكِ والانحطاط الخُلقي بكافة صورِه وأشكالِه، ويفضحون رموزَ الفسادِ والانحلال، ويحذِّرون الأمةَ من آثارهم.

وما فتئَ العلماءُ والدعاةُ والمحتسِبون -قديمًا وحديثًا- يقومون بدورهم في بناءِ الأخلاقِ الفاضلةِ، والدعوة لها، ويحاربون الفسادَ، ويكشفون أوكارَ المفسدين والمبطلين، وتلك سنةٌ ماضية، فالأنبياءُ عليهم السلام دعاةٌ للفضيلة، وأعداؤهم يَعِيبونهم ويتهمونهم، بل ويحاربونهم على حراستها ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(٢)، ومنذ زمنٍ والأمة المسلمة مُبتلاةٌ بانحسار الفضيلةِ وانحطاطِ الأخلاق، وسَرَيان دعواتِ الانحلال والإباحيةِ، وفي مراحل

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٩/ ١/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٢.

الضعفِ وغلبة الشهواتِ، يوجدُ في بعضِ النفوس دواعي قَبول واستعدادٍ للسير في الأنفاقِ المظلمة، وإعطاء النفس حظَّها من المتعة، وإن كانت محرمةً، والنتيجةُ كما قال ربُّنا: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾(١).

عبادَ اللَّهِ: والمجالاتُ والأساليبُ التي تُحاصَرُ بها الفضيلةُ كثيرةٌ ومتنوعة، فالفضيلةُ تحاصَرُ في التعليم حين يختلط الرجالُ والنساءُ في المدارسِ والجامعاتِ أو سواها من مجالاتِ الحياةِ، وتُذبحُ الفضيلةُ في دعواتِ التبرُّج والسُّفور، وفي وسائل الإعلام، وحيث الطرحُ الهابطُ، والإسفافُ في الكتابةِ، تُخنقُ الفضيلةُ، ويتأذّى أصحابُها.

أما في القنواتِ الفضائية الماجنةِ فويلٌ للفضيلة من الرذيلةِ - وهناك تُصادَر الأخلاقُ والقيَمُ، ويُنزعُ الحياءُ، ويُصوَّر الخُلقُ والعفافُ بصورة التزمُّت والتطرُّف والتخلف عن رَكْبِ الحياةِ.

ومن مجالات محاصرةِ الفضيلة: الطروحاتُ الفكريةُ المنحرفةُ، وأصحابُ هذا الطرح لا يأبهون بتحطيم سياجِ الفضيلةِ، بل زيّن لهم الشيطانُ وأملى لهم أن ذلك ضربٌ من المدنيّةِ والحضارةِ، وصدق الله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾(٢).

ومن مجالاتِ وأساليبِ محاصرةِ الفضيلةِ: إقامةُ الحفلاتِ الغنائيةِ الصاخبةِ، ومحاولةُ جرِّ الناسِ للاختلاط المَحموم.

ومنها السخريةُ بالدِّين عُمومًا وبالمتدينين خصوصًا، واعتبارُ الجلبابِ

(١) سورة النساء، الآية: ٢٧.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٨.

والحجاب واللِّحى، وعدمُ إسبالِ الثيابِ بقايا من تراث العصورِ المتخلِّفةِ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[1].

ألا ويحَ الذين يُحبون أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا، وما أولئك بنصَحَةٍ للأمة، ولا أوفياءَ لتاريخِهم وعقيدتِهم، وحسبهُم وعيدُ الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

إخوة الإيمان: ومن المصابيح المضيئةِ للفضيلةِ - والداعيةِ لمحاصرة الرذيلةِ كتابٌ خرج أخيرًا بعنوان «حراسة الفضيلة» وهو من تأليف العالمِ الفاضل الشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، بارك اللهُ في علمِه وعمرِه وجزاهُ عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء، والكتابُ جُهدٌ مؤصِّل لقضايا الحجابِ وما يدور حولَه من اختلاطٍ وتبرُّجٍ وسُفورٍ وما قيلَ عنه مِن قِبَل الأدعياء أو المتعالِمين، يُفحِمُ الخصومَ بالحجة، ويحاصِر بالدليل المقنع من الكتاب والسُّنة والإجماعِ والقياس، لمن يبحث عن الحقِّ ويتحرَّى الدليلَ. لقد أدرك الشيخ (حفظه الله) الحاجةَ إلى تأليف هذا الكتابِ، في مثل هذا الزمنِ الذي تكاثرت فيه الطّروحاتُ، وتداخلت المُغرياتُ والمفسداتُ وكاد الحقُّ أن يختلط بالباطل، وزُلزل أهلُ الإيمان، من الرجال والنساءِ، ونطقَ السفيهُ وتكلَّمت الرُّويبضةُ وكثُر المفتون، ومما قاله في مقدمة الكتاب: إذًا لا بد من كلمةِ حقٍّ ترفعُ الضيمَ عن نساءِ المؤمنين، وتدفع شرَّ المستغربين المعتَدِين على الدين والأمةِ، وتُعلن التذكيرَ بما تعبَّدَ اللهُ به نساءَ المؤمنين من فرضِ الحجاب، وحفظِ الحَياءِ والعِفَّة والاحتشام والغيرةِ على المحارم، والتحذير مما حرَّم اللهُ ورسولُه من حربِ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥.
(٢) سورة النور، الآية: ١٩.

الفضيلة بالتبرُّج والسُّفور والاختلاط، وتَفْقَأُ الحِصْرِمَ في وجوه خونةِ الفضيلة، ودعاةِ الرذيلة، ليقولَ لسانُ حالِ العفيفة:

إليكَ عنِّي إليكَ عنِّي فلستُ منكَ ولستَ منّي

وليثبِّت اللهُ من شاء من عباده على صيانةِ محارِمِهم وصوْنِ نسائهم من هذه الدعواتِ، وإنه لا مجال لحملِ شيءٍ منهما محملَ إحسانٍ، لما يشاهدُه المسلمون من تيار الخلاعةِ والمجونِ والسُّفورِ، وشيوع الفاحشةِ في عامة المجتمعاتِ الإسلاميةِ التي سرتْ فيها هذه الدعاياتُ المضلِّلة. إلى أن يقولَ الشيخُ بكر حفظه الله: بل إن الصحافةَ تسفَّلت في النقيصة، فنشرت كلماتِ بعضِ المقبوحين بإعلانِ هوايةِ مقدِّمات البغاء مثل المعاكسةِ، وقولِ بعضِ الوضيعين إنه يَهوي معاكسة «بنات ذوي النَّسب» وهكذا من صيحاتِ التشرُّدِ النفسي والانفلات الخُلقي. إلخ[1].

ومن المقدمة إلى فصولِ الكتاب -تجد الكاتبَ رعاه اللهُ- يأخذك أخذًا مؤصِّلًا نحو أصولِ الفضيلة العشرة، وهي:

١- وجوبُ الإيمان بالفوارق بين الرجلِ والمرأة.

٢- الحجابُ العام.

٣- الحجابُ الخاص.

٤- قرارُ المرأة في بيتها عزيمةٌ شرعيةٌ، وخروجها منه رخصة تُقدَّر بقدَرِها.

٥- الاختلاط محرَّم شرعًا.

٦- التبرُّج والسُّفور محرمان شرعًا.

٧- لما حرَّم الله الزنا حرم الأسبابَ المفضيةَ إليه.

---

(١) مقدمة حراسة الفضيلة ص٩، ١٠.

٨- الزواجُ تاج الفضيلة.

٩- الأصل التاسع: وجوبُ حفظِ الأولاد عن البدايات المضِلَّةِ.

١٠- وجوبُ الغيرة على المحارم وعلى نساء المؤمنين.

أما الفصلُ الثاني - من كتاب «حراسة الفضيلة» فبعنوان: كشف دعاةِ المرأة إلى الرذيلة، وبه ناقش المؤلفُ حفظه اللهُ خططَهم في:

أ- الحياة العامة، في مجال الإعلام، في مجال التعليم، في مجال العمل والتوظيف -علمًا بأن الفصلَ الأوّل ردٌّ على الثاني- كما قال المؤلفُ.

ثم ختم المؤلفُ الكتابَ بالنقاط التاليةِ: توجيهُ النقد، تاريخُ نظريتي الحريةِ والمساواةِ، وآثارِهما التدميريةِ في العالم الإسلامي، إعادةُ المطالبِ المنحرفة بضرب الفضيلةِ في آخر معقل للإسلام، المتعيَّن إجراؤه تُجاهَ دعاةِ الرذيلةِ، والكتابُ بكلِّ حالٍ رسالةٌ مفتوحةٌ لكلِّ راغب حقٍّ، باحثٍ عن دليل.

إخوة الإيمان: تلك عناوين عامةٌ وسيجد القارئُ بداخلها من النصوصِ المقنعةِ والعرضِ المُقعَّد له، والمناقشة بهدوءٍ وعُمق - لكلِّ قضية، ما يشفي صدورَ المؤمنين، ويضع حجرًا، بل أحجارًا في أفواه المتطاولين.

ولذا، فإنني أنصحُ بقراءة الكتاب كلَّ مربٍّ ومربية، وشابٍّ وشابة، وأنصح الآباء والأمهاتِ، والمعلمين والمعلماتِ، والموظفين والموظفاتِ، وأربابَ الفكر، ورجالاتِ الإعلام، وأهلَ الفتوى.. أنصح هؤلاء جميعًا وغيرهم بقراءة هذا الكتاب والاستفادةِ منه، وإذا كنا لا ندَّعي العصمةَ لأحدٍ -سوى الأنبياء عليهم السلام- فينبغي أن نقدرَ لأهل الفضلِ فضلَهم، ونشهدَ للمتميِّزين بتميُّزهم، ونثقَ بأهلِ الاختصاصِ إذا تحدثوا في تخصُّصهم، ونقولَ للمحسنِ: أحسنتَ ووفِّقتَ، ونقول للمسيء: أين أنت؟ ولقد أسأتَ.

يا أهلَ الإيمان: استجيبوا لنداء ربكم ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾[١]، واستشعروا جميعًا مسئوليتكم في حراسةِ الفضيلة -وكلٌّ بحسبه- وويلٌ للفضيلة يوم تُنحَرُ على أيدي الأغرار، وفي مجتمعنا -بحمدِ اللهِ- ثُلَّةٌ كبيرةٌ من الأخيار، ألا واحذروا البداياتِ المضلَّة، فهي موصلةٌ للنهاياتِ المؤلمةِ، إذا لم تُعالج بحكمة ورويةٍ وحزمٍ وعزم، أذكِّرُ كلَّ مسئولٍ بعظمِ المسئوليةِ أمام اللهِ في الآخرة، أما في الدنيا فبناءُ الأخلاقِ سببٌ للبقاء، وانهيارُها سببٌ للفناء:

فإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبُوا

وأبلغ من ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾[٢]، والمسئولُ اللبيبُ هو الذي يُميز بين الناصحين والمتآكلين.

يا أصحابَ الشهامةِ والمروءة: أخاطب فيكم شهامتكم إلا كنتم حُرّاسًا أوفياء للفضيلة، يا أصحابَ الأموال: إياكم أن تستخدموا أموالَكم لحرب الفضيلةِ، فتكون وبالًا عليكم وستسألون عمّا أنفقتم، يا أهلَ العلمِ والدعوةِ والفكر: بلّغوا ما اؤتمنتم عليه فستتعلَّق الأمةُ بكم أكثرَ منَ غيركم، وأنتم حملةُ الميثاقِ من ربِّ العالمين.

يا رجالاتِ الإعلام: احفظوا أمانةَ الكلمةِ ومسئوليةَ البلاغِ للناس، وكونوا من حملة رايةِ الفضيلةِ. . وإياكم أن تَجُرُّوا مجتمعَكم وأمَّتكم إلى مواخيرِ الأمم الأُميةِ في باب الأخلاقِ والقِيَم، وإن كانت رائدةَ الفضاءِ، سابقةً في المكتشفاتِ والمخترعات -ففرق بين هذا وذاك- ويخطئُ من يظن أن طريقَ اللحاقِ بهم تقليدُهم في كلِّ شيء.

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

المفتون الأجلاء: وأنتم أدرى الناس بظروفِ الفتوى، وحالِ المستفتي، وما ينبغي قولُه أو تركُه في حالِ فسادِ الزمان، وشيوعِ الفتن، وحربِ الفضائيات للأخلاق والقِيَم، ونُعيذُكم أن تُنقلَ فتاواكم على غير ما أردتم، فتحصلُ الفتنةُ ويندسُّ أهلُ الريبِ مفسدين، وينخدع بذلك فِئَامٌ من المسلمين والمسلماتِ.

أيتها المرأةُ المسلمةُ: وأنتِ عنصرٌ مهمٌّ لحراسةِ الفضيلة عند أهلِ الإسلامِ، وفي المقابل بوابةٌ كبرى يُراهنُ عليها الأعداءُ والموتورون للفساد وإشاعةِ الفاحشة، والذي قامت السماواتُ بعدلِهِ، ما أسلمَ ولا أسعدَ لَكُنَّ في الدنيا والآخرةِ من أن تُسلمنَ الوجهَ لله، والقيادةَ لمحمدِ بنِ عبد الله ﷺ، ولا تلتفِتْنَ إلى الهَمَلِ دعاةِ الفواحشِ والأَفن.

ونحن وأنتمَّ مخاطبون جميعًا بقول ربِّنا:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].



(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

الوقت والإجازة(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ جعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفةً لمن أراد أن يذّكر أو أراد شُكورًا، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، أقسمَ بالوقت -في أكثر من موضع من كتابهِ- وفي ذلك إشارةٌ إلى قيمتِه والعنايةِ به، فقال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ﴾.

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، سطّر في سيرته جليلَ الأعمال في عُمرٍ لا يتجاوزُ الثالثةَ والعشرينَ عامًا ودعا أمتَه -في غير ما حديثٍ- إلى استثمار الأوقاتِ واستغلال الأعمارِ بما ينفع في الدنيا والآخرةِ.

اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمّ عن أصحابِه والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

عبادَ الله: ومن جميلِ النصائحِ وجليلِ الحِكَم، كتبَ عالمٌ إلى عالمٍ آخرَ مذكّرًا بقيمةِ الزمان وحفظِ الأوقاتِ، وليس المُذكَّر بأقلّ من المُذكِّر، ولكنّ الذكرى تنفعُ المؤمنين.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٩/ ٢/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٨.

يقول الحسنُ البصريُّ في كتابٍ كتبه إلى عمرَ بن عبدِ العزيز -رحمهما الله- «لأصِفَنَّ لك الدنيا ساعةً بين ساعتين، ساعةٌ ماضيةٌ، وساعةٌ آتيةٌ، وساعةٌ أنت فيها، فأما الماضيةُ والباقيةُ فليس تجدُ لراحتهما لَذةً، ولا لبلائهما ألمًا، وإنما الدنيا ساعةٌ أنت فيها فخدعتكَ تلك الساعةُ عن الجنةِ وصيّرتك إلى النارِ، وإنما اليومُ -إنْ عقلتَ- ضيفٌ نزل بك وهو مرتحلٌ عنك، فإن أحسنتَ نُزُلَه وقِراه شهِدَ لك وأثنى عليك بذلك، وصَدَق فيك، وإن أسأتَ ضيافَتَه ولم تُحسنِ قِراه جال في عينيكَ. . إلى أن يقول: إن الذي بقي من العُمر لا ثمنَ له ولا عِدْلَ، فلو جُمعتِ الدنيا كلُّها ما عَدَلتْ يومًا بقيَ من عُمرِ صاحبِهِ، فلا تَبعِ اليومَ ولا تعدِلْه من الدنيا بغير ثَمنهِ، ولا يكون المقبورُ أعظم تعظيمًا لما في يديك منك -وهو لك- فلعَمري لو أن مدفونًا في قبره قيل له: هذه الدنيا أولُها إلى آخِرها تجعلُها لولدِك من بعدكَ يتنعَّمون فيها من ورائك، فقد كنتَ وليس لكَ همٌّ غيرُهُم، أحبُّ إليك، أم يومٌ تُتْرَكُ فيه تعملُ لنفسِك لاختار ذلك. . بل لو اقتصر على ساعةٍ خُيّرَها، وما بين أضعافِ ما وصفتُ لك وأضعافِهِ، يكون لسواه إلا اختار الساعةَ لنفسِه على أضعافِ ذلك يكون لغيرِه، بل لو اقتصر على كلمةٍ يقولها تُكتبُ له، وبين ما وصفتُ لك وأضعافِه، لاختار الكلمةَ الواحدةَ عليه، فانتقدِ اليومَ لنفسِك، وأبصِرْه الساعةَ، وأعظم الكلمةَ، واحذرِ الحسرةَ عند نزول السّكرةِ».

عبادَ الله: ما أعظمَ الفرقَ بين هِمَمِنا وهِمَمِهم! وكم يبعدُ تفكيرُنا عن تفكيرهم؟ حتى ليخيَّلُ إليك أحيانًا -أن للقوم أهدافًا غير أهدافِنا- أو أن لنا غايةً غيرَ غايتِهم؟

كم تمضي علينا الساعاتُ والأيامُ -فضلًا عن الشهور والسنوات- ونحن في غفلة ساهون! وللأوقات مضيِّعون، وعن الآخرة غافلون. . وكم تخرج منا

كلماتٌ لا نحسِب لها حسابًا، وقد توردُنا المهالكَ، وكم نبيعُ أغلى ما نملك - وهو الوقت بأبخس الأثمان!! فنَفرحُ إذ نُزجيَه بالقيل والقال، والانبساط مع الأصحاب والشِّلل، دون فائدة تُذكرُ، والأدهى والأمَرُّ إذا كان قضاءُ الأوقاتِ بما يَضُرّ في الدين والدنيا. إنك لتعجبُ غايَةَ العجب حين ترى من السلف عنايةً فائقةً بأوقاتِهم واستثمارها بما ينفعُ، إلى حدٍّ كانوا يُقلِّلون أوقاتَ الأكل، أو يعملون وهم يأكلون؟ وهذا أحدُهم يقول: وأنا أُقَصِّرُ بغايةِ جَهدي أوقاتَ أكلي حتى أختارَ سفَّ الكعكِ وتحَسِّيه بالماء على (أكل الخبز) لأجل ما بينهما من تفاوتِ المَضْغ، توفُّرًا على مطالعةٍ أو تسطيرِ فائدةٍ لم أُدركْها[1].

أيها المسلمون: وإذا كان الحديثُ يَطيب عن الوقت وأهمِّيته في حياة المسلم - في كلِّ وقتٍ - فماذا يُقال في الحديث عن الوقت في الإجازاتِ حين تُغلقُ المدارسُ، وتبدأ الإجازاتُ وتكثرُ السّفرياتُ؟

إن مجموعةً من التساؤلات تَردُ وتحتاج إلى إجابةٍ صادقة وواقعيةٍ، فإلى أيِّ شيءٍ يتطلّع جمهورُ الشباب في قضاء الإجازة؟ وبماذا تُفكّر الفتياتُ في استثمار وقتِ الفراغ؟ وماذا يدور في مخيّلةِ الأولياء نحو قضاءِ الإجازة، ما هي البرامجُ التي تتبناها المؤسساتُ التربويةُ وتسهمُ بها في استصلاح الشباب واستثمار أوقاتِ فراغِهم في عطلة الصيفِ؟ وهل تُعنى وسائلُ الإعلام ببرامجَ مفيدةٍ، وخاصةً في الإجازة لشريحةٍ مهمةٍ في المجتمع، بها تَصقلُ عقولَ الناشئةِ وتُحصِّنهم بإذن الله من التياراتِ الوافدةِ، وتملأُ فراغَهم بالنافع المفيدِ؟

ما الوسائلُ المشروعةُ التي يفكّر أصحابُ الأموالِ في استثمارها، حيث يسافرُ الناسُ ويحتاجون إلى خدمات؟

---

(١) هو أبو الوفاء علي بن عقيل، انظر «ذيل طبقات الحنابلة» ١/ ١٧٧ نقلًا عن: أين نحن من أخلاق السلف الجليل، عقيل/ ١٣١.

وباختصار؛ ليسأل كلٌّ منا نفسَه بماذا يُفكِّر في هذه الإجازة، وما نصيبُ الآخرةِ؟ كيف تُقْضى الأوقاتُ، وتُنفقُ الأموالُ، وتحفظُ الطاقاتُ؟ إن أوقاتَنا وأموالَنا، وطاقاتنا أمانةٌ، وسوف نُسأل عنها.

إخوةَ الإسلام: وهناك ملاحظةٌ لا بد أن نَعِيَها، وهي تتعلّقُ بمحاضنِ التربيةِ، فمن المعلوم أنَّ المدرسةَ والبيتَ من محاضِن التربيةِ المهمةِ لأبنائنا وبناتِنا، وللحقِّ يُقال: إن المدرسةَ عونٌ للبيوت على تربية الأبناءِ والبناتِ - وذلك حين يتوفَّر معلِّمون ومعلِّماتٌ يُدركون واجبَهم في التربية وتهذيبِ السلوكياتِ ورعاية الأخلاقِ، بل ربما قيل: إن بعضَ البيوتِ تقومُ مسئوليةُ التربيةِ فيها على المدرسةِ وحدها. لكن المدرسةَ تُغلقُ الآن، فما حالُ التربيةِ في البيوت حين تنفرد في التربية؟ وهنا يقال: إن البيوتَ تتعاظمُ مسئوليّتُهَا، وربما انكشفتِ البيوتُ الضعيفةُ في التربية في حال غيابِ توجيهِ المدرسةِ، فأصبح الأبناءُ، وربما البناتُ، عالةً على المجتمع بالتجمعات الفارغةِ، والسهراتِ الصاخبةِ، والرحلاتِ الخارجيةِ، والسفرياتِ غيرِ المنضبطةِ، أو بكثرةِ خروج النساءِ إلى الأسواق دونما حاجةٍ، أو بقضاء معظمِ الوقتِ عبرَ سماعةِ الهاتف.. إنّ على رُعاة البيوتِ أن يُدركوا واجبَهم حين يغيبُ دورُ المدرسةِ، فهم أساسٌ في التربيةِ، والمدارسُ مكملةٌ لهم وليست بديلًا عنهم.

أيها المؤمنون: وحين يكون الحديثُ عن دورِ البيوتِ وأثرِها في التربية، فلا ينبغي أن نحمِّل المسئوليةَ كاملةً على الآباءِ والأمهاتِ، بل وعلى الأبناءِ والبناتِ الكبارِ كِفْلٌ من هذه المسئوليةِ لمساعدةِ آبائهم وأمهاتِهم.. وهنا عِتابٌ لطيفٌ أو همسةُ نُصْحٍ تُقال للشباب الملتزمِ والشاباتِ الملتزماتِ الذين يَضعفُ أثرُهم، أو يقلُّ عطاؤهم في بيوتِهم، إن من المؤسف -حقًّا- أن عددًا من الشباب يمتدُّ نفعُهم إلى كلِّ أحدٍ إلا أهلَ بيتِهِ وعشيرتِه، فتراه يبخلُ عليهم بجلسةٍ نافعةٍ أو

بهديةٍ قيمةٍ، وربّما مَنَّ عليهم بالذهاب بهم إلى قضاء حوائجِهم، أو زيارة أقاربهم، بينما تراه يتهللُ مع الأصحابِ ويفرح بخدمةِ الزملاء، وهنا غفلةٌ في مسئولية الدعوةِ في العشيرة والأقربينَ، وغفلةٌ عن احتسابِ الأجرِ لخدمةِ الأهل، والله يقول: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(١)] فإذا كان هذا الخطابُ قيل لمن أُرسلَ للعالمين، فكيف بغيره؟! والنبيُّ ﷺ حين سأله سائلٌ وقال: من أبرّ؟ قال: «**أُمك**» قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أُمك**» قال: ثم مَن؟ قال: «**أُمك**» قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أبوك**».. وبشكل عام، فالأقربون أولى بالمعروف، فهل يصحُّ مع هذه النصوص أن يُقدِّمَ بالدعوة والخدمةِ الآخرون على الوالدين والأقربين؟! إنها لفتةٌ وهمسةٌ لا تعني التقليلَ من الجهود الطيبةِ مع الآخرين.. لكن مراعاةِ الأقربين وتوجيهِ العنايةِ بمن يُظلُّهم سقفٌ واحدٌ من الأبوين والإخوةِ والأخواتِ.

وبكلِّ حالٍ، فالدعوةُ لنا جميعًا بقوله تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربّ العالمين، أمر بالعدل والإحسان ونهى عن الفحشاء والمنكر والآثام، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، كفى به حسيبًا ورقيبًا، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، ما فتئَ يوصي أُمتَه باغتنام الأوقاتِ بما ينفعُ، ويحذِّرهم ويذكِّرهم بالسؤالِ عن التفريط والإهمال، وهو القائل: «**لا تزولُ قدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسألَ عن عُمُرِهِ فيمَ أَفناهُ، وعن عِلْمِهِ فيمَ فعلَ، وعن مالِه من أين اكتسبَه وفيم أنفقَه، وعن جسمه فيم أبلاهُ**»[1].

اللهمَّ صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: وهناك مركزُ التربيةِ الدائم، وملتقى الإيمانِ، ومحضنٌ هامٌّ من محاضن التربيةِ للصغار، بل وللكبارِ.. لا يُغلَق أبدًا، ولا تنقطعُ رسالتُه في ليلٍ أو نهارٍ.. ومع ذلك نغفلُ كثيرًا عن استثماره، وربما تجاوزناه إلى غيره وهو أعظمُ أهميةً.. إنها بيوتُ اللهِ مفتوحةٌ أبوابُها للكبار والصغارِ، والرجالِ والنساءِ، وأهلِ الحيِّ والزائرين، أو المسافرين والغرباءِ والمقيمين، فما هو أثرُ المسجد في الحيّ بشكلٍ عام، وما البرامجُ التي يمكن أن يقومَ بها في إجازة الصيف مساهمةً في تربية أبنائنا وبناتِنا ورعايةً وتعليمًا للمحتاجين والوافدين؟ ما هي أنواعُ المسابقاتِ التي يمكن أن تنطلقَ من المسجد؟ إن في حفظ شيءٍ من كتابِ اللهِ أو سُنةِ نبيِّه ﷺ، أو قراءةِ كتابٍ نافع.. أو صياغةِ مجموعةٍ من أسئلة نافعةٍ. يَعمُّ نفعُها للذكور والإناثِ والصغارِ والكبار.. وتكون جزءًا من رسالة المسجدِ.. هل يتعاون جماعةُ المسجدِ على معرفةِ أهلِ الحوائج في حيِّهم

---

(١) أخرجه الترمذي (ح٢٤١٧) والدارمي (ح٥٤٣م) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح: وانظر: صحيح الجامع الصغير ٦/ ١٤٨ ح٧١٧٧.

ويسدّوها، ويتعرفون على المقصِّرين في الصلاة فيهدون لهم النُّصحَ والتوجيهَ؟ هل تنظِّم الجهاتُ الرسميَّةُ - على الأقلِّ في الصيف - دوراتٍ نافعةً للأطفالِ وأخرى للشبابِ، وثالثةً للنساء، ورابعةً لإخواننا الوافدين، لتعليمهم ما يحتاجون إليه؟

إن على الأئمة كِفْلًا من المسئولية للتفكير في عدد من الوسائل تَندرجُ ضمن رسالةِ المسجد، والتنسيقِ مع جهة الاختصاص فيما يحتاج إلى تنسيق، وعلى جماعة المسجدِ أن يكونوا عونًا له، فالتعاون على الخير مطلبٌ، وهو أساسُ النجاح، وإن المساجدَ أهلٌ لأن تكونُ مناراتِ توجيهٍ وإرشادٍ في الأحياء، فهل أدّتِ المساجدُ دورَها في الأحياء؟ وهل تنتهي مهمةُ المسجد عند قضاءِ الصلواتِ؟ مع عِظَمَ هذه الشعيرة، ولكنّ صلاةَ الجماعةِ والتِقاءَ المسلمين كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ حَرِيٌّ بأن يُستثمرَ لنشر الخيرِ وسدِّ الحوائج والنهي عن المنكر.

ولقد كان مسجدُ رسولِ الله ﷺ متعددَ الأغراضِ والنفع، فيه كان يقيم الغرباءُ، وبه كان يُداوي الجرحى، وبه يُربطُ الأسراءُ، وبه يُنفقُ على الفقراء، ومنه تنطلق راياتُ الجهادِ، وبه تُعقدُ حِلَقُ العلم، وبه يَتشاورُ المسلمون فيما يحتاجون إلى مشورة، بل وبه يُنشدُ الشعرُ دفاعًا عن الإسلام، وبه كانت تَأوي النساءُ اللائي أسلمن من أحياء العربِ ولم يَجدنَ مأوىً غير المسجد[1].

إلى غير ذلك من مهام جليلةٍ - انحسر معظمُها في مساجدنا اليوم وهي محتاجةٌ إلى البعث والتجديد.

إخوة الإيمان: وما أروعَ الأمرَ حين يكون مسجدُ الحيِّ ملتقى للناشئة، من خلاله يقرؤون ويتحلَّقون ويتعلَّمون، ومن خلاله يتسابقون ويتنافسون. . فيصطبغُ

---

(١) البخاري ح٤٣٠٩ السيرة النبوية د. مهدي رزق الله/ ٢٩٧.

في قلوبهم حبُّ المساجدِ منذُ الصِّغر، ويعلمون آدابَ المسجدِ، وأحكامَ الصلاةِ، ونحوَها من معارفَ وآدابٍ وأخلاقٍ.

إن أحياءَ رسالةِ المسجدِ مسئوليةٌ لا يتحمّلُها الإمامُ وحدَه - وإن كان دورُه كبيرًا - بل هي مسئوليةُ جماعةِ المسجد، ومسئوليةُ الجهاتِ المسئولةِ عن المساجد.. ويوم أن تتضافرَ الجهودُ، فيبذلُ العالمُ من علمِه، ويشاركُ المربي في تربيته، وينفق الغنيُّ من ماله، ويشارك أهلُ الرأي برأيهم.. يومها سيغدو للمسجد شأنٌ آخر، وستتخرج أجيالٌ من المسجد كما تخرَّجت الأجيال الأولى، وسينعم أهلُ الحيّ بالهدوء والسكينةِ، وتنتهي التجمعاتُ الفارغةُ، والعبثُ بالسيارات وإيذاءُ المارّة.

إنها دعوةٌ لتفعيل دورِ المسجد لأكثر من غَرَض، فهل نبدأُها من هذه الإجازة؟

إخوة الإسلام: ومجالاتُ الخير أو فُرَصُ استثمار الوقتِ في هذه الإجازة كثيرةٌ متنوعةٌ -وما مضى قليلٌ من كثير- فالتفرغُ لحفظ كتابِ الله أو شيءٍ منه في هذه الإجازة مطلبٌ نفيسٌ.. والمطالعةُ في كتب العلم النافعةِ وتحصيلُ العلم مع الإخلاص قربةٌ إلى الله - وهو مما تُحفظُ به الأوقاتُ. والمساهمةُ في الدعوة إلى الله، إن في الحيِّ، أو في القرى النائيةِ، أو في بلادِ المسلمين القريبةِ أو البعيدةِ.. كلُّ ذلك جهادٌ في سبيل الله ودعوةٌ إلى دينه، والمساهمةُ في المراكزِ الصيفيةِ إشرافًا أو مشاركةً بهدف الإصلاح والاستصلاحِ كذلك يُعدُّ ثغرةً من ثغراتِ الدعوة، يحتاج إلى احتسابٍ وتجديد في الوسائل، واستصحابُ المسافر معه مجموعةً من الكتيبات، والأشرطةِ النافعة وتوزيعُها على المحتاجين عملٌ طيبٌ، وله آثارُه النافعةُ بإذن الله، وحين يقوم الشابُّ في العمل وظيفيًا، أو بيعًا وشراءً في هذه الإجازة لتأمين حوائجه والاستغناءِ عن المسألة.. بل والتفكير لإحصان نفسِه بالزواج مستقبلًا.. كلُّ ذلك رجولةٌ وشهامة، وقد كان خِيرةُ

الخلقِ يأكلون من كسب أيديهم، إلى غير ذلك من وسائل يمكن أن يُستثمرَ بها الوقتُ في الإجازة، وهذا عامّ للرجال والنساء والموظفين ورجالاتِ الأعمال، والصغارِ والكبارِ.. ولهؤلاء جميعًا يُقال: احذروا من البطّالين ولصوصِ الأوقات، فإنهم من أعظم الأسباب لضياع العمرِ وقتلِ الأوقات - وهم ينشطون ويكثرون في الإجازات - وهؤلاء قد حذَّر منهم قبلنا العارفون، وشكي منهم ابنُ الجوزيِّ رحمه الله، فقد عقد في كتابه «صيد الخاطر» فصلًا في (أهل الفراغ بلاءٌ) فراجعه إن أردتَ معرفةَ ذلك.

اللهمَّ ألهِمْنا رُشدَنا، وأعِنّا على استثمار أوقاتِنا بما ينفع، ولا تجعلِ الدنيا أكبر هَمّنا ولا مبلغَ عِلمنا.



نحن وأهل الكتاب[١]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربّ العالمينَ، يهدي من يشاءُ ويضلُّ من يشاءُ، ومن يهدي اللهُ فما له من مضلٍّ، ومن يُضلل فليس له من سبيل.

وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له مقاليدُ السماواتِ والأرضِ، وله الخلقُ والأمر، تبارك الله ربُّ العالمين.

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، بعثه اللهُ رحمةً للعالمين، ورسالتُه للناسِ كافّةً، وأخذ اللهُ له الميثاقَ على النّبيين بالإيمان والتصديق والنُّصرة له حين يُبعثُ، وكذلك أُخِذَ الميثاقُ على الأنبياءِ لتبليغ أُمِمهم بهذا الميثاق.. فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الأنبياءَ ووفى بالميثاق، ومن عصاه ضلّ وهو في عدادِ الناقضين للميثاق، واقرءوا إن شئتمَ قولَه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[٢].

أيها المسلمون: المعركةُ بيننا وبين أهلِ الكتابِ من اليهود والنّصارى معركةٌ قديمةٌ متجدِّدة، والعداوةُ متأصِّلةٌ باقيةٌ حتى يدخلَ أحدُنا في دين الآخر ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾[٣].

وهذه المعركةُ لها سلاحان: سلاحٌ ماديٌّ يختلفُ ويتجدّد باختلاف العصور،

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٠/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

فمن الحَرْبة والسيف إلى الدّبابة والمدفعيةِ والطائراتِ المقاتلةِ، وأنواعِ الأسلحةِ الحديثةِ، ونحن وإيّاهم في هذا السلاحِ نتناوبُ النصرَ والهزيمةَ، فتارةً نغلبُهم ونحطِّمُ قُواهُم - كما حصَل في فتراتٍ من التاريخ - وتارةً يغلبونَنا ويُذلّون أعزاءنا ويقهروننا ويحتّلون أرضَنا ويسيئون إلى مقدساتنا - كما هو واقعُ اليومَ - ولكن السلاحَ الآخرَ وهو السلاحُ المعنويُّ - سلاحُ الفكرِ والعقيدةِ - وما يَنتجُ عنه من حقٍّ أو باطلٍ - هذا السلاحُ لنا فيه الغلبةُ والتفوقُ قديمًا وحديثًا.

حكمَ القرآنُ بتفوّقِنا وصحّةِ دينِنا وحكَم على أهلِ الكتاب بالكذب وتلبيس الحقائق وكَتْمِ الحقِّ.. فقال عنّا وعن ديننا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(١)، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٢)، وقال عن أهل الكتاب: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾(٣)، وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٤).

أجل؛ لقد خاطب اللهُ علماءَ أهلِ الكتاب ناهيًا لهم عن تحريف الحقِّ وكتْمِه والتلبيسِ بالباطل فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٥).

وقرّر سبحانه -وهو أعلمُ بما تخفي صدورُهم- بمعرفتهم للحقّ الذي جاء به محمدٌ ﷺ -وإن خالفوه- فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٧.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧١.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

عبادَ اللَّهِ: إنّ عقيدَتنا -معاشرَ المسلمين- مع كونِها الأحقَّ والأجدرَ بالبقاءِ، وهي الرسالةُ الأخيرةُ للبشر.. فهي أوسعُ وأرحبُ من الأديان والعقائد الأخرى.. فنحن نؤمن بالأنبياء جميعًا، ونُجلُّهم ونقدّرُهم.. ونؤمنُ كذلك بما أُنزل عليهم ونعتقد أنه -قبل التحريف- من عند اللهِ يجبُ الإيمانُ به والتصديقُ، أما غيرُنا من اليهود والنصارى فيضيق أُفقُهم، ويؤمنون ببعض الكتابِ ويكفرون ببعضٍ، ويعظّمون أنبياءَ إلى حدِّ عبادِتهم من دون اللهِ.. ويعتدون على آخرين ظلمًا وعدوانًا بالسبِّ والتُّهم الباطلةِ والتكذيبِ، بل وصل الأمرُ بهم إلى قتْل بعضِهم، فضلًا عن تكذيبهم ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[(١)].

أما نحن -معاشرَ المسلمين- فأحدُ أركانِ الإيمان عندَنا الإيمانُ بالكتب السماويةِ المنزَّلةِ، وبالرُّسل المرسلَةِ من اللهِ، وفي كتابنا العزيز: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[(٢)].

أيها المسلمون: وهناك حقيقةٌ لا بد أن نُدركَها وهي أنّ رفضَ أهلِ الكتاب للحقّ الذي يُمثّله دينُنا ليس سببُه الجهلَ دائمًا، بل قد يعلمون الحقَّ -ولا سيَّما العلماء منهم- ويُصرُّون على الباطل، وفي «صحيح البخاري» من حديثِ أبي سفيانَ وقصة نزوله عند هرقلَ -زعيمِ الروم- ما يكشفُ هذه الحقيقةَ بجلاءٍ.. وقد قال هرقلُ زعيم النصرانيةِ حينها، لزعيم الوثنيةِ حينها أبي سفيانَ: إن كان ما تقولُ حقًّا فسيملكُ موضعَ قدميَّ هاتين، وقد كنتُ أعلمُ أنه خارجٌ، لم أكن أظنّ أنه منكم، فلو أني أعلم أني أَخلصُ إليه لتجشّمتُ لقاءَه، ولو كنتُ عِندَه لَغَسَلْتُ عن قدمِه[(٣)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٧. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» مطوّلًا برقم (٣).

بل قال هرقلُ لعظماء الرومِ من بني قومِه: هل لكم في الفلاح والرُّشد، وأن يُثبَّتَ ملكُكم فتبايعوا هذا النبيَّ؟

ومع ذلك كلِّه، فقد ظل هرقلُ وعظماءُ الروم على نصرانيتِهم الباطلةِ وحاربوا الدِّينَ الحقَّ.. وكانت معركةُ (مؤتة) بين المسلمين والنصارى والرسولُ ﷺ لا زال حيًا.. ثم استمر النصارى في صراعٍ مع المسلمين حتى قضوا على دولتِهم وملكوا موضعَ قدمَي هرقلَ، وغادر الشامَ منهزمًا أمام جند المسلمين، وهو يقول: «سلامٌ عليكِ يا سوريةَ لا لقاءَ بعدَه».

واليوم، ومع ضعفِ المسلمين وغَلبةِ أهلِ الكتابِ غلبةً ماديةً.. لا نشكُّ أنه يوجدُ من أهل الكتابِ من يعلمُ الحقَّ الذي يمتلكُه المسلمون وإنّما كتمانُ الحقِّ يتكررُ ويتجددُ بين أهل الكتابِ، ولكن مهما طال ليلُ الظالمين فستنكشفُ الحقيقةُ، وينبلجُ الصبحُ مؤذنًا بنصرةِ الحقِّ وأهلِه، وهزيمةِ الباطلِ وأنصارِه.. ولكن ذلك كذلك مرهونٌ بنصرةِ المسلمين لدينهم وثبَاتهم على حقِّهم وتمسُّكِهم بعقيدتهم ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[3].

إنّ كُتَبَ أهل الكتابِ - التي لم تُحرّفْ - تشهدُ على هذه الحقيقةِ، وتعترفُ بحقِّ المسلمين، وباللعنةِ والغضبِ على اليهود والنصارى.. وقديمًا أُقيمت الحجةُ على أهل الكتابِ من خلال كتبهم، وتحدّاهم الرسولُ ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[4]، ثم ظهرت بعد قرون من وفاة النبيِّ ﷺ كتبٌ تردُّ على النصارى في دعواهم، وتكشفُ ما في كتبهم من تحريفٍ ومغالطات وتَستدلُّ بما لم يُحرَّفْ منها على الحقِّ الذي جاء به الرسولُ ﷺ..

---

(١) سورة محمد، الآية: ٧.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٣.

وكان كتابُ شيخ الإسلامِ ابنِ تيمية رحمه الله «الجوابُ الصحيح لمن بدّل دينَ المسيح» حجةً على القوم.. وردًا على المبطلين.. وكشفًا للحقيقة أمام المصنفين.

واليوم ظهرت دراساتٌ تكشفُ عن هذه النبوءات في التوراة، وتشير - فيما تشير إليه - إلى قربِ نهايةِ دولةِ إسرائيل - والعلمُ عند اللهِ - ولعلّ من أواخر هذه الدراساتِ وأحدثِها كتابٌ بعنوان «يومُ الغضب هل بدأ بانتفاضة رجبٍ؟»(١). وهو: قراءةٌ تفسيريةٌ لنبوءات التوراةِ عن نهاية دولةِ إسرائيلَ، وهي مأخوذةٌ من كتب القومِ وأسفارِهم، وفي مقدمة الكتابِ قال المؤلفُ: إن التوراةَ لا تدلُّ فحسب على أن قضيةَ الجنديِّ الصهيونيِّ غيرُ عادلةٍ، بل تدلّ على أنّ من الواجب عليه أن يُقاتل في الصف المقابلِ، كما تفرضُ على المستوطِن أن يعلمَ أن قدومَه إلى هذه الأرضِ، إنما هو لاستنزالِ عقوبةِ اللهِ وإحلالِ غضبهِ عليه، فلا أقلّ من أن يرحلَ.

ثم يقول المؤلفُ: «إنني أنصحُ كلَّ يهوديٍّ في أرضنا المحتلةِ ألّا يدَعَ التوراةَ حِكْرًا على محترفي الكِهانة الذين يَحصلون على إعفاءٍ مجّاني من الخدمةِ العسكرية، بينما هو يُقدِّم نفسَه من أجلها وأجلِهم، إنني أنصحه أن يقرأها ولكن بعقلِهِ ووعيِهِ لا بشروحاتهم وتأويلاتهم، وسيرى الحقيقةَ التي لا بد للعالم كلِّه أن يراها عمّا قريب».

وفي الكتاب الآنف نصوصٌ وشواهدُ من كُتب القوم تشهدُ على كذبِ اليهودِ والنصارى في دعواهم الحقَّ في قضيتهم، وتكشفُ عن الزيف في النبوءات التي يُروّجها كهنةُ الأصوليين من اليهود والنصارى.. بل وفيه كذلك ما يشهد لنبوءات

(١) للدكتور: سفر الحوالي.

المسلمين عن نهاية اليهودِ وهزيمةِ المسلمين لهم.

ومن المتوقع أن يكون لهذا الكتابِ أثرُه عند الباحثين عن الحقّ من أهل الكتابِ، لاسيّما وقد بدأت ترجمةُ الكتاب إلى اللغة الإنجليزيةِ، وسواء وقع الأثر الإيجابيُّ وانتفع به أو بغيره اليهودُ والنصارى أو لم ينتفعوا، فالحقُّ ظاهرٌ بإذن الله بوعدِ اللهِ، واللهُ لا يُخلفُ الميعادَ، أعوذ بالله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].



(١) سورة الصف، الآية: ٩.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، أحمَدُه تعالى وأشكُره وهو أهلُ الثناءِ والحمدِ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في رُبوبيتهِ وأُلوهيتهِ وأسمائِه وصفاتِه، وأشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وخِيرَتُه من خلْقِه وخاتَمُ رسلهِ وأنبيائه، اللهمَّ صلِّ وسلّم عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين.

أيها المسلمون: واستكبارُ أهلِ الكتاب عن الحقِّ، وبُهتُ اليهودِ خاصّة، ليس وَليدَ الساعةِ، بل وقع في أيام الإسلامِ الأولى والرسولُ ﷺ حيٌّ يتلو ما أُوحي إليه، ويُخبرُ أهلَ الكتابِ بأنبيائهم وما نزلَ عليهم.

وإذا استثنينا طائفةً من اليهود والنصارى فتحَ اللهُ على قلوبهم واتّبعوا الحقَّ، وكانت أعينُهم تفيض من الدّمع إذا سمعوا من أُنزل على الرسولِ ﷺ، وهم الذين قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]. ومنهم الذين إذا تلي عليهم القرآن يخرون للأذقان سجدًا ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[2].

إذا استثنينا هذه النماذجَ المؤمنةَ المصدّقة، فالأكثريةُ من أهل الكتاب كفروا واستكبروا كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

معاشر المسلمين: ودعونا نتوقفُ عند شاهدِ بني إسرائيل، كيف شَهِد؟ وعلى ما شهد؟ وما موقفُ قومِه من شهادته؟

---

(١) سورة المائدة، الآيتين: ٨٣، ٨٤. (٢) سورة الإسراء، الآيتين: ١٠٨، ١٠٩.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٠.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: وهذا الشاهدُ اسمُ جنسٍ يَعُمّ عبدَ اللهِ بنَ سلامٍ رضي الله عنه وغيره[١].

وعبدُ اللهِ بنُ سلامٍ هذا واحدٌ من علماءِ اليهود وأحبارِهم شاء اللهُ له أن يكونَ في عِداد المسلمين، وأن يكشف سوءاتِ ومغالطاتِ اليهودِ، وقد شهد لمحمدٍ ﷺ بصدق الرسالةِ، وشهد على قومه بالبُهت والمُكابرة والكذبِ.

وقصتُه -كما في «صحيح البخاري»- عن أنسٍ رضي الله عنه: أن عبدَ الله بنَ سلام أتى إلى رسولِ الله ﷺ مَقْدَمهُ إلى المدينة فقال: إني سائلُك عن ثلاثٍ لا يعلمُها إلا نبيٌّ: ما أولُ أشراطِ الساعةِ؟ وما أولُ ما يأكلُه أهلُ الجنّةِ؟ ومِن أين يُشبهُ الولدُ أباه وأُمَّه؟

فقال: «**أخبرَني بهنّ جبريلُ آنفًا**». قال: ذاك عدوُّ اليهودِ من الملائكة. قال رسولُ الله ﷺ: «**أمّا أولُ أشراطِ الساعة: فنارٌ تخرجُ من المشرقِ فتَحشُرُ الناسَ إلى المغربِ، وأما أولُ ما يأكلُه أهلُ الجنةِ: فزيادةُ كَبِدِ الحوتِ، وأما الشَّبَهُ: فإذا سبق ماءُ الرجلِ نَزَعَ إليه الولدُ، وإذا سبق ماءُ المرأةِ نزَعَ إليها**». قال: أشهد أنك رسولُ الله، وقال: يا رسولَ الله، إن اليهودَ قومٌ بُهْتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي بَهتوني، فأرسِل إليهم فسَلْهم عنّي -يعني قبل أن يعلموا بإسلامي- فأرسل إليهم فقال: «**أيُّ رجلٍ ابنُ سلامٍ فيكم؟**». قالوا: حَبْرُنا، وابنُ حَبْرِنا، وعالِمُنا وابنُ عالِمنا، قال: «**أَرأيتُم إن أسلمَ تُسلمونَ؟**». قالوا: أعاذَه اللهُ من ذلك، قال: فخرج عليهم عبدُ الله، فقال: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ اللهِ، فقالوا: شَرُّنا وابن شرِّنا، وجاهِلُنا وابنُ جاهِلنا. فقال: يا رسول الله، ألم أُخبرْك أنهم قومٌ بُهت[٢].

---

(١) ٤/ ١٦٥.

(٢) البخاري في أول الأنبياء ٦/ ٢٦١، في مناقب الأنصار ٧/ ٢١٢٥ وفي التفسير ٨/ ٢٥.

إخوة الإيمان: ونستفيد من هذه الحادثةِ عدةَ دروسٍ، منها: أولًا: أن أهلَ الكتابِ منهم مَن يسمعُ الحقَّ ويستجيبُ للدعوة؛ كعبدِ اللهِ بن سلامٍ، والنجاشيِّ، وأمثالِهم من مؤمني أهلِ الكتاب.

ومنهم - وهم الغالبيةُ - من يستكبرُ حتى ولو ظهر الحقُّ له، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾[1]. وأولئك أفحمَهم القرآنُ وجادلهم الرسولُ ﷺ في عقائدهم، وما أنزل اللهُ في كتبهم، ولكنهم ظلّوا في غيِّهم سادِرين، وعن اتّباع محمدٍ ﷺ رافضين، وفي سورة آلِ عمرانَ والنساءِ والمائدةِ وغيرِها نماذجُ لهذه المحاورةِ المُفحِمة، ومن يضللِ اللهُ فما له من هادٍ، أولئك لم تنفع معهم البيّنةُ، وأولئك الذين قال الله عنهم: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[2].

ثانيًا: هناك فرقٌ بين عداوة المشركين من أهل الكتاب، وبين دعوتهم للحقِّ، فعداوتُهم من مقتضياتِ الوَلاءِ والبراءِ، والله نهانا أن نتَّخذهم أولياءَ، والحبُّ في اللهِ والبُغضُ في الله أوثقُ عُرى الإيمان.

أما دعوتُهم، فَذلك لإبراء الذّمةِ من جانبٍ، ولقطع الحُجّةِ عليهم ببيان الحقِّ من جانبٍ آخر، وتلك كان يمارسُها الرّسولُ ﷺ معهم، بل ويَدخلُ عليهم كنائسَهم من أجلها.

روى الحاكم وصحّحه ووافقه الذهبيُّ من حديث عوفِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: انطلق نبيُّ الله وأنا معه حتى دخلنا كنيسةَ اليهودِ، فقال: «**أروني يا معشَر يهودَ**

---

(١) سورة البقرة، الآيتين: ١٤٦، ١٤٧.　　(٢) سورة البينة، الآيتين: ٤، ٥.

اثني عشرَ رجلًا يشهدون أن محمدًا رسولُ الله، **يَحطُّ اللهُ عنكم الغضَبَ**». فأُسكِتوا، ثم أعاد عليهم، فلم يُجبْه أحدٌ، قال: «**فواللهِ لأنا الحاشرُ وأنا العاقبُ، وأنا المصطفى، آمنتُم أو كذّبتم**». فلما كاد يخرجُ قال رجلٌ: كما أنت يا محمدُ، أيُّ رجلٍ تعلموني فيكم؟ قالوا: ما فينا أعلم منك، قال: فإني أشهدُ بالله أنه نبيُّ اللهِ الذي تجدونه في التوراةِ، فقالوا: كذبت، فقال رسولُ الله ﷺ: «**كذبتُم**». قال الراوي: فخرجنا ونحن ثلاثة وأُنزلت: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾[1].

ثالثًا: ونستفيد من هذه الحوادثِ والمروياتِ أنّ أسفارَ أهلِ الكتابِ التي لم تُحرَّفْ تدعو أهلَ الكتابِ للإيمان بمحمدٍ ﷺ واعتناقِ الإسلامِ، وترْكِ اليهوديةِ والنصرانيةِ، فأنبياءُ بني إسرائيلَ، بشّروا ببعثةِ محمدٍ ﷺ قبل أن يُبعثَ، وأخذوا على قومِهم لئن بُعث محمدٌ ﷺ وهم أحياءٌ ليؤمُنُنّ به ولينصرُنَّه.. وإبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء من بني إسرائيلَ، ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا.. ويعقوبُ عليه السلام كانت وصيَّتُه لأبنائه حين حضرتْه الوفاةُ، وكان اعترافُ أبنائه له بالعبودية للهِ وحدَه أنهم مسلمون للهِ.. فأين يذهبُ أهل الكتاب إذا كانت كُتبهم المنزلةُ تدعوهم إلى الإسلام.. وأنبياؤهم يُوصونَهم حتى المماتِ بالإسلامِ.. إنها حُجَجٌ قاطعة، وإلزامات ما لهم عنها من خَلاصٍ ولا محيص، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذبَ وأولئك لا يفلحون.

رابعًا وأخيرًا: وكما يوجد عند أهلِ الكتابِ استكبارٌ عنِ الحقِّ وعِنادٌ عن دخول الإسلامِ -إلا مَن رحمَ اللهُ- فثمّةَ ضعفٌ عند المسلمين في دعوتِهم ومجادلتِهم بالحُسنى - دون تنازلٍ عن شيء من الحقِّ.. بل وبأسلوب يُقنعون به

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٠، المستدرك ٣/ ٤١٥، ٤١٦.

الخصمَ، وإذا استكبر العالِمون المنتفعون فثمّةَ طوائفُ من عوامٍّ أهلِ الكتابِ لا يعرفون الحقيقةَ وأولئك جَديرون بالدعوةِ، وإذا قيل للرسول: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾(١)، فليس غيرُ الرسولِ بُملزَمٍ بما فوق البلاغِ، فهل يا تُرى يستجمعُ المسلمون طاقتَهم الفكريةَ وأدلّتَهم الناصعةَ لدعوة أهلِ الكتاب.. إن ذلك سيقلبُ ميزانَ القُوى، وسينقذ اللهُ به أقوامًا من الضلالة إلى الهُدى.



(١) سورة الشورى، الآية: ٤٨.

فتنة الشهوة[1]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإسلام: منذُ قديم الزمانِ وحديثِه، وهناك نوعان من الفتن تتعرَّض لهما النفوسُ المسلمةُ، ولا سلامة منها إلا بالاعتصام بكتاب اللهِ، وهَدْي المصطفى ﷺ، ومجاهدةِ النفس وترويضِها، ومغالبتِها على اتباع الحقِّ ورفضِ الباطلِ، هاتان الفتنتانِ هما: فتنةُ الشهواتِ، وفتنةُ الشُّبهاتِ.

تتعلَّق الأولى بالبطون والفروج غالبًا، وتتعلَّقُ الثانيةُ بالعقول والقلوبِ كثيرًا، وإليهما جاء التحذيرُ الإلهيُّ في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾[2]. وبقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[3].

عباد اللهِ: ولا تزال هاتان الفتنتان في الناس، فتُفسدُ فتنةُ الشُّبهاتِ عقولَ أقوامٍ وتُزيِّنُ لهمُ القبيحَ، وتصدُّهم عن سبيل اللهِ وسبيلِ المؤمنين، وإن كانوا

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢١/ ٣/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

يَرونَ أنهم يُحسنون صنعًا. . وتعمى قلوبُ هؤلاء عنِ الحقِّ، وإن كان عند غيرِهم أبلجًا، وفي هذا النوع من الفتن يجد الشيطانُ مرتعًا خصبًا، وتتكاثرُ الخواطرُ الشيطانيةُ، وتُولِّد الشُّبهةُ شبهةً أخرى. . وهكذا، نسألُ اللهَ السلامةَ من الفتن.

وأصحابُ هذه الفتنةِ -كما قال ابنُ القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ- مركبُهم القِيلُ والقالُ، والشكُّ والتشكيكُ، وكثرةُ الجدالِ، ليس لها حاصلٌ من اليقين يُعوَّل عليه، ولا معتَقَدٌ مطابقٌ للحقّ يُرجع إليه، يوحي بعضُهم إلى بعض زُخرفَ القول غرورًا، اتخذوا لأجل ذلك القرآنَ مهجورًا، وقالوا من عند أنفسِهم، فقالوا مُنكرًا من القول وزورًا، فهم في شكِّهم يَعمهون، وفي حَيرتهم يتردَّدون، اتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على أَلْسنةِ أسلافهم من أهل الضلال، فهم إليه يتحاكمون، وبه يتخاصمون. . قد ضلُّوا من قبلُ وأضلُّوا كثيرًا وضلُّوا عن سواء السبيل[1].

وهنا حديثٌ يطولُ عن هذا النوع من الفتن، وليس هذا موطنَ بسطِه، ولكن الحديثَ اليومَ عن فتنة الشهواتِ وآثارِها، وصرعها وسُبل النجاةِ منها، وأخصُّ من ذلك شهوةَ الفروج، وقد يكون المفتونون بهذا النوع أكثرَ في زمنٍ كثُرت فيه المغرياتُ، وتفنَّن أصحابُ الشهواتِ في اقتناص المسلمين والمسلماتِ. .

أجل، لقد عَملتِ القنواتُ الفضائيةُ وغيرُها من وسائل الإعلامِ المنحرفةِ الأخرى عمَلَها في نشر الرذيلةِ، وتحطيم جُذُرِ الفضيلة، ووأْدِ الحياءِ، وتوارى الخُلقُ الكريم في عددٍ من البرامجِ. . بل صار التنافسُ المحمومُ لتقديم مادةٍ إعلاميةٍ تستهوي المشاهدين والمستمعين، حتى ولو كانت على حساب الدّين والخُلُق والمروءة والحياءِ، وفي ظل هذه الإثاراتِ تُستفزُّ المشاعرُ، وتُثارُ الغرائزُ.

(١) إغاثة اللهفان - بتصرف يسير: ١/ ١٨٧.

ولا يسلمُ من الوقوع في هاوية الرذائل إلا من عصمَه اللهُ، وأدرك خطورةَ المشاهدةِ أولًا، وخطورةَ الاستجابةِ لما بعد المشاهدةِ ثانيًا.

عبادَ الله: إنني أخاطبُكم جميعًا، ذُكرانًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا.. واسمحوا لي أن أَخُصَّ بالخطاب أكثر الشبابَ والشاباتِ، فهم أكثرُ من غيرهم تأثُّرًا، والمروِّجون للفسادِ يُراهنون عليهم أكثر من غيرهم.. وحين أخصُّ هؤلاء وأخاطبكم جميعًا، أقفُ الوقفاتِ الثلاث التاليةِ في سبيل دَرْءِ الخطرِ، والتحصُّن من آثار هذه الفتنةِ:

الوقفة الأولى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾[1].

إنه أصدقُ خطابٍ وأرحمُ خطاب، يوجِّهه الرحمنُ الرحيمُ، والخلاقُ العليمُ لمن خلقَ، وهو أعلمُ بمن خَلقَ، إن في غضِّ الأبصار، وحفظِ الفروج تزكيةً للنفوس، وطهارةً للقلوب ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2].

وحين يعالج المرءُ نفسَه على غضّ بصرِه عمّا حرم اللهُ عليه، يورثه اللهُ حلاوةً في قلبه، ويَسلمُ من منغّصاتِ هذه النظرةِ وآثارِها، والمتأمّل في الآيةِ يرى البدءَ بغضِّ البصَرِ قبل حفظِ الفرج؛ لأن البصرَ رائدٌ للقلب، كما قيل:

ألم ترَ أن العينَ للقلبِ رائدٌ ... فما تألفُ العينانِ فالقلبُ آلفُ

قال العارفون: البصرُ هو البابُ الأكبرُ إلى القلب، وأعمرُ طرقِ الحواسِّ إليه، وبحسبِ ذلك كثُرَ السقوطُ من جهتِه، ووجب التحذير منه[3].

ألا فاحذر يا عبدَ الله، وجاهدْ نفسَك عن النظرةِ المحرّمةِ، فإن الشيطانَ يريد منك ما بعدَها، وإذا كنتَ تنفرُ من كلمة الزنا وتَستوحشُ من آثارها -وحُقَّ لك ذلك- فهل علمتَ أن النظرةَ المحرَّمة زنا العينين، وفي «صحيح» مسلم قال ﷺ:

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٠. (٢) سورة النور، الآية: ٣٠.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٢٢٣.

«**إنّ اللهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حظَّه من الزنا، أدركَ ذلك لا محالةَ؛ فالعينانِ تَزنيانِ وزناهُما النظرُ**» الحديث.

وكم تخون النظرةُ، وكم يُعظِّم الشيطانُ المنظورَ. ولو لم يكن بذاك، قال مجاهد رحمه الله: «إذا أقبلتِ المرأةُ جلسَ الشيطانُ على رأْسِها فزّينها لمن ينظرُ، فإذا أدبرتْ جلس على عَجُزها فزيَّنها لمن ينظر»(١).

وكم تُفسد النظرةُ المحرَّمة في القلب!.

قال خالدُ بنُ أبي عمران: «لا تُتْبِعنَّ النظرةَ النظرةَ، فربما نظر العبدُ نظرةً نَغِلَ منها قلبُه - أي فَسَدَ - كما يَنْغِلِ الأديمُ فلا يُنتفعُ بهِ»(٢).

بل إنّ الناظرَ يُرْمى بسهامِ النظرِ قلبُه من حيثُ يشعر أو لا يشعرُ، قال الشاعر:

يا راميًا بسهام اللَّحْظِ مجتهدًا ... أنتَ القتيلُ بما يُرمى فلا تُصِبِ
وباعثُ الطّرْفِ يرتادُ الشفاءَ له ... تَوَقَّه إنه يأتيكَ بالعَطَبِ(٣)

ونقل القرطبيُّ رحمه الله: أن الشعبيَّ رحمه الله كرِهَ أن يُديمَ الرجلُ النظرَ إلى ابنتِهِ أو أُمه أو أختِه. ثم قال القرطبي - وزمانه خيرٌ من زماننا هذا -: وحرامٌ على الرجل أن ينظرَ إلى ذاتِ مَحْرَمِهِ نظرَ شهوةٍ يردِّدها(٤). وماذا يقولان لو علما ما سيكون في زماننا؟!

أيها المسلمون: إن الإسلامَ يهدفُ إلى إقامةِ مجتمعٍ نظيف لا تُهاج فيه الشهواتُ في كلّ لحظةٍ، ولا تُستثارُ فيه دفعاتُ اللّحم والدّم في كلّ حين، فعملياتُ الاستثارةِ المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي، أما النظرة الخائنة والحركةُ المثيرةُ، والزينة المتبرجةُ، والجسمُ العاري فهذه كلّها لا

---

(١) القرطبي: ١٢٠/٢٢٧.
(٢) القرطبي، المصدر السابق ١٢/٢٢٧.
(٣) ابن القيم: روضة المحبين ص (٩٧).
(٤) السابق ١٢/٢٢٣.

تصنع شيئًا إلا أن تُهيّج ذلك السُّعار الحيوانيَّ المجنونَ، وإلا أن يَفْلِتَ زِمامُ الأعصابِ والإرادةِ، فإما الإفضاءُ الفوضويُّ الذي يضع النطفةَ في غير موضِعها، وإما الأمراضُ العصبيةُ والعقد النفيسةُ الناشئةُ من الكبح بعد الإثارة[١].

وما أعظم توجيه الخبير: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٢] الآية.

عباد الله: ومهما أطنبَ الخطباءُ، أو تحدث العلماءُ عن النظرة المحرَّمة وآثارِها، وعن حفظِ الفروج وسُبلِها، فلن يبلغوا مبلغَ القرآن في دقّةِ تعبيرِه، وإيجازِ كلماتِه.. والخطابُ فيه للرجل والمرأة جميعًا.

إن التحذيرَ من آثار النظرةِ، والأمرَ بغضِّ الأبصار، وحفظِ الفروج، تتأكدُ الحاجةُ إليه في زمنٍ بات المسلمُ مبتلًى بما يرى مِنْ مشاهدَ مثيرةٍ، فالأفلامُ والصورُ الهابطةُ تغزو البيوتِ، والنساءُ الكاسياتُ العارياتُ تمتلئُ بهن الأسواقُ والمجمّعاتُ العامة، وسلطانُ الحياءِ قلّ عند بعض الرجالِ والنساء، ولباسُ الحشمةِ صار أمرًا مستغرَبًا عند بعضِ النساءِ، والحجابُ بات عند بعضهنّ عائقًا عن الحياة مقيِّدًا لحركة المرأةِ -زعموا- وراموا نشرَ الرذيلةِ باسم الحريةِ والتبعيةَ باسم التقدمِ!!

وصنفٌ آخرُ من النساء بات الحجابُ عندهم فنًّا للزينةِ، تعرضُه اليومَ بشكلٍ، ثم تختار غدًا شكلًا آخر، وهكذا، ولم يعدِ الحجابُ حجابًا مشروعًا.. بل

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ١٨/ ٢٥١١.

(٢) سورة النور، الآيتين: ٣٠، ٣١.

سبيلًا للإثارة والزينة والفتنة، والمصيبةُ إذا استنوقَ الجملُ وطغى سلطانُ النساءِ، وضعُفت قِوامةُ الرجلِ، فلا تسأل حينها عن المفاسدِ والفتن!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].



(١) سورة النور، الآية: ١٩.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ حمدًا كثيرًا طيبًا مُباركًا فيه كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين.

عبادَ اللهِ..

الوقفة الثانية: «يا معشرَ الشبابِ من استطاعَ منكمُ الباءةَ فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصَرِ، وأحصنُ للفرجِ، ومن لم يستطعْ فعليهِ بالصومِ، فإنه له وِجاءٌ».

إن الزواجَ رحمةٌ ومودّةٌ واستجابةٌ للفطرة، وتهذيبٌ للغرائز، ووضع للبَذْرِ في منبتِه.. به تتكاثرُ الأمةُ، وبه تُغضُّ الأبصارُ وتُحفظُ الفروجُ.

إنه تاجُ الفضيلةِ، وسُنةُ الأنبياءِ والمرسَلين عليهم السلام وسبيلُ المؤمنين، واستجابةٌ لأمر اللهِ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[1].

عظّم اللهُ شأنَه، وسمَّى عَقْدَه: ﴿مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾[2].

وجعله آيةً من آياته؛ إذ به جعل بين الغريبيْنِ البعيدين مودةً ورحمةً وسُكنى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

إن الزواجَ يرفعُ من عيشِ البطالةِ والفتنةِ، إلى معاش الجِدّ والعِفّة، وبالإعراض عن الزواج - لمن قَدِرَ عليه - ينقرضُ النسل، وتُطفأ مصابيحُ الحياةِ، وتُقبضُ العِفّة.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢١.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢١.

عبادَ الله: ومن أقوى العللِ للإعراض عنِ الزواج، تفشّي أوبئة السُّفور والتبرُّج والاختلاط؛ لأن العفيفَ يخاف من زوجةٍ تستخفُّ بالعفاف والصّيانة، والفاجرُ يجد سبيلًا محرَّمًا لقضاءِ وَطَرِه متقلبًا في بيوت الدَّعارة - نسألُ اللهَ العافيةَ لنا ولإخواننا المسلمين - ومن هنا قال العارفون: إن مكافحةَ السَّفور والتبرُّج والاختلاطِ واجبٌ لمكافحةِ الإعراض عن الزواج(١).

معاشرَ الشبابِ - وإذا استطعتمُ الباءةَ - فلا تتردَّدوا في الزواج مخافةَ الفقر من جَرّاءِ الزوجةِ والعِيال، فسوف يُغنيكم اللهُ من فضلِه، وفي التنزيل: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٢).

معاشرَ الشباب: إن خطاب الرسول ﷺ لكم يحمل الدعوة ويفسر الهدف ويضع البديل والوجاء «**يا معشر الشباب منِ استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصومِ؛ فإنه له وِجَاءٌ**»(٣).

وفي حديث آخر: «**تزوّجوا؛ فإني مكاثِرٌ بكم الأُمَمَ، ولا تكونوا كرهبانية النصارى**»(٤).

معاشرَ الأولياء: وأنتم مخاطَبون، بل مأمورونَ من اللهِ بإنكاح الأيامى - وهم من لا أزواجَ لهم من رجالٍ ونساء ثيِّباتٍ وأبكارٍ(٥)، يقول تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾(٦).

الوقفة الثالثة: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٧).

---

(١) د. بكر أبو زيد: حراسة الفضيلة ١٢٠، ١٢١.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٢.

(٣) متفق على صحته.

(٤) هو في «صحيح الجامع الصغير» (٢٩٣٨).

(٥) السعدي «تفسير كلام المنان» ٥/ ١١٤.

(٦) سورة النور، الآية: ٣٢.

(٧) سورة النور، الآية: ٣٣.

معاشرَ الشبابِ: وتلك هي الوصيةُ الثالثةُ لكم، وهذا حكمُ العاجزِ عن النكاح - لسببٍ أو لآخرَ - أمرَه الله أن يستعِفَّ، أي: يكفَّ عن المحرَّم، ويفعلَ الأسبابَ التي تكفُّه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطرُ بإيقاعِه فيه[1].

معاشرَ الشباب: ومهما بلغت دواعي الشهوةِ، ومثيراتُ الفتنِ، ووسائلُ الإغواءِ والإغراءِ، فمن يتَّقِ اللهَ يجعل له مَخرجًا، ومن يَستعفَّ يُعفَّه اللهُ، ومن يستغنِ يغنِه اللهُ.

وما أروع المسلمَ - عمومًا والشبابَ خصوصًا - وهو يتعالى عن مثيراتِ الفتنةِ، ويحفظُ فرجَه عن الحرام، ويستخدمُ نظرَه في الحلال.

قال العارفون: إن العبدَ إذا حفظ فرجَهُ وبصرَه عن الحرام ومقدِّماتِه مع دواعي الشهوةِ، كان حفظُه لغيره أبلغَ، ولهذا سمّاه اللهُ حافظًا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾[2]. واعتبر ذلك من صفات المؤمنين.

إنّك لتُسَرُّ غايةَ السُّرور حين ترى طائفةً من الشباب يغضّون أبصارَهم تعفُّفًا وحياءً، وتستحي النساءُ المتبرجاتُ منهم بل تخافُهُم، فضلًا عن أن تُراودَهم على أنفسِهم، مع أن هؤلاء الشبابَ في مرحلةِ هَيَجان الغريزةِ، ولديهم رغبةٌ في النساء، لكنه العفافُ كَفَّهم وآثارُ الصلاح والتُّقى، به اللهُ حرَسَهم، اللهم زِدهم عفافًا وتُقًى، وأَغنهم من فضلك، وعوِّضهم بالحلال عن الحرام..

وإذا كان ربُّك يَعجبُ من شابٍّ ليست له صبوةٌ، فأحَدُ الثلاثةِ الذين لا يُكلِّمهمُ اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزكيِّهم ولا يَنظرُ إليهم.. شيخٌ زانٍ[3]، وفي مقابل

---

(١) السعدي: تفسير كلام المنان ٥/ ٤١٥. (٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» برقم (١٠٧).

ذلك فإنك لتعجبُ غايةَ العجبِ حين ترى كهلًا أو شيخًا كبيرًا لا يزال يُتبعُ النظرةَ النظرةَ، ويحقِّقُ النظرةَ في مواطنِ الزينةِ والشهوة في المرأةِ، مع أن لديه ما يُغنيه ويقضي وطَرَه -لكنها الفتنةُ وضعفُ الدِّيانة- نسألُ اللهَ يَعصمَ هؤلاء ويكفيَهم بما رزقهم، كما نسألُ اللهَ لنا ولإخواننا المسلمين السلامةَ من الفتن، ومنكراتِ الأقوالِ والأفعال.

أيها المسلمون: وهكذا يواجهُ الإسلامُ مشكلةَ الفتنةِ لشهوةِ الفروج مواجهةً عمليةً، فيُرشدُ عمومًا إلى غضِّ الأبصار، وحفظِ الفروجِ، ويأمرُ القادرين بالزواج لتتمَّ لهمُ العفةُ والحصانةُ المشروعةُ، وليحقِّق بالزواج المقاصدَ العظيمةَ، ويوجِّه العاجزين عن الزواج لأيّ سببٍ من الأسباب إلى الاستعفاف، حتى تتهيأَ لهم فرصُ الزواجِ. ويمنعُ من مقارفة وسائلَ أخرى كالزنا واللواط ونحوِها، ويحيط ذلكَ بأوصافِ الفاحشةِ والآثام وانتكاسِ الفِطر، في حين أنه يُثيبُ على قضاء الشّهوة في إطارها المشروع، ويَجزي بالحسنى على غَضِّ الأبصار وحِفظِ الفروج، فهل تَرون تنظيمًا يُداني أو يقاربُ هذا التنظيمَ الربانيَّ؟ ألا إنه يَستحقَّ الاستجابةَ، ويدعو وبواقعيتِه إلى العِفَّة والفضيلة.



الجريمة مظاهر وعلاج[١]

الخطبة الأولى:

أسبابٌ ومقترحات

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

عبادَ الله: وقعَ في يدي مجموعةٌ من قُصاصاتٍ لعدد من الصُّحُفِ المحليةِ تحملُ عناوينَ مثيرةً، وتتضمنُ صيحاتٍ مُحذرةً، وتلتمسُ حلولًا لمشكلةٍ بدأت، وظواهرَ أطلَّتْ، حَرِيّةٌ بأن تُعالجَ وتُدرسَ قبلَ استفحالِ الخطرِ وشيوعِ الجرائمِ والفتنِ، وليس يُجدي أن نتجاهلَ ما يقعُ، ونَدُسَّ رءوسَنا في الرمالِ وكأننا لا نرى ولا نسمعُ.

ومن بين هذه العناوينِ المثيرةِ:

مُترفونَ يتحرَّشونَ بالفتياتِ عُنوةً[٢].

ضبطُ أشرطةِ فيديو تدعو للتنصيرِ في جدة[٣].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٤/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

(٢) عكاظ ١٣/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

(٣) المدينة ٧/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

ممارسةُ التهورِ ليس احتفالًا بالعيد[١].

ظاهرةُ الانتحار إلى أين؟[٢].

التُّجارُ الحراميةُ يسرقونَ بثقةٍ لعدمِ تواجدِ رجالِ الأمنِ في الموقع[٣].

يتورطُ فيها المراهقون.. مُشادّةٌ كلامية تحفرُ قبرًا[٤].

منتحرُ جدة يلفظُ أنفاسَه الأخيرةَ[٥].

بدرية قتلت والدها بمساعدةِ أمّها ودفنته في الصحراءِ[٦].

إلى غير ذلك من أحداثٍ مؤلمةٍ، تكاد تنحصرُ أخبارُها في حدود أسبوعين فقط؟ حقًّا إنها عناوينُ مثيرةٌ، وأحداثٌ وممارساتٌ غريبةٌ على مجتمعنا، ولا تَمُتُّ بأدنى صلةٍ إلى قيمِنا وتعاليمِ إسلامِنا، نعم إن نزغاتِ الشيطانِ تجمَعُها.. ولكنها تخفي وراءها مسبباتٍ وأدواءَ وظواهرَ لا بد من دراستِها ولا بد من الجدِّيةِ في علاجها.

إنها خليطٌ من الفسادِ الخُلُقيِّ، والتهوُّرِ السلوكيِّ، والعنفِ المحموم، والسطوِ على حقوق الآخرين، والدعوةِ للرذيلة، بل وللأديانِ الباطلةِ، وفيها من ضعفِ الوازع الديني والعقوقِ لأصحابِ الحقوقِ ما لا يمكن وَصفُه، بل ويَصعبُ تصورهُ لولا أن الأحداثَ أثبتَتْهُ.

معاشرَ المسلمين: إننا جميعًا معنيونَ ومسئولون عن معالجةِ هذه الظواهر الغريبة.. ولكن قبلَ العلاج لا بد من استكمالِ توصيفِ الظاهرةِ ومعرفةِ أسبابها.. فما هي يا تُرى أبرزُ الأسبابِ لمثلِ هذه الظواهرِ المرفوضةِ؟

---

(١) الرياض ١٣/ ١٠/ ١٤٢١هـ.
(٢) الوطن ٢١/ ١٠/ ١٤٢١هـ.
(٣) الرياض ١٤/ ١٠/ ١٤٢١هـ.
(٤) عكاظ ٢٠/ ١٠/ ١٤٢١هـ.
(٥) الندوة ١٦/ ١٠/ ١٤٢١هـ.
(٦) المدينة ٢١/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

إن البعضَ يتساءلُ: ألسنا في بلدٍ محافظٍ، فكيف يقعُ مثل هذه؟!

وأقولُ: نعم، إن مجتمعَنَا -بعمومِه- محافظٌ والحمدُ لله، ويستنكرُ مثلَ هذه الممارساتِ، وهذه المظاهرُ لا تمثلُ المجتمعَ.. ولا تلغي محافظتَه.. ولكن قد يكون للثراءِ والنعمةِ أثرٌ في وجودِ بعضِ هذه الممارساتِ، لا سيَّما حركاتِ الشبابِ اللامسئولة ومضايقاتهم للناسِ عامةً وللنساءِ خاصةً؛ بسدِّ الشوارعِ تارةً، والاعتداءِ على الحُرماتِ تارةً أخرى، وما يَنجمُ عن ذلك من أضرارٍ على الأرواحِ أو الممتلكاتِ.. وهنا يَرِدُ السؤال: ومن أين لهؤلاء المراهقينَ السياراتُ التي يتسكعونَ ويفحطونَ ويضايقونَ الناس بها؟ أليست بتمويلِ الآباء؟ أليست أصداءَ للنعمةِ؟ أليست استغلالًا بشعًا لذوي النعمةِ والثراءِ؟

فهذا سببٌ، وسببٌ آخرُ -وهو عكسُ سابِقه- إذ تُمثلُ البطالةُ والفراغُ عند بعضِ الشبابِ الذين هم خارجَ المدرسةِ وبدونِ عملٍ عنصرًا مهمًّا في بروز هذه الظواهرِ السيئةِ، فيقضونَ بها فراغَهم ويعبّرونَ بها عن سُخطهم وفراغِهم بطريقةٍ خاطئةٍ مرفوضةٍ عقلًا وشرعًا.

أما السبب الثالث المهم: فهو ضعفُ الوازع الدينيِّ، واختلالُ القيمِ الأخلاقيةِ، وعدمُ تقديرِ مشاعرِ الآخرين، بل وتقصُّدُ الإضرارِ بهم.

أما السببُ الرابعُ: فهو وجودُ عناصرَ مشبوهةٍ من أصحابِ المِللِ والنِّحلِ والأديانِ الفاسدة، تسعى جاهدةً لإفسادِ هذه البلادِ المباركةِ، متخذةً من الأشرطةِ والمنشوراتِ والكتيباتِ والمدارسِ الأجنبيةِ وسيلةً لترويجِ فِكْرها وبثِّ سمومها.

خامسًا: وللإعلامِ السيئ والقنواتِ الفضائيةِ وبرامجِ العنفِ، والتهتكِ الأخلاقيِّ، والغزوِ الفكري -لهذه وتلك- أثرُها في صياغةِ العقلياتِ وممارسةِ

العنف، وترويجِ السلوكياتِ الشاذةِ على مستوى الطفلِ والشابِّ والرجلِ والمرأة، إلا من رحمَ ربُّك!

سادسًا: وثمةَ سببٌ يُنمِّي مثلَ هذه الظواهرِ، ويُكثرُ من أصحابها، إنه التساهلُ في معالجةِ الظاهرة في بدءِ نُشوئها، حتى إذا استفحلت شكَّلت خطرًا يحتاجُ إلى جهدٍ أكبرَ في العلاج، أجل إن التغافلَ عن حركاتِ الشبابِ البهلوانية المؤذيةِ عند فوزِ منتخبٍ، أو ممارسةِ التفحيطِ على الخطوطِ الدائريةِ، أو على السفوحِ الرمليةِ، أو في مناسباتِ الأعيادِ.. واعتبار ذلك تعبيرًا عن فرحةٍ وطنيةٍ.. كلُّ ذلك يُجرئُ السفهاءَ على خطواتٍ أخرى أحسَّت أجهزةُ الأمنِ - مؤخرًا - بخطورتها في احتفالات العيدِ بالرياض، ثم لا تلبثُ الأمورُ أن تتطورَ إلى سلوكياتٍ إجرامية لا بد من وضع جزاءٍ رادعٍ لها؛ فاللهُ يَزَعُ بالسلطانِ ما لا يزعُ بالقرآن.

وقد أكدَ وزيرُ الداخلية على محاسبةِ المقصرينَ في الأحداثِ المؤسفةِ في احتفالات العيد في الرياض[1].

وما حدث في الرياضِ يمكن أن يقعَ في غيره، إذا لم تكن الجِدِّيةُ في المعالجةِ، والمبادرةُ في الحزمِ في تطويقِ هذه الممارسات الخاطئة، ومعاقبةُ الجُناةِ والتنكيلُ بهم عقوبةً لهم ودرسًا بليغًا لغيرهم.

سابعًا: والدعواتُ المحمومةُ التي تُطلقُ بين الفَيْنَةِ والأخرى وتدعو إلى خروجِ المرأةِ وسُفورها واختلاطِها بالرجالِ الأجانبِ.. تلك سهامٌ تُشعلُ فتيلَ الفتنِ، وتهتك أستار الفضيلة، وتجرئُ السفهاءَ، ويتنفسُ خلالها من في قلبِه مرضٌ، وإذا اعتُدِي على المرأةِ وهي متحجبةٌ، فكيف الحالُ إذا خرجت سافرةً

(١) الرياض ١٣/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

وبالزينةِ فاتنةً؟ وإذا لم تسلم من اعتداءِ الموتورينَ وهي بصحبةِ مَحرمِها، فكيف إذا انفردت وسافرت بالسيارةِ أنّى شاءت وحدَها؟!

ثامنًا: وضعفُ التوعيةِ في المحاضنِ التربويةِ، وفي مقاعدِ الدراسةِ الجامعية، وفي المنزلِ والمسجدِ.. وغيابُ بعضِ الآباءِ والمربينَ والأمهاتِ والمعلماتِ عن مسئوليتهم.. كلُّ ذلك يساهمُ في وجودِ مثلِ هذه السلوكياتِ المنحرفةِ.

تاسعًا: وغفلةُ رجلِ الأمنِ عن مهمتهِ، أو عدمُ إخلاصِه في عملِه ومسئوليته، أو عدمُ دقَّتِه في رصدِ الجريمةِ ومتابعةِ المجرمين والحيلولةِ بينهم وبين ما يَشتهون.. ذلك يُفاقمُ الخطرَ ويقوي شوكةَ المجرمين.

عاشرًا: والمخدراتُ سببٌ لكلِّ بلاء، والمسكراتُ والخمرُ أُمّ الخبائث.

وقَلَّ أن توجدَ جريمةٌ إلا ولهذه الأوبئةِ رأسٌ مُطِلٌّ؛ إنْ ظاهرًا أو خفيًّا فيها. ورفيقُ السُّوء شؤمٌ على نفسِه وعلى الآخرين.

وكم من بريءٍ تورطَ في مزالقِ الجريمةِ نتيجةَ إغواءِ قرين السُّوء.

أيها المسلمونَ: تلك أسبابٌ عشرةٌ، وقد يكون هناك أسبابٌ أخرى، وقد تختلفُ هذه الأسبابُ وجودًا أو عدمًا، قوةً أو ضعفًا.

وفي سبيلِ العلاجِ لا بد أولًا من معرفةِ هذه الأدواءِ ومعالجتِها، ولا بد من استشعارِ المسئوليةِ، والسعي لمحاصرةِ هذه الظواهرِ السيئةِ، فالأمنُ مسئوليتُنا جميعًا، والحفاظُ على مكتسباتِ البلاد وصونِ الحُرمات شعارُنا وهدفُنا جميعًا، وما لم يشعر كلُّ فردٍ منا بالأذى الواقع على غيره، كما لو أن الأذى وقع عليه أو على قريبه، فما حققنا الأخوَّةَ بيننا، ومفهومُ المواطنةِ الصالحةِ مختلّ في سلوكياتنا.

وهنا وفي سبيلِ المعالجةِ لهذه الظواهر وأمثالِها - وفوقَ ما سبقَ - أُشيرُ إلى

بعض الآراءِ والمقترحاتِ، وعسى الله أن ينفعَ بها، ويُعينَ كلَّ صاحبِ مسئوليةٍ على القيامِ بمسئوليته، فخيرُ الناسِ أنفعُهم للناس، ومن دعا إلى هدًى كان له من الأجرِ مثلُ أجورِ من عملَ به إلى يومِ القيامة، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الوِزرِ مثلُ من عمل به.. ومن يهدِ الله فهو المهتدِ، ومن يُضلل فلن تجدَ له وليًّا مرشدًا.. اللهم انفعنا بالقرآنِ وسنةِ خيرِ الأنام، أقولُ ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب.



الخطبة الثانية:

أيها المسلمون: إن من أولوياتِ طرقِ العلاج لأيِّ مظاهرَ سلوكيةٍ منحرفةٍ تقويةَ الوازعِ الديني، وذلك عبرَ المنهجِ الدراسي المُطبق، وعبرَ وسائلِ الإعلامِ المقروءةِ والمرئيةِ والمسموعة، عبر المحاضرةِ الجيدة، والندوةِ المشتركة، وعبر توجيهاتِ الآباء والأمهاتِ.

ثانيًا: ولا بد من العنايةِ بأوقاتِ الفراغِ لدى الشبابِ والفتياتِ، وملؤها بما ينفعُ الفردَ ويخدمُ المجتمعَ، ويساهمُ في رُقيِّ الأمة، وإضافةً إلى المؤسساتِ القائمةِ بتوفير فرصِ العمل للخريجينَ والخريجاتِ يُطالبُ القطاعُ الخاصُّ والشركاتُ والمؤسساتُ بمزيد فتح الفرصِ للراغبينَ في العملِ من أبناء البلدِ، دعمًا لهم ماديًّا ومساهمةً في مزيدِ تأهيلهم للمسئوليةِ مستقبلًا.

ثالثًا: وإذا قيل هذا عن العمل، فنحتاجُ إلى مزيد فرصٍ تحتضنُ الشبابَ وتهيئُ لهم من البرامج الهادفةِ ما تُستثمرُ به أوقاتُ فراغِهم من جانبٍ، وتبني فيهم الخيريّةَ والإنتاجيةَ من جانبٍ آخر.

وفوقَ ما للمؤسسات الحكوميةِ والجمعياتِ الخيرية -هنا- من جُهدٍ مشكورٍ، فوزارةُ العَملِ والشئونِ الاجتماعية مؤهلةٌ لأن تزيدَ من فاعليتها ومشاركاتها لخدمة الفتيانِ والفتياتِ عبرَ برامجَ اجتماعية هادفةٍ، وعبر محاضنَ يُشرفُ عليها أهلُ خبرةٍ وصلاح، تُعلّمُ الأخرقَ مهنةً، وتُعنى بتدعيمِ روابطِ الأسرة، وتوفرُ وسائلَ للترويحِ النافع، وتُعنى بصقلِ مواهبِ الشباب على مدى العام لتكملَ ما تقومُ به المراكزُ الصيفية في أوقاتِ الصيف.

رابعًا: وحين لا تستوعبُ الجامعاتُ قبولَ جميع الخريجين، أو لا يكون بعضُ الخريجينَ من الثانويةِ قادرًا على مواصلةِ تعليمه الجامعي، فهل تُعنى

الجامعات بتوفيرِ دوراتٍ تؤهلُ للعمل وتمنحُ دبلوماتٍ أو شهاداتٍ تهيئُ الفردَ للعيشِ الكريم هنا أو هناك، حتى لا يبقى أعدادٌ من الشبابِ عالةً على المجتمعِ وقد تضطرُّهم الحاجةُ إلى أمورٍ لا تُحمد عُقباها!.

خامسًا: وهل يُفكرُ كذلك -وفي سبيلِ معالجةِ عدم توفرِ الوظائف للخريجين- بإيجاد مراكزَ للتجنيدَ والتدريب، يقضي الشابُّ فيها فترةً من الزمنِ، ويتقاضى خلالها مرتبًا يسدُّ حاجتَه وحاجةَ من يَعُولُ، ويُنظم خلالها محاضراتٌ وندواتٌ تُسهمُ في توجيه الشبابِ ومزيدِ تربيتِهم وجدِّيتِهم، ويكون هؤلاء المدُربونَ جنودًا أوفياءَ للحفاظِ على مُقدراتِ البلدِ وحرماتِه عند الاقتضاء.

سادسًا: ومع ما تقومُ به وزارةُ الشئون الإسلاميةِ من جهودٍ في التوعيةِ والدعوة.. إلا أننا في زمنِ العولمةِ وحربِ الفضائياتِ نحتاجُ إلى مزيدٍ من الدعوةِ والتوعية لتعمَّ المدنَ والقرى، وتُخاطبَ المرأةَ كما تخاطبُ الرجل، وتستخدمَ تقنياتِ العصرِ لمزيدِ الفاعليةِ واتِّساعِ حجمِ التأثير.

سابعًا: وتعليمُ البنين والبناتِ حَريٌّ كذلك بمضاعفةِ التوعية، والعنايةِ بتطبيقِ معاني ومفاهيم المناهج الدراسية، وألا تكون المهمةُ الحفظَ للمقرراتِ والنجاحِ أو الرسوب في نهايةِ كل فصل.. بل يكون للقيمِ التربوية، والنواحي السلوكيةِ التطبيقيةِ قدرٌ كبيرٌ من الاهتمام، وهنا اقتراحٌ لطيفٌ يقضي بوجودِ مقررٍ خاصٍ برعايةِ الآدابِ والسلوكيات في المرحلةِ المتوسطةِ والثانوية، يُفرَدُ بالتأليف ويُخاطبُ العقلَ والعاطفةَ عن قيمةِ الأخلاقِ والآدابِ والسلوكياتِ الإسلامية، ويحذرُ من أضدادِها.

وحين يكون الحديث عن التوعيةِ فلا بد أن تُعنى القطاعاتُ الأمنيةُ بهذا الجانب، إذ ليست مهمتُها محصورةً في القبضِ على المجرمين.. بل يَنبغي أن تُقدِّمَ التوعيةَ عبر المطويةِ الجيدةِ، والإحصائيةِ الدقيقةِ المُحذِّرة، وعبرَ البرامجِ

الإعلاميةِ المتكاملةِ، وعبر الملصقاتِ ذاتِ العباراتِ الهادفة. . فالوقايةُ خيرٌ من العلاج. . وذلك جانبٌ لم يَنَلْ من العنايةِ ما يستحقُّ في نظري.

ثامنًا: وأنتم أيها الآباء وأيتها الأمهات، تحمّلوا مسئوليتكم كاملةً عن أولادِكم، وتنافسوا في تربيتهم وأدبهم، بدلَ أن تتنافسوا في تأمينِ كلّ ما يطلبونَ، حتى وإن كان على حسابِ المجتمع. . بل ربما كان على حسابِ حياتهم هم، فكم أهلكَ الطيشُ من فتى، وكم للثراءِ من آثارٍ سيئةٍ إذا لم يُستثمَر.

تاسعًا: وأنتم معاشرَ الشبابِ الملتزم، ما هو دورُكم في استصلاح من انحرفَ أو بَدَتْ عليه أماراتُ الانحرافِ من الشباب؟ هل تنكفئونَ على أنفسكم، أم ترونه يكفي أن تختلطوا وترحلوا مع أمثالكم؟ أم ترونَ لإخوانكم الآخرين من الشبابِ حقًّا عليكم في النصحِ والتوجيه وحُسنِ المعاشرة والدعوةِ بالحسنى؟ فذلك ميدانٌ رحبٌ للمساهمةِ والدعوةِ والإصلاح.

عاشرًا: وعلى وزارةِ الإعلامِ مسئوليةٌ عُظمى في صياغةِ عقلياتِ الشباب، بل المتجمع كلِّه، عبرَ برامجَ هادفةٍ. . تخاطبُ الرجلَ والمرأةَ، والصغيرَ والكبيرَ، تؤصِّلُ التربيةَ الإيمانيةَ وتزرعُ الخوفَ من الله، تحذرُ من الجريمة، وتُثرِّبُ على المجرمين، وتُثمِّنُ القدوةَ الصالحةَ، وتجري مقابلاتٍ مع الخيِّرين. . لقد آنَ الأوانُ لأن يُنظَرُ في البرامجِ المقدَّمةِ، ويُقترحَ برامجُ جديدةٌ تتناسبُ والمرحلةَ الحاضرةَ والمستقبلية.

عبادَ الله: إنها باختصارٍ مسئوليتُنا جميعًا أمامَ اللهِ أولًا. . وأمامَ المجتمعِ، فنحن جميعًا في مركبةٍ واحدة، والعطبُ في جانبٍ من جوانبها يؤدي إلى غرق الجميع لا قدَّرَ اللهُ. . إنها ظواهرُ غريبةٌ، ومؤشراتٌ مخيفةٌ، تستحقّ منا كلَّ عنايةٍ وتعاون، واللهُ تعالى أمرَنا أن نتعاونَ على البرّ والتقوى، وحذَّرنا من السلبيةِ، وضربَ لنا أمثلةً في نجاةِ الذين ينهونَ عن السوء، وأخبر أن خيْريَّتنا

مشروطةٌ بالأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأولئك هم خيارُ الناسِ.. وأولئك همُ المفلحونَ.. وأولئك هم المؤمنون.. ألا فتآمَروا بالمعروفِ وتناهَوْا عن المنكرِ، وليستشعر كلُّ مسئولٍ وكلُّ وليٍّ دورَه في الإصلاحِ والتوجيه.

وهنا وفي نهايةِ الحديثِ ألتفتُ لمن بُلي بشيء من الجرائم، صغُرت أم كبُرت لأقول له: اتق الله يا أخي في نفسك وفي المجتمعِ من حولك.. كم تخسر ويخسرُ الناسُ من حولك بكلِّ جريمةٍ تتلبَّسُ بها.. ومهما ظننتَ أنك تنجو من عقابِ الدنيا فاعلم أن عقابَ اللهِ لك بالمرصادِ إن لم تتبْ إليه - تُبْ إلى الله.. وإذا لم ترضَ أن يُؤذي الناسُ أهلَك أو يعتدوا على شيءٍ من مقدراتك وأموالِ أهلك، فكذلك الناسُ.. كم فيك من خصالِ الخير.. لكنك استجبت حين مارستَ الجريمةَ لنزغاتِ الشيطان، فتعوَّذ باللهِ منه وخُطَّ لنفسك مسارًا آخرَ تجدْ السعادةَ وتجد الراحةَ والطمأنينة.



العدل وفقه الائتلاف[1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، أمرَ بالعدلِ والإحسانِ، ونهى عن الفحشاء والمنكرِ والبغي يعظكم لعلَّكم تذكَّرون، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، حَكَمٌ عدلٌ ولا يظلمُ ربُّك أحدًا، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، جاءه الوحيُ من ربّه بالعدل، فقام به في نفسِه ومع الناس من حولِه، فشاعَ في الكون كلِّه العدلُ بعد الظلمِ، والإنصافُ بدل الإجحافِ.. اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3].

عبادَ الله: كلُّنا يُحبُّ العدلَ ويرغبُ أن يُعامَلَ به.. ولكننا نخطئُ أحيانًا في التعاملِ مع غيرِنا بالعدل، فنظلمُ ونعتدي ونبخسُ الناسَ أشياءَهم.. بل قد نظلمُ أنفسَنا، وقد نشعر بذلك أو لا نشعرُ.. فما هو العدلُ؟ وكيف يكون مع النفس ومع الناسِ، ومع اللهِ؟ ما العدلُ في القول، وما العدلُ في الفعلِ؟ لماذا نظلمُ؟ وما السبيلُ للعدلِ؟ وكيف نعدلُ مع الصديقِ والعدوِّ، والقريبِ والبعيدِ؟ بل ومع

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٩/ ٤/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

المسلم والكافرِ؟ ما هي آثارُ العدلِ؟ وماذا من نماذجِ العدلِ تضيءُ لنا الطريقَ؟

أيها المسلمونَ: بالعدل قامت السماواتُ والأرضُ، وبالعدلِ أمرَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[(١)].

وأوصى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾[(٢)].

وبالعدل ألزم ربُّنا في التحاكم والحكم: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[(٣)].

أجل إن العدلَ سمةٌ مميزةٌ لشريعتِنا عاشَ في كنفِها البرُّ والفاجرُ، والمسلمُ والكافرُ - كلُّ هؤلاء بالعدلِ يُحكمونَ ولا يُظلمون، حتى وإن أبغضَنا الكافرَ فنحن مأمورونَ بالعدل معه، ذلك توجيه ربِّنا في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾[(٤)].

قال ابنُ تيميةَ رحمه الله: وهذه الآيةُ نزلت بسببِ بُغضهم للكفارِ، وهو بُغضٌ مأمورٌ به، فإذا كان البغضُ الذي أمرَ اللهُ به قد نُهيَ صاحبُه أن يَظلمَ من أبغضَه، فكيف في بُغض مسلمٍ بتأويلٍ وشبهةٍ أ وبهوى نفس؟ فهو أحقُّ أن لا يُظلم، بل يُعدل عليه[(٥)].

إخوةَ الإسلام: ونحنُ مأمورونَ بالعدل مع ربِّنا، ومع أنفسِنا ومع الناس ممن حولَنا، فكيف نحققُ هذه المقاماتِ الثلاث من العدلِ؟ قال العلماءُ: أما العدلُ بين العبد وربِّه فبامتثال أوامِره، واجتنابِ نواهِيه، وبين العبدِ وبين نفسِه فبمزيدِ الطاعاتِ وتوقِّي الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، وبين العبد وبين غيره بالإنصاف[(٦)].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٨.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٥) منهاج السنة ٥/ ١٢٧.
(٦) أبو بكر ابن العربي، نقله ابن حجر في الفتح ١٠/ ٥٨٩.

يا أخا الإيمان: ألستَ تُحبُّ من الآخرين أن ينصفوكَ، فعلام تظلمهم ولا تعدلُ معهم؟ أولستَ تشيدُ بالعدلِ وتمدحُ المنصفينَ، فكيف تظلمُ وتجورُ وتتجاوزُ وتبخس؟

إن العدلَ مؤشرٌ على سموِّ النفس، ومعالي الأخلاق، وكم نتحدثُ بألسنتنا عن العدلِ، ولكن الامتحانَ في المعاملةِ والأخلاقَ تكذبُ المرءَ أو تصدقه فيما ادّعاه.

لقد فاقَ المسلمون في تاريخنا المجيدِ غيرَهم في العدل وتجاوزوا بعدلِهم أهلَ الملةِ من المسلمين إلى أهلِ الذمةِ من اليهود والنصارى، ويُذكر أن عمرَ بنَ عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ كتب إلى واليهِ على البصرةِ يقول له: «ثم انظر مَن قِبَلَكَ من أهل الذمةِ قد كَبُرَت سِنُّه، وضعُفت قوتُه، وولَّت عنه المكاسبُ، فأجْرِ عليه من بيتِ مالِ المسلمين ما يُصلحُه، وذلك أنه بلغني أن أميرَ المؤمنين عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرّ بشيخ من أهلِ الذمةِ يسألُ على أبواب الناسِ فقال: ما أنصفناك، أن كُنّا أخذنا منك الجزيةَ في شبيبتك ثم ضيَّعناك في كِبرك، ثم أجرى عليه من بيتِ المال ما يصلحه»[(١)].

فإذا أنصفَ أسلافَنا أهلَ الذمة، أفنعجزُ عن إنصافِ أهلِ الملَّةِ؟

إن في حياتنا ممارساتٍ خاطئةً لا تستقيمُ مع العدل، ولا تسيرُ مع الإنصاف، ففي الخصوماتِ يظلم بعضُنا خصمَه، ولربما أخذ حقًّا ليس له، ولكن بقوة حجتِه وكذبه أو بشراءِ ذممٍ وشهداءِ زورٍ، وويل لمن اقتطع حقّ غيرِه بدون حقٍّ، وما زالَ رسولُ الهدى ﷺ يُحذرُ من شهادةِ الزور وقولِ الزور حتى تمنّى الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لو سكت!

(١) أحكام أهل الذمة لابن القيم، تحقيق صبحي الصالح ١/ ٣٨.

وفي تقويمنا للرجالِ المخالفينَ لنا في الرأي يقعُ ظلمٌ ونفقدُ العدلَ والإنصافَ، والويلُ لمن اتَّهم رجلًا بما ليس فيه.. أو لبَّسه لبوسًا لم يلبسه، وإذا كانت أموالُ إخواننا علينا حرام إلَّا بحقِّها، فكذلك أعراضُهم حرامٌ علينا هتكُها بغير حقٍّ.. كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ، دمُه ومالُه وعرضُه.

عبادَ الله: ونحن مأمورونَ بالعدلِ مع أولادنا والرسولُ ﷺ يقول: «**اتقوا اللهَ واعدِلوا في أولادِكُم**»[١].

فهل نعدلُ بينهم في المنِحَ والأُعطياتِ، وأساليبِ التعاملِ في الحياة، أم يوجدُ فينا من يُغدِقُ على بعضِ الأولادِ ويحرمُ إخوانًا لهم آخرين، وكأنهم ليسوا من بنَيهِ.. أفلا يتقِ الله أولئك الآباءُ الجائرون! وقد جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ ليُشهده على صدقةٍ له لبعض بنَيهِ، فقال له: «**أفعلت هذا بولدِك كلِّهم؟**». قالَ الرجل: لا، فقال الرسولُ ﷺ: «**فلا تُشهدْني إذن، فإني لا أشهدُ على جَوْرٍ**». وفي روايةٍ أنه قال له: «**أيسرُّك أن يكونوا إليك في البِر سواءٌ؟**». قال: بلى، قال: «**فلا إذن**»[٢].

أيها المسلمونَ: ونحن مأمورونَ كذلك بالعدلِ مع أهلنا وأزواجنا، وكم يقعُ على النساء من ظلمِ بعض الرجال، وقد يصلُ الحالُ إلى أن تكونَ المرأةُ كالمعلَّقة، فلا هي مطلقةٌ بإحسانٍ لتبحثَ عن غيرِه، ولا هي ممُسَكةٌ بمعروفٍ فتؤدّى إليها حقوقُها بالعَدلِ والإحسان، وويلٌ للرجلِ يستغلّ قوتَه وقدرتَه فيظلمُ المرأةَ ويبخسُ حقوقَها، والرسول ﷺ يقول لنا جميعًا: «**فاتقوا اللهَ في النساءِ، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانِ اللهِ، واستحللتم فُروجَهُنّ بكلمةِ اللهِ**»[٣].

---

(١) متفق عليه، جامع الأصول ١١/ ٦١٧. (٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم، جامع الأصول ٣/ ٤٦٥.

إخوةَ الإسلام وثمةَ ممارساتٌ خاطئةٌ لا تقومُ على العدلِ والإنصافِ مع زملائنا في العملِ بتفضيلِ بعضِهم على بعضٍ في الأُعطياتِ أو الترقياتِ أو نحوها، ومع مكفولينا في العملِ مع إخواننا الوافدينَ بتحمِيلهم في العمل ما لا يطيقون أو ببَخسِ حقوقِهم حين يعملون.

عبادَ الله: ومن كمالِ شريعتِنا وعدلِ إسلامِنا أنه أمرَ بالعدلِ والإحسان إلى البهائم، فلا تُحَمّلُ ما لا تطيقُ، ولا تُضربُ فتؤذَى بلا حاجةٍ، ولا تُجاعُ حتى يلحقَ ظهرُها ببطنِها.. ومن هدي المصطفى ﷺ أنه مرّ ببعيرٍ قد لحقَ ظهرُه ببطنِه، فقال: «**اتقوا اللهَ في هذه البهائمِ المُعجمةِ، فاركبوها صالحةً وكُلوها صالحةً**»[1].

ومن تحذيراته ﷺ عن ظلمِ البهائمِ والحيواناتِ قولُه: «**دخلتِ امرأةٌ النارَ في هِرّةٍ ربطَتْها، فلا هي أطعمَتْها، ولا هي أرسلتها تُرمرِمُ من خشاشِ الأرضِ حتى ماتت هَزْلًا**»[2].

ألا فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ، واعدلوا مع أنفسِكم ومع غيرِكم، فذاك أمرُ الله لنبيِّكم: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[3].

وتلك وصيتُه إليكم: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[4].

اللهم إنا نسألكَ العدلَ في أقوالِنا وأفعالِنا، مع أنفسِنا ومع غيرنا.

---

(١) أخرجه أبو داود وسنده حسن جامع الأصول ٤/٥٢٨.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦١٩)، جامع الأصول ٤/٥٢٦.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٥. (٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله جلَّ شأنُه وتقدَّستْ أسماؤه، ولا إلهَ غيرُه، ولا معبودَ بحقٍّ سواه، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، والداعي إلى رضوانِه صلى الله عليه وعلى إخوانه وآلِه.

أيها المسلمونَ: صحّ عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآنِ آيةٌ أجمعَ لحلالٍ وحرامٍ، وأمرٍ ونهيٍ من هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾[1].

فهل نأتمرُ بهذه الآيةِ العظيمةِ يا عبادَ الله؟! فنقيمُ حياتَنا على العدلِ، وننهى أنفسَنا عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغي؟

إن من مظاهرِ العدلِ قبولَ الحقِّ ممن جاءَ به، فالعِبرةُ بالقولِ لا بالقائل، وفي قصةِ الشيطانِ مع أبي هريرة رضي الله عنه حين وكَّله الرسولُ ﷺ بحفظِ زكاةِ رمضانَ، ومجيء الشيطانِ إليه أكثرَ من مرةٍ حتى علّمه أن يقرأَ آيةَ الكرسي إذا أوى إلى فراشِه، وأنه بذلك يكونُ محفوظًا من الله، ولا يقربُهُ شيطانٌ حتى يُصبحَ، في هذه القصةِ صدّقَ الرسولُ ﷺ القولَ وإن صدرَ من الشيطانِ حيث قال: «أما إنه قد صدقَك وهو كذوب»[2].

ومن فقهِ هذا الحديثِ وفوائدِه -كما قال ابنُ حجرٍ رحمه الله-: «أن الحكمةَ قد يتلقّاها الفاجرُ فلا ينتفعُ بها، وتُؤخذُ عنه فيُنتفَعُ بها، وأن الكافرَ قد يَصدقُ ببعض ما يَصدقُ به المؤمنُ ولا يكون بذلك مؤمنًا، وبأن الكذّاب قَد يَصدُقُ»[3].

وفي هذا الصددِ يُذكرُ من وصايا ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قولُه لرجل قال له: أوصني

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠. ابن حجر: الفتح ١٠/ ٤٧٩.

(٢) رواه البخاري برقم (٢٣١١). (٣) الفتح ٤/ ٦١٦. ح(٢٣١١).

بكلماتٍ جوامع، فكان مما أوصاه به أن قال: ومن أتاكَ بحقٍّ فاقبلْ منه وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن أتاك بالباطلِ فارْدُدْه، وإن كان قريبًا حبيبًا[١].

إننا حين نفقدُ هذا الميزانَ في قبولِ الحقِّ قد نرفضُ حقًّا، لأنه جاء من شخصٍ نبغضُه أو لا نهواه، أو لا نرتضي منهجَه بشكلٍ عام، علمًا بأن قبولَ الحقِّ الذي جاءَ به لا يعني موافقتَه في كلّ شيءٍ ولا الرضا عنه فيما يخطئُ فيه، وقد يضطرنا هذا الخللُ في العدلِ في قبولِ الحقّ ورفضِ الباطل.. لقبولِ زلّةِ خطأٍ من شخصٍ نُحبُّه ونرتضي منهجَه علمًا بأن رفضَنا لهذه الزلَّةِ والخطأ منه، لا يعني بُغضَه ولا الانتقاصَ من قَدْرِه، ولا رفضَ بقيةِ الحقِّ الذي جاء به.

إنه العدلُ الذي ينبغي أن نأخذَ أنفسَنا به، ونتمنى به أن يُجريَ اللهُ الحقَّ على ألسنتِنا وألسنةِ خصومنا، وكم هو عظيمٌ الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله حين قال: «ما ناظرتُ أحدًا إلا قلتُ: اللهمّ أجرِ الحقَّ على قلبهِ ولسانِه، فإن كان الحقُّ معي اتبعَني، وإن كان الحقُّ معه اتبعتُه»[٢].

وأين هذا يا مسلمونَ ممن يتمنونَ انحرافَ خصومِهم، أو يرمون مخالِفيهم بالباطل، ويتهمونهم، وينفِّرونَ الناسَ منهم، وهم مسلمون، بل قد يكونون علماءَ، وقد يكون ما معهم من الحقِّ أكثرَ من خصومِهم، فإلى اللهِ المشتكى، وكم يتلاعبُ الشيطانُ أحيانًا ببعض المحبينَ وكم يُخطئُ هؤلاء وينسفونَ قواعدَ العدلِ وهم يَحسبونَ أنهم يُحسنونَ صنعًا، وكم نظلمُ أنفسَنا ونظلمُ غيرَنا بتصنيف هذا، وتجريح ذاك، واتهام ثالثٍ وإشعالِ معاركَ وهميةٍ بين نفرٍ من المسلمين، الكاسبُ الأولُ والأخيرُ منها هم الأعداءُ المتربِّصون - والخاسرُ الأكبرُ هم

(١) الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٤/ ٥٨٦ عن كتاب «فقه الائتلاف»، محمود الخزندار ص (٩٨).

(٢) عن فقه الائتلاف ص١٠٤.

المعتدون الفاقدون للعدلِ والإنصاف. . وإن كانت الخسارةُ تَعمُّ والفتنةُ تقعُ على المسلمين! وأين نحنُ من هذا الموقفِ البديع والعدلِ حتى مع غير المسلمين. . يقدمه لنا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ بسلوكه العمليِّ، فهو حين سعى بإطلاق سراحِ أسرى المسلمين من التتارِ أصرَّ كذلك على إطلاق سراحِ المأسورينَ من أهلِ الذمةِ قائلًا لمسئول التتر: «بل جميع من معك من اليهودِ والنصارى الذين هم أهلُ ذمّتِنا، فإنّا نفكُّهم ولا ندعُ أسيرًا لا من أهلِ الملَّةِ ولا من أهلِ الذمة»(١).

فإذا أنصفَ هذا العالمُ الربانيُّ وعدَلَ مع غير المسلمينَ، وكان سببًا لفكّ أسرِهم، فماذا يقولُ من يسعى للوقيعةِ بإخوانِه المسلمين ويتمنّى الضُّرَّ لهم بشكلٍ أو بآخر؟!

إن للعدلِ - يا عبادَ اللهِ - آثارًا إيجابيةً على الفردِ والمجتمعِ والأمة، وفي الدنيا والآخرة يَشهدُها القائمونَ بالعدل، وتُنبئُ عنها تجاربُ الأفراد والأمم، وقد قال العالِمون: «إن الله يقيمُ الدولةَ العادلةَ وإن كانت كافرةً، ولا يقيمُ الظالمةَ وإن كانت مسلمةً»(٢).

عبادَ الله: ويبقى السؤالُ الأخيرُ: ما السبيل للعدل؟ وكيف نسلك بأنفسِنا للعدل؟

إن تأمُّلَ آياتِ الكتابِ العزيزِ في العدلِ كفيلةٌ بأن تربّى النفوسَ على العدل، وكذا ما في هدي محمدٍ ﷺ من نماذج العدلِ كلُّها نصوصٌ تأخذُ بالنفوسِ نحوَ العدل، ومساكينُ من يقرءون القرآنَ ثم هم يظنون أن المخاطَبَ غيرُهم، ومما يُسهمُ في العدلِ أن يتذكرَ المسلمُ أن العدلَ سببٌ للسعادةِ في الدنيا والآخرة،

---

(١) حياة شيخ الإسلام، محمد بهجت البيطار ص١٥، عن الرسالة القبرصية، فقه الائتلاف/ ٤٧.
(٢) ابن تيمية الفتاوى ٢٨/ ١٤٦.

وأن الظلمَ ظلماتٌ في الدنيا والآخرة، وأن الظالمَ قد تُعجَّلُ له العقوبةُ في الدنيا، وقد ينتصرُ المظلومُ عليه وهم أحياء.

ألا يظن المفرطونَ في العدلِ أنهم مبعوثونَ ليومٍ عظيم؟

ألا يخشى الظالمونَ المعتدونَ يومًا عبوسًا قمطريرًا؟ أم تراهم ينسونَ ويذرونَ وراءهم يومًا ثقيلًا؟

إن من دواعي العدل أن يشعرَ المرءُ أنه يحبُّ من الناسِ أن يأتوا إليه ما أحبّ، أفلا يأتي إليهم بالذي يحبون؟! ألسنا جميعًا نكرهُ من يعتدي على أموالنا أو أعراضِنا.. أو يخدشُ في كرامتِنا.. أو يشكِّكُ في مصداقيتنا ظاهرًا وتُوكَل سرائرنا إلى اللهِ.. فلماذا نكره ذلك لأنفسنا ولا نكرهه للآخرين؟

أيها الناسُ: ورياضةُ النفس وتدريبُها على العدلِ ممكنةٌ، وما زال العقلاءُ بأنفسِهم حتى ألجموها بلجامِ العدلِ، وروّضوها على المعالي، وأدَّبوها مرةً إثرَ مرةٍ، حتى غدا العدلُ سجيّةً لها، ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1] وكُلنا يعلمُ أن أحدَ السبعةِ الذين يُظلهمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه إمامٌ عادلٌ.

وهكذا إخوةَ الإسلام نروِّضُ أنفسَنا على العدلِ ونحنُ نرجو ثوابَ اللهِ ونخشى عقابَه.. وما أسعدَ من يسهمونَ في ملءِ الأرض عدلًا.. وما أنكدَ حياةَ من يسعونَ لملئها جورًا.

اللهم ارزقنا العدلَ في أقوالِنا وأفعالِنا مع من أحببنا ومع من لم نُحب.



(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

فقه الائتلاف[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرور أنفسِنا ومن سيئات أعمالِنا، ومن يهدِه الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.. اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعينَ ومن تَبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3].

عبادَ الله: كان الحديثُ في الجمعةِ الماضية عن جوانبَ من العدلِ، وكم نحن بحاجةٍ إلى مزيد الحديث في مثل هذه المواضيع. ولئن كان الحديثُ كثيرًا عن أدبِ الخلاف - والحاجةُ تدعو لمثل ذلك - فثمةَ حديثٌ عن فِقه الائتلاف.. والحاجةُ لذلك داعيةٌ إليه وأكثر، وكيف لا، والأصلُ في أمةِ الإسلام الائتلافُ لا الاختلاف، والاجتماعُ لا الفرقة والتنازع ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[4].

أيها المسلمونَ: إن من قواعدِ الائتلافِ إنصافِ عامةِ المسلمينَ وخاصتِهم.. فكيف السبيلُ لهذا الإنصاف؟

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٦/ ٥/ ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

إن مما لا شك فيه أن المسلمين -قديمًا وحديثًا- يتفاوتون في مراتبِ الإيمان؛ فهناك من هُم في الذروة من الإيمانِ، وهناك من هم في أدنى درجات الإيمان، وهناك طائفةٌ في الوسط بين هؤلاء وأولئك، ولكن الجميع تجمعهم رابطةُ الإسلام، وحسابُهم على الله، وما لم يخرجِ المسلمُ من الملةِ، فإن له حقًّا في الموالاةِ على قدرِ إيمانِه.

وما من شك كذلك أن الفِرقةَ الناجيةَ من خيرةِ المسلمين، وهم أهلُ السُّنةِ والجماعةِ الذين قالوا وعملوا بالكتابِ والسُّنة.

ولكن دائرةَ المؤمنين تتسعُ لتشملَ غيرَ الفرقةِ الناجيةِ من عُصاة المسلمين ومن وُجدَ عندهم نوعُ انحراف.. لكنهم في دائرةِ الإسلام.. وهذا ما نص عليه الشيخُ ابنُ تيميةَ رحمه الله حين قال: «وإذا قال المؤمنُ: ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، يَقْصدُ كلّ من سبقَه من قرونِ الأمةِ بالإيمان، وإن كان قد أخطأ في تأويلٍ تأوَّلَه فخالف السُّنةَ، أو أذنب ذنبًا، فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان، فيدخلُ في العموم، وإن كان من الثنتين والسبعين فرقةً، فإنه ما من فرقةٍ إلا وفيها خلقٌ كثيرٌ ليسوا كفارًا، بل مؤمنون فيهم ضلالٌ وذنبٌ يستحقونَ به الوعيدَ كما يستحقُّه عصاةُ المؤمنين»[1].

إخوةَ الإسلام وفي سبيلِ الائتلاف بين المسلمين أرشدَ العلماءُ إلى عددٍ من القواعدِ والآدابِ لا بد من مراعاتِها والوقوفِ عندها، ومنها:

١- أنهم لا يُخرجونَ مسلمًا من الملَّةِ إلا بتوفُّر الشروط وانتفاءِ الموانع.

٢- ويرون أن الخطأ في الحكمِ بالإيمان أهونُ من الحكمِ بالكفر.

٣- وهم يتحفظونَ ويتحوَّطونَ أكثر عند تكفيرِ فردٍ بعينِه أو لعنِه.

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٢٤٠، ٢٤١، عن فقه الائتلاف (١٨٦).

٤- بل ولا يتسرعونَ في التكفيرِ، وإن خطّأوا أو بَدَّعوا أو فَسّقوا.

٥- وفي مسائلِ الاجتهاد يرونَ أنه لا تأثيمَ ولا هُجران.

٦- وإذا لزمَ الهجرُ، فإنما هو للتأديبِ لا للإتلافِ، وللشفاءِ لا للقتل.

٧- وهو يرون الأخذَ بالظاهر، واللهُ يتولى السرائرَ، ويرون إجراءَ الأحكام على ظاهرِ الناس لا على القناعاتِ القلبية، وفي هذا يقول الشاطبيُّ رحمه الله: «فإنَّ سيدَ البشر ﷺ مع إعلامِه بالوحي يُجري الأمورَ على ظواهِرها في المنافقين وغيرِهم، وإن علِمَ بواطنَ أحوالهم»[1].

أيها المؤمنونَ: ومما يعينُ على الإنصافِ ويحققُ الائتلافَ، ألا تكون الموالاةُ والمعاداةُ خاضعةً للانتماءِ والحزبيةِ الضيِّقة، والطائفةِ والقرابةِ والهوى، بل تكون المولاةُ للحقّ ومع أهلِ الحقِّ.. والمعاداةُ للباطل وأهلِ الباطل.. مهما كان قربُهم وبعدُهم وانتماؤهم، وهنا يُنبِّه ابنُ تيميةَ على صنفٍ يغضبونَ أو يَرضون لا بقصد أن تكونَ كلمةُ الله العليا، وأن يكونَ الدينُ كلُّه لله، بل يغضبون على كلِّ من خالفهم، وإن كان مجتهدًا معذورًا - لا يغضبُ الله عليه - ويرضونَ عمن كان يوافقهم، وإن كان جاهلًا سيِّئَ القصد، فيُفضي هذا إلى أن يَحمدوا من لم يَحمدْه اللهُ ورسولُه، ويَذموا من لم يَذمَّه اللهُ ورسُولُه وتصير موالاتُهم ومعاداتُهم على أهواءِ أنفسِهم، لا على دين الله ورسولِه ﷺ[2].

إن من أخطائنا - أننا نسرفُ في الثناءِ على من أحببنا - أو نُسرفُ في الذمّ، بل الهجوم أحيانًا على من أبغضْنَا وخالفْنَا، وقد يكون لهذا الذي أحببنا أخطاءُ ونغُضُّ الطرفَ عنها، وقد يكون لهذا الذي أبغضنا حسناتٌ وإيجابياتٌ غَمطناه

(١) الموافقات ٢/ ٢٧١، عن «فقه الائتلاف» (١٩٩).

(٢) منهاج السنة ٣/ ٦٤.

حقَّه فيها ولم ننصِفْه في ذِكرها، والوسطيةُ منزلةٌ بين الغلوِّ والجفاء، ولهذا قال العلماء: «وإذا اجتمع في الرجل الواحدِ خيرٌ وشرٌّ، وفجورٌ وطاعة، وسُنةٌ وبدعة، استحقّ من الموالاةِ والثوابِ بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداةِ والعقاب بحسبِ ما فيه من الشر، فيجتمعُ في الشخص الواحد موجباتُ الإكرام والإهانةِ، فيجتمعُ له من هذا وهذا كاللصّ الفقيرِ تُقطع يَدُه لسرقتِه، ويُعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته»[1].

أيها العلماءُ والدعاةُ وطلبةُ العلم: وأنتم قدوةٌ لغيركم في تحقيق الائتلاف وردمِ فجواتِ الاختلاف وآثارِها السيئة وإذا كان الخلافُ واردًا في بعضِ مسائل العلم، وفي عددٍ من الاجتهادات والأمور الفرعية، فينبغي أن يبقى حبلُ الودِّ متصلًا، فالخلافُ في الرأي لا يُفسد للودِّ قضيةً -كما يُقال- وإذا كان الصحابةُ رضوان اللهِ عليهم قد اختلفوا في بعض المسائلِ الاجتهادية - فميزتُهم أنهم كانوا مع ذلك أهلَ مودةٍ وتناصح، ومع تنازعهم في مسائلَ علميةٍ اعتقاديةٍ إلا أنهم حافظوا على بقاءِ الجماعةِ والأُلفة.. كما قررَ ذلك العلماءُ كالشاطبيِّ وابن تيميةَ وغيرِهم[2].

أما أنتم معاشرَ العَوامَ: فلا تظنوا أن الاختلافَ بين العلماء في بعض المسائلِ مؤشرٌ للشرور والفساد، بل قد يكون الاختلافُ رحمةً وتوسعة، ومن فقه عمرَ بنِ عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ قولُه: ما يَسرُّني أن أصحابَ رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنهم إذا اجتمعوا على قولٍ فخالفهم رجلٌ كان ضالًا، وإذا اختلفوا فأخذ رجلٌ بقول هذا، ورجلٌ بقول هذا كان في الأمر سَعةٌ[3].

ونقل ابنُ تيميةَ أن رجلًا صنَّف كتابًا سماه «كتابَ الاختلاف» فقال الإمام

---

(١) الفتاوى لابن تيمية ٢٨/ ٢٠٩.
(٢) الموافقات ٤/ ١٨٦، الفتاوى ١٩/ ١٢٣.
(٣) الفتاوى ٣٠/ ٨٠.

أحمدُ: سمِّه «كتاب السعة»[١].

ومع ذلكَ كلِّه فعلى العلماءِ والدعاةِ وطلبةِ العلم والوعاظِ والمربين أن يسعوا إلى التأليف واجتماع الكلمة، ولو كان ذلك بترك فعلِ المستحبّات - أحيانًا - إذ أن مصلحةَ التأليفِ وجمعَ القلوبَ أولى وأعظمُ من فعل المستَحبّ أحيانًا، وفي هذا يقول شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويستحبُّ للرجل أن يَقصدَ إلى تأليفِ القلوبِ بترك هذه المستحباتِ، لأن مصلحةَ التأليف في الدين أعظمُ من مصلحةِ فعل مثلِ هذا، كما ترك النبيُّ ﷺ تغييرَ بناءِ البيت، لما في إبقائه من تأليف القلوبِ، وكما أنكر ابنُ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على عثمانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إتمام الصلاةِ في السفر، ثم صلى خلفه مُتِمًّا، وقال: الخلافُ شرٌّ»[٢].

وليس فقيهًا مَنْ فَرَّق المسلمين بفعل سنةٍ، لأنه أخلّ بواجبٍ؛ ولهذا كان الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرشدُ الأئمةَ إلى جمع كلمة الجماعة ولو تنازلَ عن بعض ما يراه ويقول: «ولو كان الإمامُ يرى استحبابَ شيءٍ، والمأمومونَ لا يستحبونه، فترَكه لأجل الاتفاق والائتلاف كان قد أحسن»[٣].



(١) الفتاوى: ١٤/١٥٩، فقه الائتلاف (٢٧).

(٢) الفتاوى ٢٢/٤٠٧.

(٣) الفتاوى ٢٢/٢٦٨.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، أشهدَ نفسَه وملائكتَه وأولي العلمِ على وحدانيتِه وقيامِه بالقسط، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له يُحبُّ المقسطين، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، جاءت شريعتُه محقِّقةً للعدل، داعيةً للمودةِ والائتلاف، وناهيةً عن الفرقةِ والشقاقِ والتباغضِ، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

عبادَ الله: ومن قواعدِ الائتلاف استيعابُ المخالِفِ واستمالتُه للحقِّ بهدوءِ العبارة وحُسن المجادلةِ، وفتحِ الفرصِ المناسبةِ للحوار البنّاء، والوصولِ إلى نتائجَ طيبةٍ، أجل إن الله ﷻ وجَّه رسولَه ﷺ في الحوار مع المشركين أن يقولَ لهم: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

فالرسولُ ﷺ على يقينٍ أن ما عليه هو الحقُّ، وما عليه المشركونَ باطلٌ، ولكنه أسلوبٌ من أساليبِ الحوار يُستمالُ به الخصمُ للحقِّ، ولا يقطعُ الطريقَ عليه لأول وَهْلَةٍ.. وإذا أخطأنا في أساليبِ الحوارِ مع إخواننا المسلمين، ولم نُعطِ أيَّ فرصةٍ لإبداء وجهةِ نظرِ الطرف الآخرِ، فعلينا أن نقرأ في السيرة النبوية وسنجدُ فيها أن رسولَ الله ﷺ وهو يحاورُ رمزًا من رموز الجاهليةِ ووَتِدا من أوتادِ قريش قال له: «**قُل يا أبا الوليدِ أسمعْ**». ولا يُبادرُه بسهام الحقِّ - وهو الأعلى - حتى يقولَ له: «**أفرغتَ يا أبا الوليد؟**». إنه ليس ضعفًا ولا تزلُّفًا ولا نفاقًا، وإنما الرغبةُ في استمالته ودعوتِه للحقِّ.. وقد كان شيءٌ من هذا.. ودخل في نفس الوليدِ شيءٌ من عظمةِ محمد ﷺ وعظمةِ القرآن، حتى قالت قريش: والله لقد جاءكم الوليدُ بغير الوجهِ الذي ذهب به.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

إنها مَلَكةُ الحكمةِ في الدعوة، والمهارةُ في الحوار، والقدرةُ على الإقناع، وليست سفسطةً، ولا جدلًا عقيمًا، أو ترفًا فكريًّا.. ففرقٌ بين هذا وذاك!!

أيها المسلمون: ومما يعين على الائتلاف التحذيرُ من الباطل دون التصريح بالمبطِلين، إلا إذا دعتِ الحالُ للتصريح، ذلك أن التعريفَ بالضلال تعرية لأهلِه، وقد يعودُ صاحبُ الضلالِ إلى الحقِّ إذا لم يُشهَّرْ به، والعلماءُ يقولون: ليس كلّ ما يُعلم مما هو حقٌّ يُطلبُ نشرُه.. لا سيما إن كان نشرُه يثيرُ فتنةً.

ومن سُبلِ التأليف مخاطبةُ الناس بما ينفعُهم وعلى قدر عقولِهم، وفي هذا يقول عليٌّ رضي الله عنه: «حدِّثوا الناسَ بما يعرفون، ودعوا ما ينكرونَ، أتحبونَ أن يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه». وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «ما من رجلٍ يُحدّثُ قومًا حديثًا لا تبلُغه عقولُهم، إلا كان فتنةً لبعضهم».

ويُعدد الغزاليُّ من وظائفِ المعلم المرشِد: أن يقتصرَ بالمتعلِّم على قدْر فهمِه، فلا يُلقى إليه ما لا يبلُغه عقلُه فيُنفِّره، وكذلك قيل: كِلْ لكلِّ عبدٍ بمعيار عقلِه، وزنْ له بميزانِ فَهمِه، حتى تسلمَ منه وينتفعَ بك، وإلا وقعَ الإنكارُ لتفاوتِ المعيار[1].

على أن مما يوقعُ في الفرقةِ والخلافِ التعالمُ والتبجحُ بذكر المسائل العلميةِ لمن ليس من أهلِها، أو ذكرُ كبارِ المسائل لمن لا يحتملُ عقلُه إلا صغارَها، فمثلُ هذا يوقعُ في مصائبَ ونفرةٍ وخلافٍ؛ كما قررَ أهل العلم[2]، فليحذر منه.

أيها المسلمون: ومن قواعدِ الائتلاف الإنصافُ بالموازنةِ بين المصالحِ والمفاسدِ، فإسلامُ كافرٍ على يد مبتدعٍ أولى من بقاءِ الكافر على كفرِه. وتوبةُ فاجرٍ بسماعه أحاديثَ ضعيفةٍ خيرٌ من بقائه على فجوره.

---

(١) الإحياء ١/ ٥٥، ٥٦.

(٢) الموافقات للشاطبي ١/ ٨٧.

والصلاةُ خلفَ المبتدِع أولى من ترك الجماعةِ، بل يُستعانُ بالمبتدِعةِ في تحصيل واجبٍ أعظم، وتُحتملُ مفسدةُ بدعتِهم، وكذلك أخذَ السلفُ بعضَ الأحاديث عن أهل بدعةِ القَدَرِ في البصرة حين لم يجدوها عند غيرهم من أهل السُّنة، بعد موازنَتهم بين هجر الرواية عنهم زجرًا لهم عن بدعتهم وبين مصلحة حفظِ السّنةِ، وقررَ هذا ابنُ تيمية بقوله: «فلو تُرِكَ روايةُ الحديثِ عنهم لاندرسَ العلمُ والسننُ والآثارُ المحفوظةُ فيهم».

بل رتبَ على ذلك قاعدةً عامةً ومهمةً قال فيها: «فإذا تعذَّرَ إقامةُ الواجباتِ من العلم والجهاد وغيرِ ذلك إلا بمن فيه بدعةٌ مضرتُها دون مضرةِ ترك ذلك الواجب، كان تحصيلُ مصلحةِ الواجبِ مع مفسدةٍ مرجوحةٍ معه خيرًا من العكس»(١).

إخوةَ الإسلام: ومما يُسهمُ في الائتلاف بين المؤمنين قابليةُ التنازلِ لمصلحة الجماعةِ، وإن كان المتنازلُ أحقَّ من غيره، وفي أحدِ غزواتِ المسلمين (ذات السلاسل)، أمّرَ عليهم الرسولُ ﷺ عمرو بنَ العاصِ رضي الله عنه، ثم بعثَ له مددًا من المهاجرين فيهم أبو بكرٍ وعمرُ، وأمَّر عليهم أبا عبيدةَ ابنَ الجراح رضي الله عنه، فلما وصلَ المددُ قال عمرو: أنا أميرُكم، فقال المهاجرون: بل أنت أميرُ أصحابِك، وأميرُنا أبو عبيدةَ، فقال عمروٌ: إنما أنتم مدَدٌ أُمددتُ بكم، فلما رأى ذلك أبو عبيدةَ - وكانَ رجلًا حسنَ الخُلُق، ليّنَ الشيمة، متبعًا لأمر رسول الله ﷺ مُحبًا للتأليفِ والجماعة - سلَّمَ الإمرةَ لعمرو وجمعَ الكلمة(٢).

عبادَ الله: وحين يُوصي العلماءُ والدعاةُ وطلبةُ العلم بالحرصِ على الائتلاف ودفع الاختلاف بكلِّ وسيلة، فلا يعني ذلك تميعَ الدين أو السكوتَ عن الحقِّ

---

(١) الفتاوى ٢٨/ ٢١٢، فقه الائتلاف/ ٢٤٨.

(٢) ترجمة أبي عبيدة في سير أعلام النبلاء ١/ ٥-٢٣.

وكشفِ الباطل.. لكنه الأدبُ في الاختلاف والسعيُ بكلِّ وسيلةٍ للائتلاف، وكم هو رائعٌ أن يدفعَ العلماءُ مفسدةَ فتنةِ العامة، بإظهارِ الوُدّ وتقديرِ بعضهم لبعض، وعدم التنازعِ على مشهد من الناس، ومما يُذكر في ذلك أن الإمام أحمدَ وإسحاقَ وعبدَ الرزاقِ خرجوا إلى المصلى في عيدِ الفطر، وكان أحمدُ وإسحاقُ يَرون سُنيةَ التكبير لعيد الفطر، بينما لا يرى عبدُ الرزاق سنيةَ التكبير إلا في عيدِ الأضحى، ولكن ما الذي حصل في المصلَّى؟ لم يكبر أحمدُ وإسحاقُ مراعاةً لاجتهاد عبدِ الرزاقِ، وعبدُ الرزاق عجبَ من عدم تكبيرِهما وقال: لو كبَّرتما لكبَّرت معكما، مداراةً لاجتهادهما، ودفعًا لفتنةِ العَوَام[1]. وهكذا يحرصُ العلماءُ على توحيد المواقف أمامَ الناس، وإن اختلفت اجتهاداتُهم في بعض المسائل.

ويُوصي العلماءُ وطلبةُ العلم -كذلك- في سبيلِ الائتلاف ودفع الاختلافِ والفرقةِ بالسكوتِ أحيانًا عن بعض المسائلِ غير المألوفةِ، لاسيما إذا كان الخلافُ فيها جاريًا، ونشرُها بين الناس يُحدثُ فتنةً لبعضهم، وهنا يرشدُ الشاطبيُّ رحمه الله إلى ضابطٍ لعرض المسائلِ الشرعيةِ المثيرةِ ويقول: «وضابطه أنك تَعرضُ مسألتَك على الشريعةِ، فإن صحّت في ميزانِها، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حالِ الزمانِ وأهلِه، فإن لم يؤدِّ ذكرُها إلى مفسدة فاعرِضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلكَ أن تتكلمَ فيها، إما على العمومِ، إن كانت مما تقبله العقولُ على العموم، وإما على الخصوص، إن كانت غيرَ لائقةٍ بالعموم، وإن لم يكن لمسألتِك هذا المساغُ فالسكوتُ عنها هو الجاري على وفقِ المصلحةِ الشرعية والعقلية»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢١٤-٢٢١ ترجمة محمد بن رافع.

(٢) الموافقات ٤/ ١٩١ عن فقه الائتلاف، محمود الخزندار/ ٢٤٧.

ومع هذه الوصايا للعلماءِ والدعاةِ وطلبةِ العلم يوصَى عوامُّ المسلمين وغيرُ المتفقهين منهم بالثقةِ بأهل العلم، وتوسيع المداركِ، وعدمِ العجلةِ بإصدار الأحكام، وعدمِ الفرحِ بالخلاف يقع بين العالِمَيْن، وبعدم التشكُّك في شيء من دين اللهِ، إذ الخلاف يقعُ في فروعِ الدين لا في أصولِه، وقد يكون في هذا الاختلافِ رحمةٌ وسَعَةٌ، وحين يقعُ التنازلُ فلا بد من ردِّه إلى اللهِ ورسولِه وإلى ورثةِ الأنبياء عليهم السلام.

عبادَ الله: كم نحن بحاجةٍ جميعًا إلى الفقه في الدِّين، ذلك الفقه الذي يجمعُ ويؤلفُ ويهدي ويرشدُ، وكم نحن بحاجة إلى أن نبلُغَ بديننا ما بلغ الليلُ والنهارُ.. دون أن نهدرَ شيئًا من طاقاتنا في الوقيعة والخلاف بين المسلمين.. وإنني بهذه المناسبة أوصي بقراءة كتابٍ نافعٍ جامع -كذا أحسبُه واللهُ حسيبنا جميعًا- هذا الكتابُ صدر مؤخرًا بعنوان «فقه الائتلاف -قواعدُ التعامل مع المخالفين بالإنصاف» ومؤلفه محمود محمد الخزندار وهو من مطبوعات دار طيبة في الرياض- أسألُ اللهَ أن يجزلَ المثوبةَ لمؤلفِه وأن ينفع به، وأن يعلِّمنا جميعًا ما ينفعُنا، وأن ينفعَنا بما علَّمنا.



الخطر المتجدد(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، مكّنَ لدينه الحقَّ، ونصرَ أولياءَه أصحابَ الحقِّ رَغم جحودِ الكافرين، وخَبَثِ المنافقين، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، الدينُ عندَه الإسلامُ، ومن يَبتغِ غيرَ الإسلام دينًا فلن يُقبلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، جاءت رسالتُه وكتابُ ربِّه مصدِّقًا لما بين يَديهِ من الكتابِ ومُهيمنًا عليه، وبالدعوة والجهادِ ارتفعتْ رايةُ الإسلامِ، وخاب المشركون.. اللهم صلّ وسلّم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلينَ، وارضَ اللهّم عن الصحابةِ أجمعين والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(٣).

عبادَ الله: تُهدِّد الأمةَ الإسلاميةَ في الماضي، وما تزال تُهدِّدها في الحاضر عِدّةُ مخاطرَ من ذواتِ أنفسِها متمثلةً في هوى الأنفُس وضعفِها وكيدِ الشيطان ووسوستِه، ومن داخل صفِّها متمثلةً في إرجافِ المنافقين، ومطامعِ المنتفعين وجهْل الجاهلين، ومن خارج دائرتِها، وذلك بحرب اليهود والنصارى، وعداوةِ المناوئين كافةً للإسلام والمسلمين، وسأقصرُ حديثَ اليوم على طائفةٍ من هذا

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١١/ ٥/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢. (٣) سورة الحشر، الآية: ١٨.

النوع الثالثِ من الأعداء.. بات يتسلّلُ في بلاد المسلمين وغيرِها، ترعاه دولٌ كبرى، ويتخذُ من الهيئاتِ والمنظماتِ العالمية غطاءً لتنفيذ المخطّطات بعد رسم السياساتِ، وما يعجزُ عنه بالسياسة والتنصير يُستخدمُ له أسلوب القوة والقتل والتهجير.

إنه الخطرُ النصرانيُّ واجهَ المسلمين في زمن النبوةِ، وما زال يواجُههم حتى اليوم، ولكنّ نارَه تخبو على صيحاتِ جهادِ المسلمين وفي زمن قوتِهم، ثم لا تلبثُ أن تتأجّجَ في مراحل ضعفِ المسلمين وتفرُّقهم، وغياب قيادتِهم.

أجل؛ لقد اعترف النصارى وغيرُهم من أهل الكتاب بصدقِ رسالةِ محمد ﷺ، ولكن معظمَهم كتمَ الحقَّ وعارضَه، وصدَق وَعْدُ الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وعظيمُ الروم (هرقل) كان واحدًا من هؤلاء الذين اعترفوا بالإسلام وبصدْق محمدٍ ﷺ، وقد جمع عظماءَ الروم في دَسكرةٍ له بحمص وقال لهم: هل لكم في الفلاح والرُّشد، وأن يثبت ملكُكم فتبايعوا هذا النبيَّ.. وهو الذي قال لأبي سفيان رضي الله عنه -بعد حواره معه-: «وقد كنتُ أعلم أنه خارجٌ.. فلو أني أعلمُ أني أخلُص إليه لتجشَّمتُ لقاءَه، ولو كنتُ عندَه لغسلتُ عن قدمِه»[2].

ومع ذلك كلِّه آثرَ (هرقلُ) ملكَه ولم يُسلِم، بل جهّز الجيشَ وأعدّ العُدّةَ لقتال المسلمين، ورسولُ الله ﷺ على قيد الحياةِ، وكانت غزوةُ (مؤتَة) التي استُشهد فيها عددٌ من المسلمين وفي مقدّمتهم أمراءُ المسلمين الثلاثةُ - واحدةً من المعارك بين الإسلام والنصرانيةِ، ومن كيدِ النصارى للمسلمين.

ثم استمرَّ الكيدُ في زمن الخلفاءِ الراشدين، وكانت معركةُ اليرموكِ من أعنفِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٢) رواه البخاري في بدء الوحي.

المواجهاتِ مع النصارى، ولكنّ المسلمين أبلَوْا فيها بلاءً حسنًا، حتى تم النصرُ لهم.

وعجِبَ النصارى من تفوّق المسلمين عليهم، وقال هرقلُ لمنهزمةِ الروم: ويلَكُم أخبروني عن هؤلاءِ القومِ الذين يُقاتلونكم، أليسوا بشرًا مثلَكم؟ قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثرُ أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثرُ منهم أضعافًا في كلِّ موطنٍ. قال: فما بالُكُم تنهزمون؟ قال شيخٌ عظيمٌ منهم: من أجلِ أنهم يقومونَ الليلَ ويصومونَ النهارَ، ويوفونَ بالعهدِ، ويأمرون بالمعروفِ وينهون عن المنكرِ، ويتناصفون بينَهم، ومن أجل أنّا نشربُ الخمرَ، ونزني، ونركبُ الحرامَ، وننقضُ العهدَ، ونغضبُ ونظلِمُ ونأمرُ بالسّخطِ، وننهى عما يُرضي اللهَ، ونُفسدُ في الأرضِ، فقال هرقل: أنتَ صدقتني[1].

وكذلك حين يَصدقُ المسلمون مع أنفسِهم ويتمسّكوا بإسلامهم يُنصَروا.

إخوة الإسلام: واستمرتِ الجبهةُ النصرانيةُ في زمن الدولةِ الأمويةِ والعباسيةِ من أشدّ جبهاتِ الأعداءِ في مواجهةِ المدِّ الإسلاميِّ، ولم يتمكّنِ المسلمون من نشرِ دينِ اللهِ في ممالِك النصارى وغيرِها إلا بعد أن قدّموا عددًا من الشهداءِ، وتناثرتِ الجُثثُ في البَرِّ والبحر، والويلُ للمسلمين حين يَظفرُ بهمُ النصارى، وفي زمن عمر بن عبد العزيز رحمه الله -مثلًا- يروى أنه أرسل سريةً إلى بلد الروم وفيها ثلاثةُ إخوةٍ من أشجعِ الناسِ، فقتَلوا في الروم مَقتلةً عظيمةً، ثم إنهم أُسروا ثلاثتُهم، وعَرضَ عليهمُ الملكُ التنصّرَ فأبَوْا، فأحرقَ اثنين واستبقى واحدًا وأعطاه لبعضِ بطارقتِهِ لينصِّرَه، فأسلم به هو وزوجتُه وولدُه، فَخَدّ لهمُ الملكُ -لما سمع بهم- أُخدودًا وطرحهم فيه، فأماتَهم اللهُ عز وجل قبل أن يَصلوا إلى النار[2].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ١٧.

(٢) رواه الضحاك في «تفسيره» كما نقل مغلطاي في «السيرة» وانظر: ابن حبيش: الغزوات الضامنة ١/ ٣٩، والزهر الباسم/ ٢٧٣.

ثم استمرتِ المناوشاتُ بين المسلمين والنصارى قرونًا متطاولةً، وكانت الحروبُ الصليبيةُ ضد المسلمين من أعتى هذه الحروبِ وأوسَعِها نِطاقًا، وذلك يومَ أن دعتِ البابويةُ -في أوروبا- لشنّ حربٍ على المسلمين تثأرُ بها الكنيسةُ الغربيةُ لما حلَّ بالعالمِ النصرانيِّ من خسائرَ نتيجةَ حركةِ الفتح الإسلاميِّ، ودخولِ أصقاعٍ وأممٍ في دين الإسلام.

وفي هذه الحملاتِ الصليبيةِ تحرّك رجالُ الكنيسةِ، وبرزَ نشاطُ القساوسةِ والرُّهبانِ، واجتمع إليهم الساسةُ الأوربيون، كلُّ ذلك في سبيل إثارةِ العواطفِ ودفْعِ النصارى إلى التضحية بكلّ ما يملكون في سبيل القضاءِ على الإسلام والمسلمين، وقد عبّر عن حقيقةِ الأهدافِ الدينيةِ في هذه الحروبِ مؤرخو الغربِ، وقال أحدُهم: هذه المشاعرُ التي حرّكتِ النصرانيةَ للقيام بالحروب المقدسةِ لم يكن هدفُها القتالَ من أجل ممالكَ أرضيةٍ، بل في سبيل مملكةِ السماء[١].

ولكنّ الله هيأَ للمسلمين قادةً صالحين، لم يقعد بهم نَسبُهم غيرُ العربيِّ عن مواصلةِ ما ابتدأه إخوانُهم من قَبلهم، فكان في العنصر التركيِّ والكردي والتركماني رجالٌ أوفياءُ لقّنوا الصليبيين دروسًا لن ينسَوْها، وبثُّوا في المسلمين رُوحَ الجهاد حتى خلَّصوا بلادَ ومقدساتِ المسلمين من سيطرة الصليبيين.

وظلّ النصارى محتفظين بحقدِهم على الإسلام والمسلمين، وما زالوا يُخطِّطون للقضاء على وِحدةِ المسلمين، حتى تمّ لهم ما أرادوا حين قضوا على الخلافةِ الإسلاميةِ، وفرّقوا المسلمين على شكل دويلاتٍ تفصِلُها الحدودُ

---

(١) انظر مقال: د. عبد الله الربيعي، الدوافع الدينية للحركة الصليبية، الإطار التاريخي للحركة الصليبية، من منشورات: اتحاد المؤرخين العرب/ ١٤١٦.

المصطنعةُ، وتخالُفُ بين شعوبها القومياتُ والنعراتُ الوافدةُ، وأصبح كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون.

وفي ظلِّ هذه الأجواءِ كان الاستعمارُ يحكمُ عددًا من بلاد المسلمين، ولا تسأل عما خلّفه من فسادٍ في القيمِ والأخلاقِ، والتصوراتِ والمعتقداتِ، وسياساتِ الإعلام والتعليم والاقتصادِ، وحين كان الساسةُ الغربيون يُفسدون النُّظُمَ ويُشرّعون القوانينَ، كان إلى جانبهم رجالُ الدّينُ يُنصِّرون ويَنصبون الخيامَ للدعوة لتعاليم المسيح - كما يزعمون.

وفوق ذلك كلِّه، فقد كانَ للنصارى دورٌ واضحٌ في زرعِ اليهودِ في أحضانِ العالمِ الإسلامي، ومنذُ وعدِ (بلفور) إلى يومنا هذا، وحواضرُ النصارى تدعمُ الوجودَ اليهوديَّ؛ لتكون قوةً مساندةً لهم في حربِ المسلمين، وقد كان.

إنها سلسلةٌ من المكائد والحروبِ يَشهدُ بها التاريخُ على حقد النصارى وتعصُّبهم ضدَّ المسلمين، وكفى باللهِ شهيدًا، وبالقرآن حكمًا والله يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1]، لا يستثنى من ذلك إلا من آمنَ منهم ولم يستكبر عن قَبول الحقِّ، أولئك الذين عناهم اللهُ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾[2].

وأشار إليهم بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠. (٢) سورة القصص، الآيتين: ٥٢، ٥٣.

فَأَكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١].

إلى غير ذلك من نصوصٍ جاءت في مُؤمنةِ أهلِ الكتابِ الذين استجابوا للهِ والرسولِ.

أما سواهم فقد جاء التحذيرُ الإلهيُّ عن موالاتِهم وحاكمًا على من وَالاهم، فقال تعالى مخاطبًا أهلَ الإيمان: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[٢].



---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٨٢-٨٤.
(٢) سورة المائدة، الآيتين: ٥١، ٥٢.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، من توكّلَ عليه كفاهُ، ومن يعتصم بالله فقد هُديَ إلى صراطٍ مستقيم، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، اقتضت حكمتُه أن يتدافعَ الحقُّ والباطلُ في الأرض إلى يوم الدين، ليميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيبِ، ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعضٍ فيركُمُه جميعًا فيجعلُه في جهنم، أولئك هم الخاسرون، وأشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، نصر اللهُ به الحنيفيةَ السّمحاءَ، وجاءت رسالتُه متممةً لرسالاتِ السماء، وجاء بُنيانُه مكمِّلًا لبنيان الأنبياءِ قبلَه - وعليه وعليهم جميعًا أفضلُ الصلاةِ وأزكى التسليم.

إخوة الإيمان: وحين أسوقُ لكم باختصارٍ نماذجَ للكيد النصرانيِّ ضد الإسلام والمسلمين، لا يفوتني أن أذكرَ بأن كيدَ النصارى سابقٌ لبعثةِ محمد ﷺ، فقد كانوا لا يَرْضوْنَ بوجود دينٍ ينافسُ دينَهم، ولو كان دينُهم -هم- محرّفًا، ولو كان الدّينُ الذي ينافسُهم عبادةَ الأوثان، ولا يَرضوْن بقوم ينافسونهم على السِّيادة، ولو كانوا قِلّةً بجانب كثرتِهم هم، وكفرةً وثنيين، وهم يزعمون الإيمانَ ويتشبّثون بالدِّين، وفي قصة الفيلِ -التي جاء ذكرُها في القرآن- وغيره عبرةٌ وعِظةٌ -لمن تأمّل- في تاريخ النصرانية والنصارى.

وقد جعل كيدَهم في تضليل، وحفظ بيتَه من عَبثِ النصارى، وأرسل عليهم طيرًا أبابيلَ، ترميهم بحجارةٍ من سِجيل، فجعلهم كعصفٍ مأكول.

وكانت الحادثةُ إيذانًا بعدم صلاحية النصارى لقيادة العالم، وإرهاصًا لبعثةِ محمدٍ ﷺ؛ لتكون الكعبةُ المحفوظةُ قِبلتَه، وليكون العربُ المنتصرون قومَه ورجالَه، واستجاب اللهُ دعاءَ عبد المطلب - زعيمِ قريشٍ حينها:

لاهُمّ إنّ العبدَ يمنعْ رَحْلَه فامْنَعْ رِحالَكْ

لا يَغلبنَّ صليبُهم ومِحالُهُم أبدًا مِحالَكْ

إخوة الإسلام: ولا يقولنّ قائلٌ -حين يسمعُ مكائدَ النصارى-: ذاك تاريخٌ مضى، وهم اليوم يمثِّلون التسامحَ، ويَرعونَ التحضُّرَ في العالم، وتلك -وربِّي- نظرةُ تغفيلٍ تؤكّدُ الوقائعُ المُرَّةُ خلافَها، وتَشهدُ مخططاتُ النصارى للحاضرِ والمستقبلِ بنقيضها، ودونكم الحقائقَ عن حركاتِ التنصير في العالم فاعقِلوها واعتبروا بأحداثها.

يقول المنصّرُ الألمانيُّ (هانز): لم يحدثْ أن اتفقت الكنائسُ واتّحدتْ إلا في هذا العصرِ الذي اتخذ فيه الجميعُ خطةَ تنصير المسلمين أُقنومًا رابعًا يُضاف إلى الأقانيم الثلاثةِ التي تقومُ عليها عقيدتُنا نحن المسيحيين[١].

ومن التنظير إلى التنصير الفعلي حيث يَسري قطارُ النصرانيةِ من أقصى الشمالِ إلى أقصى الجنوبِ، ومن مَغْرِب العالم الإسلاميِّ إلى أقاصي المشرق، وينتقل (بابا) الفاتيكان من أفريقيا إلى آسيا، داعمًا حركةَ التنصيرِ، ويقول البابا بولس الثاني - حين قام بثالث رحلةٍ لأفريقيا خلال خمسة أعوام-: إنه يأملُ أن يُرسي قواعِدَ الكنيسةِ الكاثوليكيةِ الرومانيةِ ضدَّ النهضةِ الإسلاميةِ المتزايدِة في القارة[٢].

وفي باكستانَ الدولة المسلمة يزورُ البابا (جون بول الثاني) كراتشي، بل ويُقيم (القُدّاسَ) في ستادها الرياضي، فماذا يعني ذلك؟ إنه التحدي لمشاعرِ المسلمين، والهجومُ الصارخُ على معاقلِ الإسلامِ[٣].

---

(١) عبد الودود شلبي: حقائق ووثائق عن الحركات التنصيرية في العالم الإسلامي ص٥.
(٢) المرجع السابق (١٤). (٣) المرجع السابق ص٧٩.

ولعلَّكم تعجبون، بل تستغربون إذا علمتم أنّ في ماليزيا وحدها ما يَقرُبُ من خمس مائة منظمةٍ تنصيرية[(١)].

إخوة الإيمان: ولكنَّ أمْرَ النصارى في واقعهم المعاصرِ أدهى من ذلك وأَمَرُّ، فهم لا يكتفون بالدعوة السلميةِ ومحاولةِ تنصير الشعوبِ المسلمةِ وغيرِ المسلمةِ، بل يستخدمون القوةَ إذا شعروا بتفوّق المسلمين وأحسُّوا بيقظتهم، وفي أحداثِ الصربِ النصارى مع مسلمي البوسنة والهرسك، وما جرى في كوسوفا ويجري الآن في الشيشان، كلُّ ذلك وأمثالُه يُعدُّ وحشيةً يَنْدَى له جبينُ الإنسانية، وتُعدُّ نقاطًا مظلمةً تُسوِّدُ بها صحائفُ التاريخِ النصرانيِّ؟

واليوم تحدثُ مآسي في إندونيسيا ذاتِ الكثافةِ السكانيةِ المسلمةِ، ولم يكتفِ النصارى - ومن ورائهم الغربُ - بفصل (تيمور الشرقية) بل يتحركُ النصارى في جُزرٍ أخرى - على حين غفلةِ المسلمين عن إخوانهم - فيقتلون ويطردون المسلمين عن ديارهم.

عبادَ الله: إن هذا الكَيدَ النصرانيَّ يؤكِّد -إلى جانبِ تعصُّبِ النصارى- يقظةُ المسلمين، فتلك اليقظةُ مقلقةٌ لعُبّاد الصليب، وحين نسوق نماذجَ لكيدهم لا ينبغي أن يداخلَنا شكٌّ في أن الغلبةَ للإسلام والمسلمين مستقبلًا، ولكن ينبغي أن تنشأ عندنا -معاشرَ المسلمين- تساؤلاتٌ، وتصحّحَ لنا مفاهيمَ خاطئةً، ومن بين هذه التساؤلات: وماذا يثير فينا هذا النشاطُ النصرانيّ المكثفُ من غيرةٍ لدين اللهِ وحماسٍ للدعوة للدين الحقِّ؟! وما هي برامجُ وخططُ المسلمين حاضرًا ومستقبلًا لمواجهة المدِّ النصراني الذي يحاولُ إعادةَ الاستعمار بطريقةٍ أخرى؟ وهل يُدرك العالمُ الإسلاميُّ خطورةَ السكوتِ على مخططاتِ الغربِ في اقتناصِ

---

(١) المرجع السابق ص٦٦.

العالم الإسلاميِّ وحدةً وحدة، حتى يستحوذَ عليهم في النهاية أجمعين؟!

إن الوعي بالخطر النصراني خطوة أولى، ولا بد أن تتبعها الخطوة الأخرى في الأعداد والعمل ولا بد -ثالثًا- من الصدق والصبر والمجاهدة حتى يأذن الله بالنصر إن على أيدينا أو على أيدي أبنائنا وأحفادنا.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] «ولينصرن الله من ينصره»..

اللهم انصر دينك وعبادك الصالحين، واجعلنا وذرارينا من أنصار دينك يا رب العالمين، اللهم اجعل كيد الكائدين في نحورهم، واجعل تدبيرهم تدميرًا عليهم يا حي يا قيوم.



(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

فهرس خطب الجزء السابع



فهرس خطب
الجزء الثامن





